جمال الغيطانى

المجالس المحفوظية



دار الشروق


المجالس المحفوظية

الطبعـة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى : email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

جمال الغيطانى

المجالس المحفوظية

دار الشروق

مقــدمة

يمكن اعتبار عام أربعة وتسعين من القرن الماضى علامة فارقة فى حياة نجيب محفوظ، وفى علاقتنا به، ليس فى مضمونها، ولكن فى شكلها، والظروف المحيطة بها. لا أعتبر عام ثمانية وثمانين مماثلاً. أعنى السنة التى حصل فيها على نوبل. عندما أعلنت الجائزة يوم الخميس، ذهبت إلى البيت، كان عدد كبير من الصحفيين المصريين والعرب والأجانب أمام البيت الذى يقع فى الطابق الأول من بيت يطل على النيل الصغير، الفرع الأضيق ناحية الجيزة. بعد لقائى بالسيدة زوجته التى كانت تواجه وضعًا لم تعتده فى حياتها التى كانت تمضى فى هدوء، بعيداً عن الأضواء، وكان تردد المقربين جداً على البيت الصغير الذى تقيم فيه الأسرة منذ الخمسينيات. شقة صغيرة، اختير أثاثها بذوق رفيع، لم يتح لى دخولها قبل يوم نوبل إلا مرة واحدة عدت فيها الأستاذ أثناء مرض عابر منذ سنوات. كانت المقاهى أماكن لقائنا منذ أن بدأت علاقتنا عام تسعة وخمسين. فى ذلك اليوم، بعد ظهر الخميس الأكتوبرى، كان الجميع يتساءلون عن المكان الذى قصده الأستاذ. لم أكلف نفسى عناء السؤال، خرجت من البيت قاصداً كازينو قصر النيل، وهناك رأيته. أقبلت عليه مهنئًا، مرحبًا، كان يجلس مع صحبه من الحرافيش القدامى، عادل كامل

صديق عمره، والذى بدأ مسيرته الروائية معه فى نفس المرحلة، وقدم إلى المكتبة العربية عملاً جميلاً «مليم الأكبر» ومسرحية «جلفدان هانم»، ثم توقف عن الكتابة واتجه إلى عالم التجارة، أيضا الفنان أحمد مظهر - رحمه الله - والمخرج توفيق صالح. الثلاثة من أعضاء جماعة الحرافيش القدامى.

يوم الخميس كان مخصصًا فى الأصل للقائين، الأول فى مقهى عرابى بالعباسية مع أصدقاء الطفولة والشباب، فى نهاية السبعينات أغلق المقهى وتم تقسيمه إلى متاجر، وفى نفس الوقت كان معظم أفراد شلة العباسية قد توالى رحيلهم، ومن امتد به الأجل حتى الآن لم يعد يخرج من بيته لمرض أو شيخوخة. مع بداية الثمانينات توقف الأستاذ عن الذهاب إلى مقهى عرابى بعد اختفاء المقهى نفسه. منذ أن سمح لى بالتردد على المقهى فى منتصف الستينات، كان يمضى فيه ساعتين بالضبط، من السادسة إلى الثامنة. وعندما يحين وقت انصرافه، يمضى سيراً على الأقدام إلى كبابجى شهير قريب من ميدان الجيش، يكون الكيلو فى انتظاره ملفوفًا، ومن حلوانى قريب يأخذ كيلو البسبوسة، يستقل عربة أجرة إلى الهرم حيث منزل الكاتب الساخر محمد عفيفى - رحمه الله - ومقر لقاء الحرافيش لأكثر من ثلاثة عقود. الطريف أن الأستاذ توقف عن إحضار الحلوى بعد اكتشافه إصابته بالسكر فى بداية الستينات.

يوم الجمعة تنقل اللقاء بين أكثر من مكان، واستقر حتى السبعينات فى مقهى ريش، ثم انتقل إلى كازينو قصر النيل، السبت للأسرة، والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء للكتابة. فى شهور

الصيف كان الثلاثاء موعدًا خاصا للقائه فى مقهى الفيشاوى، موعد لا يحضره إلا يوسف القعيد وكاتب هذه السطور. خلال الصيف يتوقف عن الكتابة، والسبب المعلن حساسية فى العينين تبدأ مع الربيع. من الصيف كان يقضى شهرًا فى الإسكندرية، وهناك كان له ندوته، هو أيضا المركز، يتحلق حوله أدباء الثغر، والمصطافون، يأتى من يأتى ويجىء من يجىء، لكن يظل هو فى الصدارة، فى صدارة المقهى. توقف عن الذهاب إلى الإسكندرية منذ بداية التسعينات، عندما ضمر البصر، وبعد إجراء العملية الجراحية فى لندن.

حتى عام أربعة وتسعين، حتى يوم الجمعة هذا، كان الأستاذ يمضى طبقًا لنظامه المحفوظى الصارم الذى التزمه، لم يتغير، وإذا تغير موقع، أو مكان لقاء، فإنما يحدث ذلك لتغير فى الظروف والواقع.

إلى أن حل ذلك اليوم الخطير، الذى وضع حدا لكل ما اعتاده الأستاذ، لسعيه بين الناس، لخروجه اليومى فى الصباح الباكر، وسيره حتى مقهى فى ميدان التحرير، مشيه الجميل الذى أتاح لى فرصة مصاحبته اليومية فى الستينات، عندما كنت أعمل فى مؤسسة مقرها الدقى، وكنت ألتقيه فوق كوبرى الجلاء وأمشى بصحبته حتى كوبرى قصر النيل. عاش الأستاذ بين الناس، يسعى بينهم، ويبادلهم الحب ويبادلونه، وعندما شنت ضده الحملات الصحفية التى مهدت المناخ ليوم الجمعة هذا، وظهرت ضده كتب ألفها فقهاء الظلام ضد «أولاد حارتنا»، رفض الحراسة. وقتها قال لى إنه لا يتخيل نفسه

ماشيا فى الشارع ومعه حارس، كان لديه إيمان عميق ويقين داخلى أن أذى لن يلحقه. مرة أومأ برأسه، قال لى: الأعمار بيد الله.

غير أننى كنت أتوجس خيفة، نتيجة تجاربى السابقة خلال الستينات، والمطاردة، وتوقع الاعتقال، إذ إننى أنتمى إلى جيل فتح عينيه على الرعب، وانخرط فى العمل السرى ضد الأوضاع التى رآها كثيرون منا خاطئة، نتج عن ذلك إحساس أمنى حاد. استقرت لقاءاتنا منذ بداية التسعينات على الثلاثاء، وعندما أصبحت رئيسًا لتحرير أخبار الأدب، وأصبح لى سيارة خاصة من دار أخبار اليوم يقودها زميل من السائقين، توليت مهمة صحبته من البيت.

فى السادسة إلا خمس دقائق أنتظر، فى السادسة تمامًا يخرج من باب العمارة، أتقدم إليه، أصحبه حتى يصل إلى العربة، أفتح الباب، يفضل الجلوس فى المقعد الأمامى إلى جوار السائق. ثم ننطلق إلى المكان الذى اعتدنا اللقاء فيه، والذى استقر خلال التسعينات فى مركب راسٍ على شاطئ النيل، اسمه «فرح بوت» وما زال.

رغم أننى غير مسلح، ولو أننى مسلح فلا أجيد استخدام السلاح، إلا أننى كنت عند وصولى أمام البيت أمسح المكان ببصرى، أتصور هجومًا ما، إن انتظامه الشديد يسهّل على من يرصده توقيت الهجوم. كنت أتوقع ذلك، أستشعره مع تصاعد أعمال العنف فى المجتمع من الجماعات المتطرفة، والتى كانت فى جوهرها حركات احتجاج على الفساد، والخلل، لكنها ضلت طريقها عن أهدافها الحقيقية لأسباب يطول شرحها.

بعد نشر صورة الشاب الذى غرس السكين فى عنق الأستاذ عصر يوم الجمعة هذا، تذكرته. فى مرة كنت أنتظر الأستاذ، كان الجو حارا. لفت نظرى شاب يرتدى الجينز، يجلس تحت الشرفة المغطاة حيث يعيش الأستاذ فى الطابق الأرضى، شرفة بعرض الشقة، زجاجها سميك، مسور بقضبان مزخرفة، وأضافت السيدة عطية الله رفيقة عمر الأستاذ نباتات شكلت حديقة صغيرة مبهجة تغطى الطابق كله.

تطلعت إلى الشاب الذى بادلنى النظر الحاد، ثم تشاغل بتقطيع ورق كان يحمله إلى قطع صغيرة، لم يُبْد رد فعل، بل استمر قابعا مكانه، فكرت.. ربما يستظل من الحر، لكَن صورته قفزت إلى ذهنى بعد أسابيع عندما نُشرت، إنه نفس الشاب الذى تقدم من الأستاذ عصر ذلك الجمعة ليصافحه بيد وليغرس بيده الأخرى سكينا قديما، مقبضه مخلوع ومربوط بخيط دوبارة متين، طعنة وضعت حدا لحقبتين متمايزتين، مختلفتين تماما، الثانية منهما مستمرة حتى الآن.

* * *

أعود إلى أوراقى الخاصة التى دونت فيها وقائع تلك الأيام من سنة أربعة وتسعين، بالتحديد الجمعة، الخامس عشر من أكتوبر. فى هذا اليوم كنت ألتمس الراحة عقب عودتى أمس الخميس من رحلة إلى المغرب، كنت أرتب مكتبى الذى تغيبت عنه وأستمع إلى بعض التسجيلات الموسيقية الأندلسية التى اقتنيتها من مدينة فاس العتيقة. رن جرس الهاتف، جاءنى صوت الزميل والصديق مصطفى بكرى: «هل علمت أنهم ضربوا نجيب محفوظ؟.. أرجوك تأكد من هذه الأخبار...».

أجبت بالنفى. طلبت منه أن يتصل بى بعد قليل، فوجئت، جمدت للحظة، لحظة كنت أتوقعها وأتمنى ألا تحل، يبدو أننى فى مواجهتها الآن، ثمة ثوان قبل أن تبلغ الضربة مراكز الألم فى المخ. سيطر علىّ هذا الحال بينما مثل أمامى الرجل الطيب، حضوره الأبوى، وصحبتى له، اتصلت بمنزله. أجابتنى ابنته الصغرى، قلت بصوت محايد وكأننى لا أقصد أمراً محدداً وأقصد:

«خير.. ما الأخبار؟»

أجابتنى بألم وخشية من المجهول:

«لا أعرف ما يجرى الآن، بابا فى غرفة العمليات، والنبى ادع له يا عمو...»

ثم قالت:

«ماما وأختى عنده... هنا فى مستشفى الشرطة جنبنا...».

نطقت جملاً قصيرة استهدفت منها بث الطمأنينة، دعوت له بالنجاة. بدأت أتصرف، اتصلت بزملائى فى مركز تحرير جريدة أخبار اليوم، كنت أول من ينبئهم بالخبر، اتصلت بصديقى يوسف القعيد، كان فى منزله، قال إن أحد أصدقائه اتصل به مستفسراً، اتصلت بالصديق عماد العبودى المهندس ورجل الأعمال، كانت جلسة الثلاثاء محدودة وقتئذ، وكان عماد أحد أركانها، قال إنه سيمر على يوسف ويمران علىّ ثم نتجه إلى المستشفى. نزلت إلى الطريق، كنت فى مواجهة الليل والخوف مما يجرى، ونشطت الذاكرة لتمطرنى

بدفق من اللحظات المولية، هذا حال أعرفه عندما يهددنا الواقع بفقد صديق، تبرق لحظات أعرفها، لحظات سمعت عنها . .

انتظارى كل ثلاثاء أمام البيت، ما حدث اليوم والدكتور فتحى إلى جواره كان ممكنا حدوثه معى . إصغائى إليه، اقترابى من أذنه اليسرى التى ما زالت حاسة السمع فيها ممكنة بمساعدة السماعة، رفعى الصوت، لحظات صمته، شرود نظراته، سعيه فى الطريق السادسة صباحا بجوار النيل الذى أحبه وأقام فى عوامة بعد زواجه لمدة سنة، ثم سكن على مقربة منه، محفوظ النيل ونيل محفوظ، شراؤه الصحف، استقراره فى مقهى ريش، مقهى جروبى، مقهى على بابا، فى هذه المقاهى قرأ الصحف، كتب برقيات العزاء أو التهانى، دوّن بعض الملاحظات، أمسيات مقهى عرابى، رائحة التنباك المنبعثة من النرجيلة التى تعلمت تدخينها منه ثم توقفت عنها، ضحكاته المجلجلة مع صحبه أصدقاء الطفولة من شلة العباسية، سعينا فى حوارى الجمالية، احترامى لحظات صحبته بمقاهيها العتيقة عندما يستعيد زمنه الخاص. لا أتكلم إلا إذا تحدث هو، محبة الناس له، مشيه بينهم، يرد التحية لهذا، يصافح ذاك، لا يرد أى إنسان، صبر عجيب، تواضع جم، سماحة لم أعرف مثيلا لها. لحظة تناوله الطعام كل ثلاثاء بصحبتنا، طعام الزهاد، قطعة جبن أبيض، شريحة طماطم، قرص طعمية، فقط لا غير.

ما لم أعرفه معه صباه فى بيت القاضى، شجر ذقن الباشا، خناقات الفتوات، حب الحسين، لعبه فى قبو قرمز، الثورة عام ١٩١٩، الثلاثينات، العصر الذهبى للقاهرة، الحرب العالمية الثانية،

المخابئ، انتهاء عصر الفتوات، الغداء فى العجاتى، الدهان، الكباب والكفتة، السهر فى توفابيان، مقهى زقاق المدق، وزارة الأوقاف، فترة العمل فى قبة الغورى، الثورة.

نجيب محفوظ، إنه عصر بأكمله مختزل فى إنسان، عاش المجتمع المصرى وعبّر عنه طيلة سبعين عاما من الكتابة المتصلة، وهذه حالة فريدة فى تاريخ الأدب والأدباء، كدت فى ذلك اليوم القصى البعيد الآن وقد أدركت هول ما جرى وبدأت أستوعب أن أولول وأصرخ باكيا:

«يا أستاذى... يا حبيبى»

عندما وصلنا إلى المستشفى الذى يقع بجوار البيت، على بعد ثلاثين متراً تقريبًا، وهذا من لطف التدبير الإلهى وعنايته، كان قد مضى على تسديد الطعنة حوالى ساعتين، دخلنا إلى قاعة الانتظار القريبة من غرفة العمليات. كان ـ المرحوم ـ ثروت أباظة ينهنه كطفل. راح يردد:

«نجيب.. نجيب.. معقول أن يؤذيه أحد.. أن يمسه أحد..»!

نرجوه الهدوء ونحن فى حاجة إلى من يهدئنا، هناك فى الطابق الثانى يرقد الأستاذ ممدداً فوق طاولة العمليات، فريق من الجراحين المهرة يقودهم أهم جراح أوعية دموية فى مصر، الدكتور أحمد سامح همام. مرة أخرى أوقن بتدخل العناية الإلهية.

المرة الأولى، لأن المسئول عن صحبة الأستاذ اليوم هو الدكتور

فتحى هاشم، وهو طبيب بيطرى، لكنه طبيب أولاً وأخيراً. عندما ركب الأستاذ السيارة واستقر إلى جواره، تقدم ذلك الشاب منه، صافحه، ثم دفع بمطواة قرن غزال فى رقبة الأستاذ وبدأ محاولة الذبح، كان يستهدف قطع الشريان السبائى الرئيسى موصل الدم إلى الدماغ والمخ، كما قال لنا فيما بعد.

«بعد أن صافحنى شعرت بوحش من نار يطبق على رقبتى..»

ما أنقذ نجيب محفوظ شيخوخته، انحناؤه إلى الأمام بسبب السن، مرت المطواة بسبب ذلك قرب الشريان الرئيسى، فى هذه اللحظة عندما بدأ اهتزاز العربة انتبه الدكتور فتحى هاشم إلى ما يجرى. صرخ:

«بتعمل إيه يا مجنون؟!»

قفز من السيارة، هنا ألقى الشاب بالمطواة، وبدأ الجرى، تعقبه فتحى، لكنه آثر العودة إلى الأستاذ المصاب، كان الدم يتدفق كنافورة، بسرعة جلس مكانه، ضغط الجرح بيد، وبيد واحدة قاد العربة الصغيرة إلى الخلف قاصداً المستشفى، قطع الأمتار القليلة الفاصلة، وعندما وصل إلى البوابة الرئيسية هرع إلى الباب صارخًا:

«افتحوا... الأستاذ نجيب محفوظ، حاولوا...»

بسرعة فتح الباب، حتى هذه اللحظة كان الأستاذ واعيًا، أنزلوه إلى نقالة متحركة، قبل أن يغيب وعيه قال:

«خدوا بالكم أنا عندى سكر...»

الحق أن التصرف جرى على أرفع مستوى، بعد تقدير سريع للموقف، اتصلت إدارة المستشفى بالدكتور أحمد سامح همام، وهنا يتدخل القدر. . لم يكن المحمول معروفًا في مصر وقتئذ، جرى الاتصال في وقت كان فيه الجراح الشهير يقف أمام المصعد فيً الطابق الذي يسكنه متأهبا للمغادرة إلى دعوة عشاء. لحقوا به قبل ركوب المصعد، لبى على الفور، لم يستغرق وصوله إلا مسافة الطريق، ودخل إلى غرفة العمليات على الفور، وصل اللواء حسن الألفى وزير الداخلية وقتئذ، والدكتور على عبد الفتاح وزير الصحة وقتئذ، والدكتور ممدوح البلتاجى وزير السياحة وعدد من كبار المسئولين بمباحث أمن الدولة. ما زلت أذكر الأنباء التى كانت تصلنا من غرفة العمليات.

«تم إيقاف النزيف. . كان الدم يتدفق مثل النافورة. . . »

«تم نقل ثمانية لترات من الدم. . . أربعة عشر كيسًا»

أمام المستشفى جرى تجمع من مثقفين وناس عاديين توافدوا إليه بعد سريان الخبر، وتطوع كثيرون بدمهم لإنقاذ الأستاذ. بعد أربع ساعات جاءنا النبأ:

«نجحت العملية. . ويجرى نقل الأستاذ إلى غرفة الرعاية المركزة. . »

بعد منتصف الليل، مشينا فى طرقات المستشفى الذى عرف الهدوء بعد الساعات العصيبة. كنا أربعة، يوسف القعيد وعماد العبودى وممدوح الليثى. قطعنا الممرات الطويلة، لم نكن نعرف

وجهتنا على وجه الدقة، أخيراً وصلنا إلى غرفة الرعاية المركزة التى يرقد فيها أكثر من مريض كان نائمًا على ظهره، لأول مرة فى حياتى أراه بدون نظارة طبية، بدا منفعلاً، صوته به رعشة وحشرجة، كان يصافح باليسرى، استعدت ما قاله الدكتور سامح همام عن تأثر العصب الواصل إلى اليد اليمنى، قال إنه اطمأن عندما رأى الأستاذ يحرك أطرافه، لكن الأمر سيحتاج وقتًا.

أعود إلى أوراقى التى كتبتها فى الأسبوع التالى فأجد ما نصه:

«اليوم صباح الأربعاء..

أفكر فى يده اليمنى، فى بطء حركتها. تلك اليد التى حفرت نهراً للإبداع العربى، اليد التى كتبت الثلاثية والحرافيش وأولاد حارتنا. أتأمل لون الجلد الغامق الذى لم أعرفه فى اليد التى قبّلتها مراراً، أفكر فى رقاده، فى أيامه بعد الشفاء، أثق أنه سيتكيف مع الظروف الجديدة، تماما كما تكيف مع ظروفه بعد أن ثقل السمع وكَلَّ البصر، مع علمى أنه لا يغير عاداته إلا بصعوبة شديدة. أحلم الآن بتلك اللحظات التى أتعجلها، عندما أصحبه كعادتنا ونجوس خلال حوارى القاهرة القديمة، نسعى خلال الزمن العتيق...»

لحظات عودته إلى الكتابة حلت بعد أربع سنوات من العلاج الطبيعى اليومى، عندما مال علىّ ليُسرَّ إلىّ قائلا:

«اليوم تمكنت من الكتابة بدون أن أنزل عن السطر..»

خلال تلك السنوات الأربع التالية للحادث، رتب أوضاعه، ونتيجة إرادة داخلية قوية تكيف مع الظروف الجديدة. ليس نتيجة

الحادث فقط، ولكن نتيجة التقدم فى العمر والوهن. لقد نالت الشيخوخة من بصره فلم يعد يستطيع القراءة، عرضنا عليه المساعدة، لكنه لم يحمّلنا من أمرنا نصبًا. رتب مع رجل طيب مجيئه اليومى إليه فى الصباح ليقرأ له لمدة ساعة أهم الأخبار فى صحف الصباح، القومية والمعارضة، أما المقالات والنصوص الأدبية المهمة فيقرأها عليه الأصدقاء فى جلساتنا الليلية والتى أصبح لها ترتيب خاص. بالنسبة لى اعتدت أن أقرأ له الشعر القديم والذى يحبه واعتاد أن يفتتح به القعدة «عشان تحلوّ»، أى قبل أن يكتب أو يقرأ. أقرأ له بصوت مرتفع ما أعجبنى من شعر القدماء، وأفاجأ أحيانًا به يكمل الأبيات من ذاكرته، وقد دونت كافة القصائد التى اتضح لى أنه يحفظها واعتبرتها بمثابة مختاراته.

أحيانًا أقرأ عليه مقطوعات من النثر، ويلفت نظرى ملامحه أثناء تركيزه للإصغاء، وقد يعلق فى نهاية النص برأى ثاقب. إذا كان الزمن قد نال من حاستى السمع والبصر فإنه لم ينل من الذهن الذى ما زال حادًا، نافذًا، أما الذاكرة فمدهشة.

أحيانًا يثير أحدنا موضوعًا ما، ويطلب رأيه، فيجيب بكلمة أو كلمتين عابرتين، على سبيل المثال، سألته عن رأيه فى أحداث سبتمبر بعد عام تقريبا من وقوعها، فقال لى فى البداية:

«وهل يحتاج الأمر إلَى رأى؟»

ولما كررت عليه السؤال، قال:

«أنت شايف...»

سكتّ. انتقلنا إلى موضوعات أخرى، وإذا به بعد حوالى نصف

ساعة يميل إلى الأمام. يشير بأصبعه، هنا نصغى كلنا، ندرك أنه سينطق ما يهمنا، ما يعبر عن رأيه، يقول:

«شوف، بالنسبة لسبتمبر، أظن أنه لم يقع حادث أضرَّ بعلاقات الشرق والغرب مثل هذا الحادث، الذين ارتكبوه أساءوا إلى الإسلام أبلغ إساءة، وسبقه سلوكيات الطالبان التى أساءت أيضا للإسلام وصورته، إننا بحاجة إلى جهد كبير لنعود إلى الوضع السابق على سبتمبر. . ».

يصمت قليلا ثم يقول:

«لا أظن أن الوضع سيعود كما كان. . ما زلنا فى بداية مرحلة لم تتحدد معالمها ولا ندرى نهاياتها. . »

أحيانًا تثار مناقشات حول موضوعات أدبية، أو سياسات داخلية أو خارجية. يكفى أن يصغى ويستوعب لينطق بالحكمة، ما زالت قدرته على توليد النكتة فى ذروتها، وأسبوعيا يجعلنا نضحك من الأعماق بعد قفشة مفاجئة، مباغتة لا نتوقعها، والقفشة فن مصرى دقيق ينتمى إلى زمن جميل عندما كانت المشاكل العامة أخف وطأة، وكانت الأوقات الجميلة تمضى مع الصحبة المقربة والدنيا صافية. نجيب محفوظ من أمهر ملوك القافية والقفشة، وكلا الفنين يعتمدان على سرعة البديهة والقدرة الحادة على السخرية.

بعد أن تسلم الشيك المليونى من إبراهيم المعلم، سكت قليلا ثم قال:

«تعرف أنا بافكر فى إيه دلوقتى؟»

تطلعنا صامتين، قال :

«بافكر أهرب . . »

وانفجرنا بالطبع ضاحكين. كانت أخبار الذين اقترضوا الملايين - وبعضهم المليارات - تنشر يوميا فى الصحف، هربوا بأموال المودعين، أموال الغير، ودعابة محفوظ كم بدت نافذة، موحية، موجعة!

فى مرة أخرى كنا نتحدث عن راقصة شهيرة بمناسبة تصريحها أنها تنوى التقاعد، بعد لحظة صمت قال :

«ابقى طلعها فى الذخائر . . »

الذخائر سلسلة أشرفتُ عليها وكانت تصدر عن هيئة قصور الثقافة، قدمت فيها نصوصا هامة من التراث العربى.

تتميز النكتة المحفوظية بالذكاء، والثقابة، الدقة وشحنة السخرية العالية، مجرد استعادة هيئته لحظة إلقائه النكتة أو توليدها أو نطقه القفشة يجعلنى أبتسم، إن متابعة ملامحه أثناء الجلوس معه تمنحنا خريطة دقيقة واضحة للعواطف الإنسانية، دائمًا كنت أحترم صمته، قبل الحادث والتقدم فى السن، كان يجلس مفرود القامة، متطلعا إلى فوق، على وجهه ذلك التعبير الذى يستدعى الوصف المصرى المتلخص فى كلمة واحدة بالغة الدلالة، عندما نقول عن إنسان إنه «طيب». يبدو سمحًا، رقراقًا، ذاهبا إلى بعيد وهو قريب، الآن مع التقدم فى العمر، ضمر الجسد، انحنى قليلا، يطول صمته مستغرقًا فى ذاته. خلال جلستنا معه أحرص على ألا ندخل فى أحاديث جانبية. عندما يشعر أن الذين معه انصرفوا عنه، ولا يستطيع الإصغاء

إليهم، يتداخل فى نفسه، يمضى إلى أزمنته الخاصة، عندئذ أبادر بسؤال، برواية خبر أو نادرة. الآن، يصغى الأستاذ معظم الأوقات، إما أنه يصغى إلى محدثه، أو إلى داخله. ذروة تدفقه عندما يروى ذكرياته عن المدينة، عن الحياة الأدبية، عن الأزمنة المنقضية.

أحاول أن أتذكر ملامحه غاضبة فلا أستطيع، ينفعل عندما يعرب عن رأى يعلنه أول مرة أو يتصور أنه مفاجئ لنا، خلافى، لعل تلك اللحظة من صيف عام سبعة وستين تجسد ما أقول، عندما بدأنا نلتقى فى الفيشاوى، وكان المقهى القديم قائمًا فى تلك الأيام، وكانت هزيمة يونيو المروعة ساخنة ما تزال. مال قليلا إلى الأمام وقال معربًا عن رأيه: إذا كان ليس فى استطاعتنا مواجهة إسرائيل عسكريا، فالصلح ضرورى.

بالطبع تجادلنا. وظل ذلك موضع حواراتنا لسنوات تالية، وعندما أيد الصلح مع إسرائيل فى السبعينات، كان يعبّر عن موقفه الحقيقى. فى العدد الخاص الذى أصدره عنه الأستاذ رجاء النقاش عام سبعين من القرن الماضى، قال الأستاذ إنه عندما يجلس للكتابة فإنه لا يعبأ بشىء، وفيما يتعلق بآرائه المبدئية فإنه لم يظهر خلاف ما يبطن وليس لديه حسابات صغيرة، كثيرا ما اختلفت معه وأثبتت لى الأيام أنه كان أبعد نظراً، ربما لا يجنح إلى الإثارة فى تصريحاته الصحفية، متزن فى مواقفه التى تتعلق بصلته بالسلطة، سياسية كانت أو حكومية، ربما يتحفظ، لكنه لا يعلن خلاف ما يبطن، وإذا جلس للإبداع فإنه لا يلبى إلا صوته ونداء ضميره.

* * *

بعد الحادث عرضت عليه وعرض عليه المحبون تخصيص ساعة أو ساعتين يوميا لكى يملى علينا ما يرغب فى كتابته، لكنه شكرنا معتذراً برقة، فالكتابة بالنسبة له أداء خاص جداً، يبقيه سراً باستمرار، فكيف يمكن لإنسان مهما كانت درجة القرب منه أن يشاركه أشد لحظات حياته خصوصية؟! أربع سنوات استغرقها العلاج الطبيعى حتى لحظة إفضائه لى بقدرته على الالتزام بالسطر دون أن ينزل عنه. أى أن نجيب محفوظ تعلم الكتابة فى حياته مرتين: الأولى فى طفولته، والثانية فى العقد التاسع.. وتلك الأشق والأصعب، لكم نظرت إلى يده، إلى ما تخطه من حروف كبيرة مضطربة لحظة توقيعه على نسخة من مؤلفاته.. هذه اليد التى كتبت رواياته وقصصه القصيرة وأضافت إلى الأدب العربى والإنسانى، تلك اليد التى أصابتها الكراهية والتعصب والجهل. بعد محاولة اغتياله رأيت الشاب الذى لمحته يوما تحت النافذة. سألوه عبر التليفزيون عما إذا كان نادمًا على محاولته قتل نجيب محفوظ، فقال إنه غير نادم، وأنه لو سنحت له الفرصة سيقوم بذلك، وعندما سأله المذيع عما إذا كان قرأ شيئا له، قال إنه لم يقرأ له حرفًا، لكن أميره أصدر فتوى بتكفير محفوظ، الحقيقة أن التكفير بدأ منذ ذلك التقرير الذى كتبه ثلاثة من المشايخ الكبار إلى الرئاسة فى مستهل الستينات، ومنذ ذلك الحين صارت (أولاد حارتنا) ممنوعة فى مصر، محرمة.. حتى وصل الأمر إلى ما وصل إليه يوم الجمعة الخامس عشر من أكتوبر عام أربعة وتسعين.

عندما بدأ يتقن الالتزام بالسطور، الكتابة، كانت أعصاب البصر قد وهنت، إذن.. كيف يستجيب الأستاذ للظروف الجديدة؟

بدأت سلسلة الأحلام فى الظهور على صفحات (نصف الدنيا)،

نصوص شديدة التركيز، تمسك بناحيتى النثر والشعر، إنه يكتبها أولا بدون مداد، فى ذهنه، ثم يكتبها على الورق مغمض العينين، لا يمكنه القراءة، لكنه بإرادة قوية وصرامة يجسد ما فى ذهنه على الورق كتابة محفوظية، أعُدُّها الأجمل، الخلاصة، مرحلة بدأت منذ أصداء السيرة الذاتية، وبلغت الذرى فى أحلام فترة النقاهة، إنها نصوص من الشعر الذى يرتقى إلى مستوى الحكمة. تتداعى عندى أصداء من الإبداع الإنسانى الشبيه، أشعار حافظ وحكايات سعدى الشيرازى، ونصوص الأمثال والحكمة، إنه القدرة على النفاذ إلى جوهر التجربة الإنسانية وجوهر الوجود.

* * *

منذ خروجنا أول مرة بعد تماثله للشفاء من الحادث فى ديسمبر، كان الشتاء مكتملا. قصدنا هضبة الأهرام: يوسف القعيد، زكى سالم، والدكتور يحيى الرخاوى الذى أشرف على تنظيم أيام الأسبوع والمرحلة الأخيرة من علاجه، ثم أصبح حرفوشا أساسيا فى حلقات الحرافيش. تناولنا الغداء يومئذ فى فندق مينا هاوس، وكان الأستاذ تحت حراسة الشرطة، وضع جديد سوف نعتاده، بل سيصبح أفراد قوة الحراسة أصدقاء لنا، وكأنهم أسرة جديدة للأستاذ ولنا. وضع لم يَسْعَ إليه. وضع أنهى أيام السعى فى شوارع المدينة التى عاشها ومنح بعض مناطقها الخلود. طوال عمره كان ضد المظاهر، البساطة بينها، لكن للضرورة أحكامها. انتهى زمن التجوال فى دروب القاهرة القديمة وحواريها. كثيراً ما رأيته خلال الستينات والسبعينات يجول فى موطنه الأول، حوارى وشوارع الجمالية، كنت أحرص ألا أزعجه حتى لا أقطع تأملاته واستعادته المكان.

استأنفنا لقاءاتنا الثلاثية فى مركب راس على النيل، النيل الذى عشقه وأحبه وحرص على أن يكون قريبًا منه، حتى وإن لم يره بالبصر، فإنما يراه بالبصيرة.

* * *

خلال لقاءاتنا عبر السنوات الأخيرة، بدأت أنتبه إلى نفاسة ما يبديه الأستاذ من آراء. حرصت بعد عودتى إلى البيت أن أدوّن ما قيل، إما بنصه كما أتذكره، أو خلاصته، وأقدم لقراء العرب نصوص ما أطلقت عليه «المجالس المحفوظية». كما يضم القسم الثانى من الكتاب نص المجالس التى جرت فى عام ثمانية وسبعين من القرن الماضى كل يوم اثنين على امتداد أربعة شهور صيفية، وقد صدرت من قبل فى كتاب «نجيب محفوظ يتذكر». أما القسم الثالث فيضم نصوصًا تابعت خلالها محفوظًا فى القاهرة القديمة، ومجالس خاصة بأحداث معينة. والأقسام الثلاثة ترصد وتسجل معالم هذه الرفقة الممتدة على مدى أكثر من أربعة وأربعين عامًا مع أديبنا الكبير أمد الله فى عمره، لعلها تلقى أضواء على عالمه وآرائه وأفكاره.

ولا يسعنى إلا أن أذكر بالامتنان أصدقاء الثلاثاء وأركان المجلس الثابتين، وكلٌ منهم له تعلق بالأستاذ ومحبة خالصة: أخى يوسف القعيد، والمهندس عماد العبودى، والدكتور زكى سالم، والروائى نعيم صبرى، والمهندس حسن ناصر، والمحامى مجدى سعد، والأستاذ ياسين التهامى، يحيط كلٌ منهم الأستاذ بمحبته، فلهم الشكر والمنة. ومن قلوبنا ندعو لنجيب محفوظ بطول العمر وموفور الصحة والسعادة بقدر ما أسعدنا جميعا.

نوفمبر ٢٠٠٤

الجـزء الأول

خلال المجـالس التى امتدت من مـقهى الأوبرا عام ستين من الـقرن الماضى وحتى مثول هذا الكتاب للطبع (٢٠٠٤)، جرت هذه المحـاورات التـى اعـتـدت تدوين خلاصتها.. خاصة فى السنوات الأخيرة.



مقهى الأوبرا - ١٩٦٠

المقهى من ثلاثة طوابق، الأول يطل مباشرة على الميدان الجميل، يتصدره مبنى الأوبرا الخشبى القديم، الأنيق، كان مركزا للمكان. أحد مصادر الخصوصية فى وسط المدينة أوروبىّ التخطيط والعمارة. كان الطابق الأول مقهى متميزا بأناقته، يجلس فيه الرجال والنساء، ويقدم النرجيلة، التنباك العجمى الأصيل، ولدهشتى كنت أتطلع إلى نساء تجاوزن منتصف العمر يدخنّ النرجيلة، لم يكن تدخين النساء مألوفا فى الأماكن العامة.

الطابق الثانى يتم الصعود إليه من مدخل جانبى، سلم ضيق حلزونى، يفضى إلى صالة مستطيلة، مقهى أوروبىّ الطابع، لا نرجيلة فيه، فقط مشاريب ساخنة وباردة. هنا كانت تعقد الندوة الأسبوعية التى بدأها نجيب محفوظ عام خمسة وأربعين، أى السنة التى ولدتُ بها، وعبر الندوة مرت أجيال كاملة، وفيها اهتدى أدباء الستينات بعضهم إلى بعض.. أى أن هذا اللقاء الأسبوعى اختصر أزمنة طويلة كان من الممكن أن تنقضى بدون أن ألتقى فيها بمحمد البساطى، يوسف القعيد، إبراهيم أصلان، صبرى حافظ، جلال السيد (رحمه الله) وغيرهم.

فى الطابق الثالث ملهى ليلى، كانت تديره الفنانة صفية حلمى. كان الطابق الثالث يعمل بعد العاشرة مساء، وكان المبنى كله ينسب إلى صفية حلمى، إحدى الفنانات المشهورات من اللواتى عملن فى فرقة بديعة مصابنى.

فى هذا المقهى أصغيت إلى حوارات الحاضرين الذين كانوا ينتظمون حول نجيب محفوظ، ولو قدر لهذه الحوارات أن تدون لحفظ التاريخ سجلاً رفيع المستوى لمناقشات المثقفين، كانت الندوة تبدأ فى العاشرة، وتنتهى فى الواحدة والنصف، أتاح الأستاذ بانضباطه المعروف عنه استمرارية للندوة فى مواعيد محددة. دائما هو المركز، والكل منتظم حوله، حتى حين يتجه الحديث بعيدا عنه ويتحاور الجالسون مباشرة بعضهم مع بعض، يظل هو المركز والجميع فى المدار.

ذات صباح وصلنا مبكرا، فوجئت أننى بمفردى فى مواجهة الأستاذ وجها لوجه، جلست صامتا، وكان يتطلع إلىّ بملامح مترقرقة. إن وجهه يتطابق تماما مع هذه الكلمة المصرية ذات المستويات المتعددة «طيب».

فجأة سألنى: «جمال.. لماذا تكتب؟»

بوغتُّ بالسؤال، غير أننى أجبت مباشرة:

«أكتب لأننى أريد أن أكتب...»

هز رأسه. وعندما أستعيد هذا الحوار القصير، يفتتح حواراتنا التى ستتصل طوال السنوات التالية. عندما أستعيد نبرات صوته أكاد أوقن

أنه كان يسأل نفسه عن سبب الكتابة، لماذا يكتب الكاتب؟ فيما تلا ذلك من سنوات قال لى مرة إن الكتابة مثل الغريزة، مثل الجنس، الرغبة فى الحياة، الأكل، الجوع، الامتلاء.

لعل ما قاله إجابة على سؤاله لى ذلك الصباح البعيد من ستينات القرن الماضى.

• صـلح!

أغسطس - ١٩٦٧

مقهى الفيشاوى

وقائع يونيو تخيم علينا، وعلى نفوسنا، وأحوالنا. كان على غير عادته قد أبدى رغبة فى لقائنا بمقهى الفيشاوى، وهكذا سنحت فرصة إضافية للقاء خاص به، يقصده عدد محدود جدا من الأصدقاء.

كنا ثلاثة، يوسف القعيد والمرحوم إسماعيل العادلى.

تحدثنا فيما جرى، وفيما يمكن أن يجرى، فجأة قال:

«شوفوا يا جماعة...»

تطلعنا إليه..

«حاقول لكم رأيى وأنا عارف انه ممكن يزعجكم»

ازداد إصغاؤنا. قال:

«إذا كنا مش قادرين نهزم إسرائيل عسكريا، يبقى نحاول ندوّر على وسيلة للصلح...»

وتطلعنا إليه ذاهلين.

كان ذلك فى أغسطس عام سبعة وستين.

● حـــــزن

مقهى ريش ـ نوفمبر ١٩٨٠

كنت حزينا، كمدا، الجرح ما زال طريا ساخنا ينزف، بدأ بعد رحيل والدى بغتة وأنا بعيد. قلت له إننى لم أستوعب بعدُ رحيل أبى المباغت، إننى لن أراه مرة أخرى أبدا، لن ألقاه مرة أخرى.

قال: من يدرينا يا جمال؟ كما أن المادة تتحول إلى أشكال أخرى ربما يتبقى الوعى بشكل ما.. من أين لنا أن نقطع باستحالة اللقاء؟

مقهى الفيشاوى

ذات صباح من شتاء ١٩٨٨

أصغى إليه يتحدث عن ذكرياته القاهرية ومنها أدرك معالمها القديمة كيف كانت، وأعرف كيف أصبحت.

قال: كانت توجد سينما اسمها «جوسيه» مكان بنزايون القائم الآن فى شارع عماد الدين، سمعت فيها أم كلثوم، كانت تقيم حفلاتها فى قاعة السينما، وكانت قادرة على إسماع قاعة بها ثلاثة آلاف بدون ميكرفون.

قال بعد لحيظات صمت: كنت أسمع أم كلثوم على الطبيعة،

وأسمع نفس الأغنية على الأسطوانة، فأجد فارقا كبيرا، طبعا الواقع أروع بكثير.

مقهى الفيشاوى

الأربعاء ـ ذات صباح شتوى ـ ١٩٨٩

قال: كان على الغاربى من الفتوات المشهورين، وكان قوادا مشهورا، ومن أشهر شواذ القاهرة فى نفس الوقت. وعندما أمسك به البوليس وقعت فضائح كثيرة، وكان ذلك من الحوادث الجليلة فى القاهرة.

مقهى على بابا

ذات صباح ربيعى ـ ١٩٨٩

سألته: أيهما أفضل إلى قلبك، الحرافيش أم حديث الصباح والمساء؟

قال: أظن الحرافيش، أحيانا يتأثر الإنسان برأى الآخرين..

سألته: ماذا عن الروايات التى لم تنشر.

قال: ثلاثة، رواية بطلها لاعب كرة قدم، كتبتها فى الأربعينات، مزقتها. رواية عــن الريف، لم أنشرها ولا أدرى مقرها الآن لأننى لا أحتفظ بمسودات. رواية أخرى اجتماعية، ربما تكون مسودتها عند المخرج خيرى بشارة..

فــــرح بــوت.

أحد أيام صيف ١٩٩١

قـال: كـانت المرأة إذا ضـاق بهـا الحـال وبدأت طريق الانحـراف، تذهب إلى البوليس لتسجل اسمها، وتقول للضابط: أنا عاوزه أمشى فى الوعد!

هكذا تحصل على تصـريح بممـارسـة الدعـارة. مـرة مـال القـاضى الإنجليزى على عضو الميمنة، سأله: فين الوعد ده يا حبيبى؟

فــــرح بــوت.

الثلاثاء. ٢٧ أكتوبر ١٩٩٢

اليوم عيد ميلاد الفنان توفيق صالح الحرفوش القديم. محفوظ يستدعى ذكرياته عن السينما:

قال: أول سينما عرفتها كـانت فى فندق الكلوب المصرى القريب من مسجد سيدنا الحسين، كانت فتحا بالنسبة لنا، نطل منه على عالم خيالى عـجيب. الأفلام كلها أجنبية، كـانت الترجمـة على شاشة مستطيلة مجاورة، إذا لـم تضبط مع المنظر نصيح: اعدل. . اعدل. فيقوم الرجل المسئول عن تشغيل السينما بضبط الترجمة مع المنظر. أما الموسيقى فكانت حية، حيث يعزف لاعب ماهر على بيانو مجاور للشاشة. أحيانا كنا نذهب مجموعة فنوقظ صاحب السينما ليشغّل لنا الفيلم.

قال: عرفت سينما أوليمبيا بشارع عبد العزيز، كان فيه أيضا

سينما إيديال وسينما رويال، فى نفس الشارع. كانت سينما أوليمبيا تطبع مجلة «أخبار النجوم»، وكانت مارى بيكفورد هى نجمتى المفضلة، قرأت أنها تزوجت دوجلاس فيربانكس. فى شارع الجيش كانت هناك سينما رمسيس، وسينما مصر، وسينما هوليود، وسينما سهير قرب العباسية، وسينما البلفدير، وسينما بلازا فى الظاهر، وسينما الفتح فى الجمالية، وسينما مدسيه للأفلام الفرنساوى فى عماد الدين. .

يسأل: كم بقى من هذه الدور الآن؟

أقول: فقط سينما أوليمبيا، وسينما هوليود. . .

[بمناسبة عيد ميلاد توفيق صالح خرقنا العادة، لم نتناول العشاء فى «فرح بوت»، وهذه مرة نادرة، بل. . وحيدة، مضينا إلى مطعم خريستو فى نهاية شارع الهرم، متخصص فى السمك، وكان محفوظ يصحب الأسرة كل يوم جمعة. . .].

قال: لم أحب السمك إلا فى سن متقدمة. ذهبت إلى رأس البر، دعانى أحد أصدقائى إلى أكلة سمك، سألنى عما أحب، قلت: البلطى، القراميط، الثعابين. ضحكوا جميعا، قال صاحبى: السمك اللى أنت بتحبه ده، بنأكّله للسمك بتاعنا.

سألته ضاحكا: وماذا عن الأرانب؟

قال: كنت أخاف من أكلها لأننى رأيت والدتى يوما تسلخها بعد ذبحها!!

فرح بوت ـ أكتوبر ١٩٩٢

نكت الزلزال

رُويت هذه النكت فى أمسية الثلاثاء :

* مسكوا اللى عمل الزلزال واعترف بالفعل .

* عندما يزفون العروس الآن يقولون : اتمخترى يا حلوة يا زينة . .

* قالوا البلد بترقص . قلنا نلم النقوط . . .

كافيتريا الشيراتون

صيف ١٩٩٥

لأول مرة نجىء إلى المكان . المكان معد للقاء العشاق ورجال الأعمال ، كلهم يتحدثون بصوت هادئ ، أما نحن فلابد أن نتحدث بصوت مرتفع ، وهذا مستحيل هنا . جلسنا متململين . أمامنا يجلس رجل عربى ، يرتدى حُلَّة ، له لحية مدببة ، بدأ يتداخل معنا فى الحديث ، وكان يشرب البيرة المثلجة . . بدأ بالانتخابات الأمريكية .

«مليح واللهِ بوش . . »

ثم بدأ يتباكى على الإسلام وهوانه على أهله ، قال إن الإسلام بدأ غريبا وسوف يعود غريبا . .

«أى والله . . »

كان ينطق جملة، يتبعها بحسوة من البيرة. لم تَطُلْ جلستنا، قمنا . . .

فـــرح بـوت

خريف ١٩٩٢

قال: قرأت الرواية الضد، كنت أخرج من بعضها كما دخلت، الأمر مختلف بالنسبة لمارجريت دورا، عندها وجدت القصة والحكاية والإنسان.

تحدث يوسف القعيد عن ترتيب الكُتّاب فى فرنسا طبقا لاستطلاعات الرأى، وكانت دورا الأولى، وبن جلون الثامن والعشرين.

قال: إنه الإعلام، يمكن أن يساعد فى انتشار كاتب إلى وقت معين إذا لم تكن له قيمة حقيقية. الإعلام لا يضيف أى قيمة حقيقية، خذ مثلا رواية يوليسيس، كيف يهز كل مؤلف أو قارئ رأسه تقديرا، لكن يظل من قرأوها بالفعل عددا محدودا . .

١١ نوفمبر ١٩٩٢

فـــرح بـوت

سيطر الزلزال الذى وقع فى الواحدة ظهرا على الجلسة. بالنسبة لى كان الشعور المسيطر علىّ كئيبا، هكذا أواجه الأحداث الكونية. لم تنجح نكتة أو اثنتان فى تبديد حزنى الغامض الدفين.

لا أدرى لماذا سألته عن البدايات؟ ربما لأننى طالعت أمس الأول قصة نشرت له فى مجلة الرسالة عام ١٩٣٧ .

قال : تعاملى مع الرسالة كان قليلا . كنت أذهب إلى مقرها فى عابدين، كنت أرى كبار الأدباء المتعاملين مع أحمد حسن الزيات، لكننى لم أقم أى علاقة معهم، رأيت الشيخ محمود شاكر، كان عصبيا جدا، وكان صوته مرتفعا، حتى هيئ لى أن الملك سوف يسمعه فى قصر عابدين المجاور، غير أننى أقمت علاقات مع أبناء جيلى، السباعى الذى كان ينشر فى مجلة (مسامرات الجيب)، وإحسان عبد القدوس وعلى أدهم. أول جنيه أخذته من مجلة الثقافة سهر به أصحابى فى العباسية، أكلنا كبابا وكفتة، المعلم كرشو راح يصفق فرحا ويقول «والله الأدب بيجيب فلوس يا ولاد . . » . ذهبت إلى الثقافة بقصة أخرى عنوانها «فى أثناء الغارة» عن أم عادت إلى البيت فوجدت جثة ابنها بدون رأس، الرقابة انتبهت، أنذروا المجلة : كيف تسمحون بنشر قصص بهذا الشكل، قصص تثير رعب الناس!

عندما ذهبت لأقبض الجنيه الثانى، فوجئت بسكرتير تحرير المجلة يقابلنى بجفاء شديد، يسألنى مستنكرا :

«إيه اللى انت عملته ده؟»

بدا لى واضحا مدى ما تعرض له، سِبت الجنيه ولم أعد إلى الثقافة مرة أخرى .

قال : نشرت كثيرا فى «الرواية»، لم أتقاضَ أجرا، كانت الرسالة تنشر بلا مقابل للأدباء الجدد، كان الزيات يقول إن مجلة الرسالة

جابت له مطبعة وعزبة، كان يقول ذلك ببساطة بعكس الناشرين الآخرين الذين يدعون الفقر.

قال: عندما شكل عبد الحميد السحار دار النشر «لجنة النشر للجامعيين» اختار ثلاثين قصة فقط فى مجموعة «همس الجنون»، أما قصصى الأخرى فلم تصدر فى كتب، ما تزال فى مجلات. طلب السحار منى أن أدعو جميع الأدباء الذين كانوا يتقدمون معى إلى الجوائز، هكذا نشر باكثير وغيره. بالنسبة لمذكرات سعيد جودة السحار فغير دقيقة، لقد نسى حتى دور شقيقه عبد الحميد السحار، أما روايته عن نشر الثلاثية فغير صحيحة..

يبدو أن الحديث عن قصة «فى الغارة» أدى بنا إلى الحديث عن غارات الحرب العالمية الثانية.

قال: كنا نذهب إلى المخبأ، كل مجموعة من العائلات لها مخبأ معين، مع الوقت تحول إلى ما يشبه المقهى، نتحدث، نضحك، نتحاور فى كل شىء، وخلال فترات سكوت المدافع نخرج لنشم الهواء، عرفنا أصوات المدافع المضادة، لكن بعد دخول الطليان الحرب سمعنا أول مرة صوت انفجارات لم نكن اعتدنا عليها، قلنا: «لا . . دى الحكاية بقت جد. .»، استلمونا، كل ليلة غارة، مرة كنا فى مقهى قشتمر، كنا بنلعب «مونوبولى»، لعبة كان فيها مدن ومحطات، والفائز يحتكر هذا كله، أحد أصحابنا علمها لنا وشبطنا فيها، خلّصنا اللعب وروّحنا، بعد نصف ساعة فقط سقطت قنبلة خرمت السقف ونزلت مكان جلوسنا، كان سكوت

الراديو علامة على قدوم الخطر، كنا نأخذ اللعبة معنا ونكمل فى المخبأ . .

قال: كان مقهى قشتمر لابن الموسيقار داوود حسنى، أخوه راح إسرائيل وأصبح مذيعا، سمعت عن إسلام صاحب المقهى . . لكننى غير متأكد . .

الثلاثاء - ١٧ نوفمبر ١٩٩٢[١]

لأول مرة نجلس فى الطابق الأسفل بالعوامة، غرفة على الطراز الإنجليزى، أصدر «العمدة» المهندس عماد العبودى - هكذا سماه الأستاذ - تعليماته إلى الإدارة لإعدادها لاستقبالنا، المقاعد جلدية وثيرة، الجدران مغطاة بالخشب .

بدأ الحديث حول الإرهاب، وما يثار عن حل حزب العمل، وإغلاق جريدة الشعب .

قال: رأيى أن المزيد من الديموقراطية فيه علاج للموقف، من يحمل السلاح فى المناخ الديموقراطى يجب أن يقف الجميع ضده، لكن الإغلاق والمصادرة سيزيدان الوضع سوءا .

تحدثنا عن العدالة الاجتماعية، عن ضرورة توفر الأمل فى المجتمع، عن البطالة، عن هيبة الدولة، تحدثنا عن أمور أخرى . . .

---

(١) بدءا من هذا الوقت وحتى الآن تتم لقاءاتنا فى نفس العوامة .

ذات ثلاثاء - ١٩٩٥

قال: رأيت محمد عبد الوهاب مرتين، الأولى فى الثلاثينات، كنت عائدا من مدينة الملاهى الضخمة التى أقيمت مكان ميدان سفنكس الآن بالمهندسين، كانت مدينة فسيحة جدا، متنوعة، ولا أذكر أننى رأيت أضخم منها. فى الترامواى أثناء عودتى ركب محمد عبد الوهاب من الزمالك، قلت له:

«مساء الخير يا أستاذ...»

قال باختصار:

«أهلا...»

جلس فى الركن مرتديا طربوشه، وكنت مسرورا برؤيته لأننى أعشق صوته «الطِّعم»، لكننا لم نتبادل كلمة واحدة. فى الستينات دعيت إلى بيت الدكتور مصطفى محمود، قابلته على الغداء، ولم نتبادل أيضا إلا كلمات محدودة.

ذات ثلاثاء - ١٩٩٧

قال: لو أن الجبهة الإسلامية حكمت فى الجزائر نتيجة الانتخابات التى تمت، لو أنها وصلت إلى الحكم نتيجة هذه الانتخابات لما جرى ما جرى فى الجزائر، لكن التدخل ضد الانتخابات التى شهد الغرب بنزاهتها أدى إلى المآسى التى حدثت.

قال القعيد: لكنهم لو وصلوا إلى الحكم لن يسمحوا بالديموقراطية . .

قال: لا أجد أى تبرير لإلغاء نتائج الانتخابات بالقوة . . النتائج أفظع كما ترى . .

ذات مساء- صيف ١٩٩٣

عند عودتنا إلى الجلسة بعد ذهابنا إلى قضاء الحاجة بدورة المياه، توقف فجأة ليسألنى:

«هوّ القعيد ماجاش ليه الليلة؟»

قلت: «لازم عنده مشاغل . . »

ضحك قائلا:

«ولاّ يكون راح لنجيب محفوظ! . . . »

وانفجرت ضاحكا بالطبع .

الثلاثاء: صيف ١٩٩٨

قال: رغم كراهيتنا العميقة للاستعمار الإنجليزى ومقاومتنا له، إلا أننا كنا نجد منهم بعض المواقف التى تثير الإعجاب . حدث فى قضية مقتل السيرلى ستاك السردار، أن قام صحفى مصرى بمهاجمة المتهمين المصريين، القاضى الإنجليزى أبدى استياءه لذلك، تساءل مستنكرا: كيف يتم مهاجمة متهم لا يستطيع الدفاع عن نفسه؟

الثلاثاء: صيف ١٩٩٨

من الأخبار التى يصغى إليها باهتمام: اختلاسات المال العام، وهروب بعض رجال الأعمال بالمليارات التى اقترضوها من البنوك. قال بعد فترة صمت من حديث اتصل حول هذه الاختلاسات: إن الواقع تغير كثيرا. قال: إن موظفا فى الجامعة اختلس خمسة جنيهات عام ثمانية وثلاثين من القرن الماضى عندما كنت أعمل موظفا فى الجامعة، هذا الموظف لحقه العار حتى إحالته إلى المعاش، وما زلت أذكر اسمه باعتباره عمل عملة «منيلة»، كل ده عشان . . خمسة جنيه سرقهم!

قلت ضاحكا: دا كان زمان. . زمان قوى.

أبدى تعجبا. . .

تحقيــق

أغسطس ١٩٩١

كنت موظفا بالأوقاف عندما نُشر مقال يتضمن عرضا لرواية «فضيحة فى القاهرة» بمجلة آخر ساعة، سرد الكاتب أحداث الرواية ولم يفصح عن كونها رواية إلا فى آخر سطر. فوجئت باستدعائى لمقابلة وكيل الوزارة، كان الشيخ أحمد حسين شقيق الدكتور طه حسين، سألنى عن الأحداث التى أشار إليها الكاتب فى آخر ساعة، قلت له إنها رواية، وإنها وقائع خيالية لا تقصد أشخاصا معينين. ثم سألنى:

«هل أنت تلميذ الشيخ طه حسين؟»

أجبته أننى درست الفلسفة فى كلية الآداب، وأننى أعتبر نفسى تلميذا له، عندئذ بدا الشيخ أحمد رقيقا معى، قال:

«لماذا تكتب عن فضائح الباشوات وتعرّض نفسك للمشاكل.. اكتب عن الحب أفضل وأكثر أمنا..»

تطلعت إليه ولم أجب، ثم حفظ التحقيق.

تيمور والبلاميطى

سبتمبر ١٩٩٢

عندما صدرت روايتى «رادوبيس» سنة ثلاثة وأربعين عن لجنة النشر للجامعيين، أهديتها لكثيرين، مَن ردوا علىّ شاكرين كانوا أربعة فقط: محمود تيمور، أحمد باكثير، زكى طليمات، وعادل كامل أمد الله فى عمره، ودعانى محمود تيمور إلى غداء فى مطعم على حسن القريب من ميدان الأوبرا، وكان معنا زكى طليمات، كان صديقا لتيمور، وكان ذا شهية مفتوحة مكّنَتْه من أكل مطعم على حسن بما فيه.

كان تيمور نبيلاً، والده أحمد تيمور باشا العالم المعروف والباحث الكبير، ولكنه كان يميل إلى معايشة أبناء البلد، عرف عنه حبه لمطربة جديدة وقتئذ اسمها ملك، وكانت خنفاء قليلا، تدخل إلى المسرح تحمل معزة، وكنا نتساءل: من يغنى فيهما؟ هى أم المعزة؟

(نضحك من قلوبنا، ويضحك معنا ثم يكمل. . .).

كانت قصصه رائدة، تمهد الطريق. كان يحب الكتابة عن الشوارع وأبناء الطريق، غير أن رؤيته كانت نظرة سائح عابر. فى صباح أحد الأيام ذهبت إلى مقهى الفيشاوى مبكرا، كان المقهى فى ساعات الصباح جميلاً، هادئا، وجدت محمود تيمور يجلس إلى مكوجى رجل اسمه البلاميطى، وكان البلاميطى ضخما، خشن الصوت، حَافيا، وكانا يفطران معا فولاً وبصلاً أخضر، ويتحدثان كأنهما أصدقاء منذ أول العمر. لفت نظرى نهم محمود تيمور فى التهام البصل، اقتربت منه وسألته:

«مافيش مقابلات مع الملك النهار ده؟»

العقـــــاد

سبتمبر١٩٩٢

سألنا الأستاذ:

«هل عرفت العقاد؟»

يقول:

شخصيا لا . . فى منتصف الأربعينات كتبت مقالاً أرد فيه عليه ونشر فى مجلة الرسالة، كان حول الفن الروائى الذى قلل العقاد من شأنه لحساب الشعر، لكننا لم نلتق قط. مرة واحدة رأيته، كنت أتردد على مكتبة الأنجلو أسبوعيا لشراء الكتب الجديدة الواردة من

لندن. أثناء دخولى همس صبحى مديرها فى أذنى: العقاد هناك، هل ترغب فى الحديث إليه؟

لكننى شكرت صبحى ومضيت أتأمل الكتب، لمحته يجلس إلى الكتب يقلب المجلدات أمامه، لم أحرص على الحديث إليه، أو حضور ندوته، لا أدرى لماذا؟ كنت فى حالى، وكان يعرفنى إذ إننى كنت أنشر قصصا فى الصفحة الأدبية لجريدة الجهاد التى كان يشرف عليها، وكان صاحبها محمد توفيق دياب، وبلغنى أنه قال عنى «نجيب محفوظ ده كويس». وعرض أحد الأصدقاء أن يصحبنى إلى ندوته لكننى لم أقبل، لكن حدث بعد أن تركت منصبى كرقيب للسينما أن اتصل بى فى البيت، وكان غاضبا جدا، إذ بلغه أن مخرجا وكاتبا للسيناريو قدما قصة فيلم تتناول شخصه بالسخرية، وقلت له إننى لم أعد مسئولا عن الرقابة وأننى تركت هذا الموقع، لكنه استمر غاضبا، متسائلا عن كيفية السماح بهذا الفيلم، وعندما وجدت أنه لا يستطيع الاقتناع بأننى تركت الرقابة، قلت له إننى سوف أتحدث إلى الرقيب الذى خلفنى، وتحدثت بالفعل، وعلمت أن الفيلم لم ينفذ.

الرافعى

أكتوبر ١٩٩٢

أسأله: هل قرأت لمصطفى صادق الرافعى؟

يهز رأسه: لا..

ثم يسألنى: هل قرأته أنت؟

أجيبه: نعم. .

يسألني: كيف وجدته؟

أقول إنه حالة فريدة في النثر العربي، وأن لغته أصيلة ذات حداثة خاصة، ورصانة.

يقول: أذكر أن طه حسين كان معجبا به، خاصة بكتابه إعجاز القرآن. ثم يقول: إذا كان نثره كما تقول فخسارة أنني لم أقرأه. .

أسأله من جديد عن السبب، يقول إن الصحف التي اعتاد قراءتها كانت تهاجم الرافعي دائما.

يصمت قليلا ثم يقول:

كان الرافعي يعيش في طنطا، كان عصاميا، كاتبا في محكمة، وكان سليط اللسان. .

أحدثه عن كتابه في هجاء العقاد «على السفود»، قرأ المرحوم الشيخ أمين الخولي بعضا من فصوله علينا في ندوة الأمناء، كان ذلك عام ثلاثة وستين بعد معركة حادة نشبت بينه وبين العقاد على صفحات جريدة «الأخبار»، ومن باب النكاية فيما يبدو قرأ علينا الشيخ الخولي فصولا أعتبرها من أفظع ما عرفت في الهجاء. يسأل الأستاذ:

«لا يا شيخ؟».

أقول:

«نعم. .»

طـــه حســـين

ديسمبر ١٩٩٢

نسأله: هل عرفت طه حسين؟

يقول إنه قرأ له قبل دخوله الجامعة، والتقى به شخصيّا مرتين، الأولى عند التحاقه بكلية الآداب، وأثناء الاختبار الذى يجرى للمتقدمين فوجئ أن الممتحن هو طه حسين شخصيا. يقول الأستاذ:

سألنى: لماذا اخترت قسم الفلسفة؟

بدأت الإجابة برغبتى فى معرفة سر الكون وأسرار الوجود، أصغى إلىّ جيدا ثم قال ساخرا: أنت جدير بالفلسفة فعلاً لأنك تقول كلاما غير مفهوم.

أما المرة الثانية فكانت خلال الستينات عندما تم تسجيل حلقة تليفزيونية معه، وأظنها الحلقة الوحيدة.

يصمت قليلا ثم يقول:

«لم يكن طه حسين مفكرا وأديبا عظيما فقط، لكنه كان صاحب دور».

أول جنيـــــه

ديسمبر ١٩٩٢

يقول الأستاذ خلال حوار عن العائد المادى القليل للأدب:

«لم أرسل قصة للنشر وتوقعت مقابلها عائدا ماديًا قط، إلى أن اتصل بى أحد العاملين عند أحمد حسن الزيات وكان مشرفا على الحسابات، قال إننى تسببت فى تعطيل الميزانية، لماذا؟ لأننى لم أحضر لاستلام المكافأة، أى مكافأة؟ قال: الجنيه.. مقابل القصة المنشورة فى مجلة الرواية.

كان هذا أول جنيه يدخل جيبى من الأدب، طرت فرحا، وفى هذه الليلة دعوت شلة العباسية كلها إلى الكباب والكفتة وهصنا..».

أين المسودات؟

سألنا الأستاذ عن مخطوطة «أصداء السيرة الذاتية»، أجاب:

«أرسلتها إلى الأهرام..»

أبدينا انزعاجا، كانت الأصداء قد نشرت مضطربة فى الأهرام، حيث اختل ترتيبها وسقطت مقاطع عديدة لم تنشر، وظهرت فكرة إعادة النشر فى «أخبار الأدب». قال:

«توجد صورة من المخطوطة..»

عدنا نسأل:

«لكن الأصل..»

قال إنه أرسله إلى الأهرام ولا يعرف مصيره.

في أمسيــة أخرى قال لنا إنه لم يعتد الاحتفاظ بمسوداته، كانت لديه أصول خطية لرواية عن لاعب كرة قدم، لا يعرف أين هى الآن، ورواية عن الريف لم تنشر، لكنه يذكر أن المخرج السينمائى خيرى بشارة حصل عليها، ربما تكون المخطوطة عنده الآن، ربما.

فى أمسية أخرى حدثنا عن الأصل الخطى للثلاثية، لم تكن الثلاثية إلا رواية واحدة عنوانها «بين القصرين»، وكانت تقع فى حوالى ألف وثلاثمائة صفحة من قطع فولسكاب بخط نجيب محفوظ، وكانت نسخة واحدة فقط. لم تكن آلات التصوير معروفة وقتئذ، وكان محفوظ يدفع إلى المطبعة عادة بأصول أعماله الخطية، ذهب إلى السحار بها، فوجىء بالناشر يقول له: ما هذه الداهية؟ كيف أنشرها؟

وخرج محفوظ إلى الشارع حزينا، يكلم نفسه، تاركا المخطوطة عند الناشر. بعد حوالى عام اتصل به يوسف السباعى، قال إنه سيصدر مجلة أدبية بعنوان «الرسالة الجديدة» وأنه يعرض على محفوظ إمكانية نشره رواية مسلسلة، عندئذ سارع محفوظ إلى السحار، ولحسن الحظ كان الرجل محتفظا بالأصل الوحيد، استرده محفوظ وبدأ نشر بين القصرين مسلسلة، عندئذ اتصل به السحار وعرض عليه نشر الرواية على ثلاثة أجزاء منفصلة. هكذا خرجت الثلاثية إلى الناس. غير أننا جميعا تأخذنا رعدة عندما نتذكر، فقط مجرد تذكر أن هذا العمل العظيم كان يمكن أن يضيع أو يفقد لسبب ما، أما الأصل الخطى لأصداء السيرة الذاتية فيعلم الله وحده أين استقر تماما مثل كافة الأصول التى لم يحتفظ بها.

الحرافيش أفضل

نسأل: أيهما أفضل أو أقرب إلى قلبك، الحرافيش أم رواية حديث الصباح والمساء؟

يجيب بعد لحيظات: الحرافيش.

ثم يقول بعد لحيظات أخرى:

«نعم الحرافيش.. ربما كانت حديث الصباح والمساء أهم، لكن أحيانا الواحد يتأثر برأى الآخرين..».

حضــــور!

بعد تعرضه للحادث الأليم لم يكتب، أصيبت اليد التى خطت للأدب العربى أروع القصص والروايات، نتيجة طعنة مطواة فى العنق سددها إليه شاب مضلل غشيم لم يقرأ له حرفا. يتلقى علاجا طبيعيا بانتظام، يمكنه أن يوقع الآن باسمه، حروف غليظة غير منتظمة.

تنشر مجلة «نصف الدنيا» بانتظام له بعض القصص القصيرة. كلما أعلنت المجلة عن قصة جديدة، نسأله مستبشرين:

«أهى مكتوبة حديثا..؟»

يقول بحسرة:

«لا . . .».

«لا» ممدودة، حزينة، ثم يتابع:

«إنها من الرصيد . . . بين الحين والآخر أرسل قصة حتى يستمر الحضور . .».

أتساءل: «هل يشغلك الحضور يا عم نجيب . . ؟»

يتطلع ثم يقول: يعنى.

أعرف أنه لا يريد أن نواصل، حفظت ردود أفعاله، غير أننى أتساءل بينى وبين نفسى، أحقا هو مشغول بالحضور عند القراء بعد أن صار هو نفسه حضورا مستمرا؟

المقالات الأولى

نوفمبر ١٩٩٢

قلت له إننى عثرت على مقال مبكر كتبه قارئ من قراء مجلة الرسالة عن رواية عبث الأقدار بعد صدورها.

رفع رأسه محلقا فى الفراغ، هز رأسه.

«لا أذكره. . لكننى أتذكر أول مقال كتبه عنى سيد قطب، وكان عن رواية كفاح طيبة. هذا مقال ممتاز، تلته سنوات صمت حتى كتب أنور المعداوى مقالاً آخر، وأعقب ذلك سنوات من الصمت أيضا. كان سيد قطب ناقدا موهوبا، ولولا اتجاهه المتطرف لأصبح أهم ناقد فى مصر. .».

أسأله عما إذا كان كتب عنه فعلا فى «المرايا»؟

يقول على الفور:

«نعم . . بعض الأصدقاء اكتشفوا الأصول الحقيقية لشخصيات المرايا، لكنهم خلطوا للأسف بين عناصر الحقيقة والعناصر الروائية التى أضفتها من عندى. وأخذنى هذا كثيرا . . .

أذكّره بأيام جلوسنا فى مقهى عرابى بالعباسية فى الستينات، عندما حدثنى عن نيته فى استدعاء بعض الشخصيات التى عرفها فى حياته والكتابة عنها، قال إنه ليس لديه موضوع محدد لكتابة رواية فى هذا العام، إنها إحدى المرات القليلة جدا، النادرة، التى تحدث فيها عن عمل أدبى ينوى كتابته.

يتطلع إلىّ، يهز رأسه، يطرق، نحترم صمته، ثم يقول:

«بعد خروج سيد قطب من السجن أول مرة، كان ذلك سنة أربعة وستين، مضيت إلى بيته فى حلوان لزيارته، دخلت إلى غرفة الاستقبال، وجدته جالسا بين عدد من الذين لا أعرفهم، لحاهم طويلة، متجهمين، جاءنى إحساس أننى فى مأتم، أردت أن أخفف من الجو فأطلقت نكتة هادئة ومهذبة، تطلعوا إلىّ متجهمين، عندئذ أدركت أن سيد قطب الذى كنت أعرفه زمان، ليس هو الماثل أمامى، خرجت وغابت عنى أخباره، حتى أعلن عن اعتقاله ومحاكمته وإعدامه . . ».

الديموقراطية

نوفمبر ١٩٩٢

دار الحوار حول تصاعد الإرهاب، عن موقف حزب العمل، إشاعات تتردد حول إغلاق جريدة الشعب التى تؤازر الإرهاب. يقول محفوظ محتدا:

«مزيد من الديموقراطية فيه علاج للموقف، يجب أن نقف ضد إغلاق أى جريدة، أو حل أى حزب، ما تزال تجربتنا فى بدايتها، وإذا تعمقت الديموقراطية فإن من يحمل السلاح يجب على الجميع أن يقفوا ضده..».

تحدثنا عن المجتمع، عن العدالة الاجتماعية، عن الشباب الذى يعانى البطالة، عن المناخ الذى يؤازر الإرهاب ويسانده بشكل غير مباشر، عن هيبة الدولة، مقارنة بين المجتمع المصرى قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ وما بعدها. قال:

«الدولة قبل ثورة يوليو كان دورها قاصرا على الأمن والدفاع، لكن بعد الثورة دخلت الدولة فى كافة المجالات، فى شتى أنحاء الحياة، وهذا وضع مغاير...».

أكثر من حوار، فى مناسبات عديدة يبدو إيمانه بالديموقراطية مطلقا لا يتزعزع.

حمـــــام

ديسمبر ١٩٩٢

يسألنا فجأة بعد صمت: تعرفوا مصطفى حمام الشاعر؟

يقول ضاحكا:

«كان يكتب مقالات فى جريدة وفدية صباحا، وأخرى فى المساء فى جريدة ضد الوفد، كان يرد على نفسه تحت اسم مستعار، الطريف أن الطرفين كانا يعلمان بذلك..».

نضحك، أجمل الذكريات ما يطفو فجأة، ما يرويه باختصار وقدرة مدهشة على الحكى الذى ينتهى غالبا بابتسامة.

نقـــــد

ديسمبر ١٩٩٣

قال الأستاذ:

«بعد صدور خان الخليلى، كتب أحدهم مقالاً من وجهة نظر دينية، مضمونه: كيف يصاب البطل بالسل بعد التجاء أحمد عاكف إلى سيدنا الحسين ابن بنت الرسول..»!

بطرس غالى

نوفمبــر١٩٩٦

رغم هدوئه، إلا أن انفعـاله يكون عـاصفـا. بعـد أن اسـتمع إلى أخبار اعتراض أمريكا التى حملها يوسف القعيد على انتخاب بطرس غالى، قال على الفور:

«هذا تحد للعالم كله، وكشف لزيف الديموقراطية الأمريكية، إذا كان القوى يتصرف هكذا تجاه فرد واحد، فكيف يكون العدل إذن؟! أقول لكم إن مصر انتصرت فى المعركة. يكفى وقوف أربع عشرة دولة ضد الولايات المتحدة، إنه انتصار أكيد.

الثلاثاء، ٢٠ نوفمبر ٢٠٠١

قلت: ألا تفكر معى فى الوضع الإنسانى لبن لادن؟

أصغى جيدا، من علامات اهتمامه، اقترابه من محدثه، وحلول علامات الاهتمام بملامحه. قلت: لا أظن أن إنسانا فى تاريخ البشرية طورد كما يطارد بن لادن الآن، إنها مطاردة كونية بأحدث وسائل العلم، وبكل القوى التى نتخيلها ضد فرد. إننى أفكر فى أحواله، كيف يتحرك مع أسرته، مع زوجاته، كيف ينامون؟ كيف يختبئون فى الجبل؟ نعم إنه إرهابى، ويطرح مفاهيم مغلوطة مثل تقسيمه المجنون للعالم إلى كفار ومؤمنين، لكن.. أنا أفكر فيه كإنسان لم يسبق أن طورد إنسان مثله...

بعد لحيظات صمت قال :

طبعا معك حق، إن الضجة المثارة حاليا لا تسمح بهذه التأملات، لقد أساء الطالبان إلى الإسلام كما لم تفعل قوة من قبل، قدموا أسوأ نموذج لأسوإ حكم يمكن أن يعرفه العالم، ومع ذلك أرى أن احتمالهم هذا القصف المهول أمر يدعو إلى الإشفاق، كما أن إصرارهم على عدم تسليم بن لادن رغم كافة الإغراءات المادية والتهديدات الرهيبة إذا نظرت إليه مجددا ستجد أنه موقف أخلاقى.

الثلاثاء، ٢٨ نوفمبر ٢٠٠١

سألت : لماذا اخترت محور «الأحلام»؟ هل تشكل عملاً فسيفسائيا كبيرا؟.

قال : الحقيقة أننى منذ أن وهنت حواسى كأن ستارا سميكا ضرب حولى، حجز العالم عنى، البصر لم يعد قادرا على القراءة، السمع أصبح ثقيلاً، لا حديث فى الهاتف، الثابت أو المحمول، لا فرجة على التليفزيون، متعة المشى لم أعد أمارسها، لم أعد أذهب إلى الحسين وألتقى بالناس وأجوس فى أماكن الذكريات، عندما ينقطع الإنسان عن العالم ينظر إلى داخله، ويستعيد ما عايشه، يصبح الحلم بديلا للواقع، أحلم بأحداث وقعت وأحداث لم تقع، أحلام بكتب قرأتها، وأشعار حفظتها، أما الأحلام التى أتذكرها فقد أصبحت زادا ومعينا.

أحيانا أستيقظ فأجد أحلاما رأيتها واضحة جدا، أدونها فى نفس اليوم، إن مادة الحلم هشة جدا، أحيانا يتذكرها الإنسان وسرعان ما ينساها، ما أكتبه تحت عنوان «أحلام فترة النقاهة» عبارة عن نصوص أحلام كما رأيتها، وشذرات من أحلام رأيتها وأضفت إليها، وأحلام متخيلة.

قلت: تذكرنى اللغة فى الأحلام بأصداء السيرة الذاتية، لغة أقرب إلى الشعر.

قال ضاحكا: الأحلام نفسها شعر.

قلت: هل نشرت جميع ما لديك؟

قال: لا أنشر جميع ما أكتبه دفعة واحدة، إنما على فترات، حتى أظل موجودا بالنسبة للناس، ما عندى من أحلام الآن يغطينى لعدة شهور.

أصمت، متسائلاً مرة أخرى، هل ما زال الحضور يشغله، أعنى الحضور بالجديد؟ إنه موجود بإبداعه وحضوره.

الثلاثاء: ٢٧ أغسطس ٢٠٠٢

زلزال السبت الماضى يفرض وجوده على الأحاديث المتبادلة، أتذكر زلزال عام اثنين وتسعين، ما تركه من اكتئاب على جلستنا فيما عدا النكات التى تناقلناها وقتئذ، فى مثل هذه الأحوال يحكى كل منا أين كان، وكيف شعر، وكيف تصرف، مجرد الحكى يعنى مرور

الحدث الخطير بسلام، ما دمنا نحكيه فقد نجونا، تحدثنا عن تكرار الزلزال فى السنوات الأخيرة، قلت ضاحكا:

«حتى الطبيعة غير راضية عن أوضاعنا . . »

مركز الزلزال الأخير جديد علينا، كان تحت القاهرة تقريبا، فى أبو زعبل وقليوب، لذلك سمع القوم هدير انفجارات كونية صاحبت الزلزلة التى لم تستمر إلا خمسة وعشرين ثانية، قال زكى سالم:

«قال البيان إن الهزة قوتها أربعة ونصف على مقياس ريختر، لكن أظن أنها أكثر . . ».

اتفقنا على أنها أكثر، حتى بيانات مرصد حلوان أصبح مشكوكا فيها، غير أن الأستاذ فاجأنا بدعابته بعد طول إصغاء:

«عندما وقع الزلزال، كنت أجلس فى الصالة، شعرت به بقوة، تطلعت إلى السقف منتظرا سقوطه، وظهور الفنانة برلنتى عبد الحميد نازلة من فوق . . ».

برلنتى تسكن فى نفس العمارة، فى الطابق العلوى، ويسكن الأستاذ فى الطابق الأسفل.

الثلاثاء: سبتمبر ٢٠٠٢

تحدثنا عن العمليات الجراحية وما يتعلق بها، قال:

«بعد أن أجريت العملية فى لندن، سألنى الطبيب الإنجليزى:

«نفسك فى أكلة معينة؟» .

قــال :

«ما أشتهيه غير موجود هنا . . »

سألنى :

«ما هو؟ . . »

قـــال :

«الفول طبعا . . » .

قال الطبيب باسما :

«الفـول مـوجـود بالقرب من المستـشفى، وفى مطعم اسـمـه على بابا» .

وبالفعل أرسل الأستاذ وجاء الفول، وكانت أكلة ممتعة جدا .

قلت إن إدارة المستـشفى بكليفـلاند لاحظت أن مـعظم المصـريين يشتـاقون إلى أكل الفـول بعد نجاح عـمليـات القلب التى يمرون بهـا ، ولذلك أضافوا طبق الفول إلى المطعم الرئيسى فى المستشفى فى وجبة الإفطار، فـول أصلى وبزيـوت مـخـتلفـة ، الزيت الحـار ، وزيت الزيتون، وزيت بذرة القطن، والكتان .

قلت إن الإنسان بعد مروره بالخطر يتعلق بالذاكرة، خاصة الطعام الذى اعتاد عليه، أو أحبه .

«الفـول وجـدته ، لكن مـا لـم أجـده فـى الو لايات المتـحـدة العـسل الأسود بطحينة . . » .

العسل الأسود بطحينة من الأكلات التى تفتق عنها ذهن الفقراء فى مصر، وتعطى سعرات حرارية عالية، وتعد أشهى وجبة فى السجون، خاصة مع الخبز البلدى عندما يكون ساخنا.

الثلاثاء: ٣ سبتمبر ٢٠٠٢

أعود إلى علاقة الأستاذ بالعقاد، أرغب فى استيضاحها أكثر، لماذا لم يذهب إلى ندوة العقاد الأسبوعية؟

يقول إنه لا يدرى سببا محددا، لكننى كنت أعتبره قريبا منى، فعلى يديه تعلمت المفاهيم المتقدمة عن الديموقراطية والليبرالية من خلال مقالاته التى كان يكتبها فى «الجريدة»، وكنت أقرأها فى صدر شبابى. لفترة طويلة ظننت أنه كاتب سياسى فقط، ودهشت عندما قرأت له فى الأدب.

وأسأله: لكنك رأيته فى مكتبة الأنجلو ولم تفكر حتى فى مصافحته.

قال: هذا حقيقى، ربما لأننى سمعت أن شخصيته كانت منفرة.

قلت: ولكن الأمر اختلف بالنسبة لطه حسين.

قال: التقيت به مرات عديدة، كان ذلك فى الجامعة عندما حضرت دروسه فى كلية الآداب، ثم زرته فى بيته، أحيانا بمفردى وأحيانا مع المرحوم ثروت أباظة.

سألته عما إذا كان التقى بالشيخ أمين الخولى.

قال: درّس لى فى الجامعة، لكن لم ألتق به شخصيا.

قلت إن الندوات التى عقدها منذ عام خمسة وأربعين كانت محورا للحياة الأدبية والثقافية، ندوة الأوبرا بدأت عام خمسة وأربعين، واستمرت فى مراحل مختلفة، وأماكن مختلفة حتى الآن، دائما نجيب محفوظ هو المركز، كثيرون يحيطون به، بعضهم يتحدث، بعضهم صامت، بعضهم ثابت، بعضهم يتغير، مجرد عابر، ولكن دائما نجيب محفوظ هو المحور، كيف بدأت العلاقة بالندوات خاصة ندوة الأوبرا؟

قال: قبل ندوة الأوبرا، لم تكن الحياة الأدبية تعرف الندوات الأدبية فى المقاهى، كانت هناك الصالونات الأدبية، طبعا صالون مى زيادة كان أشهرها، لكننى لم أعاصره، قرأت عنه فقط، أذكر أننى ذهبت إلى صالون كانت تديره سيدة من الأسر الثرية لكننى لم أتردد عليه مرة أخرى ـ حاول أن يتذكر اسمها لكن الذاكرة لم تستدع الاسم ـ لم أشعر بالراحة فى أجواء الصالونات.

قلت: إذن.. كيف بدأت ندوة الأوبرا؟

قال: حدث أن حصل خمسة أدباء على جوائز أدبية.

قلت: أى جوائز؟

قال: إما مجمع اللغة العربية أو.. أو وزارة المعارف العمومية.

قلت: أول جائزة حصلت عليها كانت جائزة «قوت القلوب الدمرداشية»، ثم جائزة مجمع اللغة العربية..

قال : بالنسبة لجائزة المجمع فقد حصلت عليها مع أربعة آخرين، عبد الحميد جودة السحار، على أحمد باكثير، يوسف جوهر، وشاعر كان يكتب مثل طاغور وكان مستشارا . . .

قلت : لعله حسين عفيف .

قال : ربما .

قال : اقترح عبد الحميد السحار إنشاء لجنة النشر للجامعيين وتبدأ بنشر الأعمال الفائزة، قبلنا جميعا ما عدا يوسف جوهر الذى رفض فكرة النشر بدون مقابل، بدأنا نجتمع فى مقهى عرابى، ولكن أصحاب المقهى قالوا لى إن الأدباء أصحابك مزعجون ويتحدثون كثيرا وبصوت مرتفع، شوفوا لكم مكان تانى، هكذا ذهبنا إلى كازينو الأوبرا، وهناك بدأت لقاءاتنا الأسبوعية كل يوم جمعة منذ عام خمسة وأربعين واستمرت فى نفس المكان إلى أن انتهت كما تعرف (يقصد وقف الأمن للندوة عام واحد وستين) .

قلت إن الندوة كان لها فضل كبير على الحياة الثقافية بانتظامها وتردد مختلف الأجيال عليها، وبالنسبة لجيلنا فقد اختصرت المسافات بيننا، كان ممكنا أن يتأخر لقائى بمحمد البساطى أو إبراهيم أصلان أو القعيد وغيرهم مسافات زمنية لا أعرف مداها لولا ندوة نجيب محفوظ التى سعت إليها أجيال مختلفة وما تزال . كان للراحل توفيق الحكيم ندوة فى فندق شبرد، وأخرى فى الإسكندرية، لكن رواد الحكيم كانوا من الباشوات، وشخصيات المجتمع البارزة، وقلة من أدباء شباب تجرأوا على التردد، بالنسبة لى عندما قصدت مقهى بترو المطل على البحر المتوسط فى صيف ستينى، كنت ماضيا للقاء

نجيب محفوظ الذى كان يجلس صامتا معظم الوقت، بينما توفيق الحكيم يتدفق بالحديث، وكان حكواتيا عظيما، يتحدث كأنه يمثل، وتعبر يداه عما يقوله. سألت نجيب محفوظ عن كيفية تعرفه بالحكيم؟

قال: بعد ظهور رواية «زقاق المدق» طلب أن ألتقى به، وعندما انتظمت فى ندوته الأسبوعية بالقاهرة واليومية بالإسكندرية خلال شهور الصيف، انزعج الباشاوات السابقون من حضورى، كان منهم شمس الدين عبد الغفار، وبرهان نور، وطبعا إبراهيم باشا فرج، وإبراهيم طلعت، قالوا للحكيم إنهم يخشون منى لأننى أكتب فى الأهرام التى يرأسها محمد حسنين هيكل المقرب من جمال عبد الناصر زعيم الثورة، لكن الحكيم قال لهم: على ضمانتى! أذكر أن أحدهم سأل شمس الدين عبد الغفار بعد طول صمته فى القعدة: أنت بتفكر فى إيه، قال مفزوعا: أنا مش بأفكر.. مش بأفكر فى أى حاجة!

يضحك الأستاذ ضحكته الصافية، المجلجلة، بعد لحظات من الصمت يعود إلى الحديث.

قال: كان الحكيم يتحدث لفترات طويلة، لكن معظم أحاديثه شخصية، أى كنا نبدأ الحديث عن قضية أدبية، لكنه يتطرق منها إلى الشخص، يحدثنا عن والده، عن ذكرياته فى شارع محمد على، مرة سألته، قال إن آراءه النظرية موجودة فى الكتب، من يرغب فى معرفتها فليقرأها.

يكن الأستاذ لتوفيق الحكيم محبة خاصة. كان مكتب الحكيم فى الطابق السادس مفتوحا، لم أره مغلقا قط، وفى سنواته الأخيرة كان

يجلس بمفرده، حزينا لفقد ابنه الوحيد إسماعيل. ويوم الخميس ينتقل نجيب محفوظ من مكتبه المجاور ليقعد أمام مكتب الحكيم، أحيانا يظهر المرحوم ثروت أباظة، أو الدكتور زكى نجيب محمود، أو إحسان عبد القدوس، أو يوسف إدريس. بعد رحيل الحكيم خصصت إدارة الأهرام الحجرة لنجيب محفوظ، لكنه لم يجلس مكان الحكيم قط، دائما يقعد فى نفس المكان الذى لزمه أمام المكتب، وظل كرسى توفيق الحكيم شاغرا، وكأنه يتوقع وصوله.

فى بيت الأستاذ صوان صغير للأوسمة والهدايا التذكارية العزيزة عليه لمنزلة من أهدوها إليه، رأيت قلم حبر أسود، قالت لى زوجته إنه يعتز به، لذلك وضعه بين الأوسمة التى حصل عليها. هذا القلم هدية من توفيق الحكيم. دائما يصف الأستاذ «عودة الروح» بأنها كانت فتحا أدبيا بالنسبة للرواية العربية.

سأل الأديب زكى سالم عن صحة امتحان عُقد بترتيب من الأهرام لعدد من الأدباء وأشرف عليه العقاد، لكن جميعهم رسبوا فيه، كان الامتحان مخصصا للغة العربية.

قطب الأستاذ جبينه وقال: لا أذكر مثل هذا الامتحان، الامتحان الذى أذكره أعلن عنه وأجراه أحد كبار الدبلوماسيين الإنجليز فى السفارة البريطانية، كانت وظيفته تسمى السكرتير الشرقى على ما أظن، لا أذكر موضوع الامتحان، لكننى أذكر الجائزة، كانت قضاء شهر إجازة فى بيت السكرتير الشرقى بالإسكندرية، أظن كان اسمه مستر سمارت، ومن نجح كان نائبا عاما، وكان ينشر كتابات بأسلوب عربى رصين مثل الجاحظ، للأسف نسيت اسمه.

ويبدو أن الحديث عن وكيل النائب العام تداعى بحوارنا إلى القضاء المصرى، قال:

«الحقيقة أن القضاء المصرى كان مشرفا جدا، أذكر شخصا قتل مأمور مركز شرطة بالرصاص، والسبب أن المأمور أهان رجولته عندما وضع يد مقشة فى مؤخرته أمام الناس، حكم على هذا الشخص بالإعدام، وعندما وصل الأمر إلى النقض حكم القاضى عليه بالسجن مدى الحياة بدلا من الإعدام، لأن القتل كان نتيجة إهانة جسيمة.

سألت: هل تذكر اسم القاضى؟

قال: كان عبد العزيز فهمى، أحد أعظم قضاة مصر..

سأل يوسف القعيد: كيف تتلقى أخبار الفساد المعلن عنه الآن، القضية المضبوطة فى وزارة الزراعة الآن، والذين هربوا بمليارات البنوك، ما موقعهم بالنسبة لما جرى من فساد فى «فضيحة فى القاهرة»؟

قال الأستاذ بهدوء: الفاسدون فى الثلاثينات والأربعينات يبدون كقديسين بالنسبة للفاسدين الآن..

ثم قال: أذكر موظفا فى إدارة الجامعة اتُّهم باختلاس ثلاثة جنيهات، كنا ننظر إليه مثل مرتكب الكبيرة، وبعد الثورة خرج فى التطهير..

بعد صمت، قال الأستاذ:

«يا سلام.. زمن..».

الثلاثاء: ١٠ سبتمبر ٢٠٠٢

يعشق الأستاذ نهر النيل، يفضل المشى إلى جواره، والجلوس إليه، النهر العتيق فيه خاصية فريدة، كأنه شخص يدرك ويستوعب ويجاوب، ربما لا يعرف كثيرون أنه أقام فى النيل عندما كانت سكنى العوامات معروفة وقتئذ فى القاهرة. عندما تزوج استأجر عوامة قرب كوبرى الجلاء وأقام فيها أكثر من سنة، حدث أن أسرة تسكن العوامة المجاورة غرق طفلها، فأصرت زوجة الأستاذ التى أنجبت طفلتها الأولى أم كلثوم على الانتقال إلى مكان غير العوامة، وتم استئجار الشقة التى ما زالت الأسرة تقيم فيها حتى الآن بشارع النيل، منطقة العجوزة. سألت عن العلاقة بالنيل، قال:

«بدأت بصحبة الوالدة، كما كانت تصحبنى لزيارة الآثار، كانت تصحبنى للمشى بجوار النيل أو فوق الكبارى، كوبرى قصر النيل، كوبرى أبو العلا. عندما كبرت كنت أحب المشى أو الجلوس إلى النيل، كنت أصحب معى وسادة صغيرة، أذهب إلى حديقة دائرية أمام المنزل الذى سكنه أنور السادات عندما أصبح رئيسا للجمهورية (الحديقة تحولت إلى مهبط لطائرة هيلوكبتر). كنت أجلس على حافة النيل بمفردى لعدة ساعات حتى منتصف الليل، أتأمل وأفكر، ثم أعود إلى العباسية بعد انتصاف الليل. فى هذه الحديقة اجتمع الحرافيش القدامى لأول مرة، أطلقت عليها اسم الدائرة المشئومة.

أسأل: لماذا؟

يقول: لأننا كنا متشائمين تجاه مستقبل الأدب والقراءة. كنا نتناقش ونضحك، وفى إحدى الليالى جاء جندى شرطة يطلب منا خفض أصواتنا لأن يوسف رشاد طبيب الملك فاروق كان يسكن بالقرب من الحديقة الدائرية.

قال لى محفوظ:

المكان الذى يوحى إلىّ بالتأمل، الذى اكتملت فيه مشاهد روايات عديدة، القرب من النيل، يكفى أن أشعر أننى إلى جواره حتى وإن لم أتطلع إليه.

قلت: كما نحن الآن.

قال: بالضبط!

الثلاثاء: ١٧ سبتمبر ٢٠٠٢

يتحفظ كثيرا عندما نذكر أدباء آخرين، أو نسأله رأيه فى أحدهم، يصغى حذرا، ويجيب بجمل قصيرة، سألته عن الأدباء المجايلين له، خاصة الذين بدأوا مع لجنة النشر للجامعيين، مثل المرحوم محمد عبد الحليم عبد الله، يوسف السباعى، على أحمد باكثير، عبد الحميد جودة السحار، إحسان عبد القدوس، كان سؤالى عن الفرق بين كاتب يحكى فقط، وكاتب آخر لديه رؤية شاملة للكون وللإنسان.

قــال :

لا توجد علاقة حتمية بين ثقافة الأديب وأدبه، يعنى من الممكن أن يكون موهوبا وليس مثقفا، شكسبير مثلا لم يتعلم تعليما منتظما، لكنه قرأ ما أتيح له فى عصره، وألم بالحكايات الشائعة، لابد أنه عرف المسرح الإغريقى، كثير من موضوعات مسرحياته كانت موجودة من قبل، لكن موهبته الخارقة جعلته يقدمها بشكل مغاير.

قـلت :

بالتأكيد كانت لديه رؤية، لكن معظم الكتاب الذين كانوا مجايلين لك كانوا مجرد رواة لحكايات وقعت، مثلاً يوسف السباعى ومحمد عبد الحليم عبد الله وإحسان عبد القدوس وسعد مكاوى، كانوا فقط مجرد رواة لحكايات، ومثل هؤلاء قد تذيع أعمالهم لفترة محدودة، لكنها تتوارى بعد ذلك.

قــال :

لماذا تقول إنها تتوارى، هل عندك فكرة عن أرقام التوزيع؟

قــلت :

من خلال المعلومات المتوفرة لى، الوحيد الذى ما زالت كتبه تلقى رواجا هو إحسان عبد القدوس، ولكن الأسماء الأخرى ليست بالمثل.

قــال :

أحقــا؟

قلـت :

نعـــم .

ولم يعلق، عاد إلى صمته .

الثلاثاء: ١٧ سبتمبر ٢٠٠٢

سألت :

- ذكرت فى رواية «حديث الصباح والمساء» أسرة البنان، هل عرفت أحدا من أفرادها .

قال :

- طبعا، كانوا من سكان درب قرمز، لكن خذ بالك، البنان جارنا غير البنان بتاع الحسينية، بنان درب قرمز كانوا أسرة قديمة تتاجر فى البن .

قلت :

- إذن، البنان الذى أقصده منهم، عرفت اسم البنان من خلال قهوة فسيحة، مشهورة تقع على ناصيتى شارع حبس الرحبة وقصر الشوق، كانت تتكون من مستويين، الداخلى مرتفع قليلا ورأيت فيه منضدة للبلياردو، لأول مرة فى حياتى كنت أرى هذا النوع من المناضد، ولكننى لم أر أى شخص يلعب البلياردو، طبعا عرفت اللعبة فيما بعد، ولم تكن منتشرة حتى الثمانينات، كان هناك ناد للبلياردو فوق سينما ريفولى، ثم ظهرت اللعبة فى العديد من

المقاهى، ولكن معنى وجود هذه المنضدة فى مقهى البنان أنه كان فى الجمالية من يلعبها يوما ما.

ظهرت على وجهه علامات الدهشة، بعد لحيظات سألت:

ـ ماذا عن بنان الحسينية؟

قال:

ـ كان البنان من شلة العباسية، لم يكمل تعليمه معنا، أبوه خلع عنه ملابس المدرسة ولبّسه جلابية وعمة. خلاه يقف فى مصنع البن بتاعهم. كنا نمشى قدام المصنع نشوفه ونضحك، الطريف أن أباه نجح ضد والد كمال سليم المخرج فيما بعد وكان وفديّا، والسبب عرابى الفتوة، البنان الأب أيضا كان على مبادئ الوفد، لكن قيادة الوفد كانت تميل إلى والد كمال سليم. وفى أحد الأيام قرر سعد باشا زغلول أن يذهب لتأييد والد كمال سليم فى الحسينية، وعندما ظهرت عربة سعد باشا أحاط بها رجال عرابى الفتوة، حملوها على الأعناق واتجهوا بها إلى سرادق البنان بدلاً من سرادق والد كمال سليم، وهكذا نجح البنان ودخل البرلمان ممثلاً للوفد.

نضحك طبعا، وينتقل الحديث إلى عرابى الفتوة، هذه الشخصية الأسطورية، يقول:

ـ فى أحد الأيام احتل عرابى ورجاله حى الظاهر والسكاكينى، أحضروا عربات نقل وشحنوها بالحجارة والزجاجات واتجهوا إلى السكاكينى، ما حدث هو أن شابا من أصحابنا اسمه البرى بصبص لبنت من الحسينية، واستنفر عرابى قواته وشن حملة تأديبية ضد

رجال البرى وكل من يمت إلى السكاكينى ، احتل أيضا قسم الظاهر وجرد الكونستابل الإنجليزى من هدومه ، الكونستابل دخل إلى وزارة الداخلية عاريا ، اتجه إلى هارفى باشا حكمدار القاهرة ، قال له : شوف الفتوات عملوا فىَّ إيه؟ يمكن اعتبار هذا الحادث نهاية عصر الفتوات ، شن البوليس حملة شرسة ضد عرابى ، حبسوه لمدة سنة ، خرج بعدها شخصا آخر ، يمشى جنب الحيط ، لو شكاه أى إنسان يسحبوه إلى السجن ، ما أعرفش عملوا فيه إيه؟

سألته :

هل قصة فيلم «فتوات الحسينية» مكتوبة خصيصا للفيلم أم أنها مكتوبة كأدب وأخذ عنها الفيلم؟

قال :

لا . . مكتوبة للسينما ، أذكر أننى قابلت المخرج نيازى مصطفى وقال لى : أنا عاوز حاجة بلدى . كتبت القصة خصيصا للسينما ، ونجح الفيلم نجاحا كبيرا .

قلت :

رأيت هذا الفيلم فى الخمسينات . أذكر مشاهد منه ، كان تمثيل محمود المليجى وهدى سلطان وفريد شوقى بارعا ، لكننى لم أره بعد هذه المرة قط ، ولم يذعه التليفزيون إلا مرة واحدة منذ عشرين سنة .

قال بعد لحظات :

الفتوات ضاق بهم الحال فى الحسينية بعد حادثة عرابى ، البوليس

ضايقهم جدا، هاجروا من الحسينية إلى المذبح، هناك بقوا جزارين، نزلوا ضرب وذبح فى البقر والخرفان، أما قهوة عرابى فانتهت، أولاده باعوها. .

بدا متأثراً، تذكرت مرورى بميدان الجيش، اختفاء المقهى فى السبعينات وتحوله إلى مجموعة دكاكين متنافرة، كان المقهى من أجمل الأماكن التى ارتبطتُ بها، يعنى بالنسبة إليه الشباب ورفقة العمر الجميل.

الثلاثاء: ٢٤ سبتمبر

جرى حديث حول كتاب (تيرى ميسان) المؤلف الفرنسى الذى يشكك فى اصطدام طائرة بالبنتاجون، وكذلك فى طائرة بنسلفانيا، امتد الحديث أيضا إلى مقال السفير الأمريكى المنشور الجمعة الماضى فى الأهرام ويطالب فيه رؤساء تحرير الصحف المصرية بتدقيق ومراجعة مقالات الكُتاب عندما يتعرضون لأحداث الحادى عشر من سبتمبر، عن الضجة التى أحدثها المقال، وبيان المثقفين العنيف الذى صدر فى نفس اليوم، وبيان نقابة الصحفيين الهادئ إلى حد ما، بعد لحظات من الصمت قال:

- ما كتبه السفير لا يليق ولا يتفق مع روح الولايات المتحدة، لكننى لا أصدق أن الأمريكان ضربوا برجى التجارة والبنتاجون لتحقيق أهداف سياسية.

تحدثت عن رواية شاهد عيان لى أثناء زيارتى إلى واشنطن، إنه

يقيم فى فرجينيا ويعمل فى مدينة واشنطن العاصمة، كثيرون مثله لرخص الإيجارات فى ولاية فرجينيا، كان على الطريق الطويل الذى يمر بالبنتاجون، وكانت حركة مرور العربات كثيفة والمرور بطيئا، عندما لمح طائرة تطير على ارتفاع منخفض باتجاه المبنى، إن الطائرات تتجه عادة إلى المطار الموجود فى قلب واشنطن والذى يقع على مسافة قريبة من الكونغرس والبيت الأبيض والمؤسسات الفيدرالية، قال صديقى إن ما لفت نظره فى هذه الطائرة ارتفاعها المنخفض، بعد رؤيته لها بثوان دوى انفجار هائل شعر معه أن العربة ارتفعت واصطدمت بالأرض، نزل منها، فوجئ بالجميع يتطلعون باتجاه البنتاجون وكرة هائلة من الدخان القاتم تتصاعد إلى السماء. أصغى صامتا، ثم سألته عما إذا كان قد عاش فترة مشابهة لما نمر به الآن، بعد تفكير قليل قال:

ـ لا . . .

سألت: ولا الأزمة الاقتصادية عام تسعة وعشرين؟.

بعد تفكير استغرق قليلا، قال:

ـ لا. أزمة سنة تسعة وعشرين كانت آثارها قاصرة على تجار القطن الكبار وبعض المشروعات الاقتصادية الخاصة، لكننا لم نشعر بها كشعب. كان الجنيه المصرى قويّا، راسخا، أقوى من الاسترلينى، ولم يخطر ببالى قط أن قيمته سوف تهتز، كانت فكرة أن قيمته ستقل غير مطروحة بل غير متصورة، إلى أن بدأت الحرب العالمية الثانية، وبدأت أشعر أن المرتب لم يعد يكفى احتياجات الحياة، طيب. . ما العمل؟ بدأنا كموظفين نحاول التوفير من هذا الجانب وذاك، لكن

الظروف كانت تزداد صعوبة، إلى أن تولى مصطفى النحاس باشا الحكومة بعد حادث أربعة فبراير الشهير، فأتى بما سمى غلاء المعيشة، أى علاوة مالية تضاف إلى المرتب تعادل نسبة التضخم، إضافة إلى ذلك بدأ ما عرف بالإنصاف، أى إنصاف الموظفين الذين تأخرت ترقياتهم من درجة إلى درجة، لقد تمت ترقيتى نتيجة لذلك من الدرجة السابعة إلى الخامسة دفعة واحدة، وكان ذلك بالإضافة إلى غلاء المعيشة يعنى زيادة محترمة للمرتب، وهذا رواج لم نعرف له مثيلاً، أذكر أنه يوم إعلان العلاوة والإنصاف أن السعاة والفراشين قفزوا فوق المكاتب وراحوا يرقصون فرحا.

- كم كان مرتبك بعد العلاوة والإنصاف؟

- حوالى خمسة وعشرين جنيها.

هنا بدأ مجدى سعد المحامى والمهندس حسن ناصر فى حساب قيمة المبلغ بالقياس إلى قوة الجنيه المصرى، الآن فى سبتمبر عام اثنين وألفين. وانتهيا إلى النتيجة...

- المبلغ يوازى ثمانية عشر ألف جنيه الآن...

وعندما أبلغه بالرقم يضحك ضحكته الصافية، يقول:

- دا أنا كنت بآخذ مرتب ولا بتاع المبيدات...

يشير بذكاء وسخرية إلى موظف عام اتهم مؤخرا بالسماح بإدخال مبيدات حشرية تسبب السرطان، ومما نشر عنه أن مجموع مرتباته ومكافآته أربعمائة ألف جنيه شهريا. عدت إلى النحاس باشا، سألته عما إذا كان قد رآه.

ـ كثيـرا . . .

عـادةً يجـيب بكـلمـة واحـدة عندمـا يكون الأمـر بالإيجـاب ، ثم يصمت قليلاً ويعود إلى التفصيل . قال :

ـ كنت أصغى إليه فى الاجتماعات العامة ، وكان خطيبا مقتدرا ، وكانت شعبيته جارفة ، كنت أذهب إلى السرادق ، وكان بعض شباب الحزب يقومون بتنظيم الاجتماعات ، يقفون عند المداخل ويتحققون من شخصية بعض القادمين ، لم يكن الوفدى فى حاجة إلى تحرير استمارة تقول إنه منتم إلى الوفد ، أو حمل بطاقة . كان يكفى للإنسان أن يعلن وفديته ، بالطبع كان هناك أثرياء يتبرعون للحزب ، وكان هناك بعض من يتفرغ لمهام الحزب ، ولكن كثيرين كانوا يعتبرون شراء صحف الحزب إشهارا بالانتماء .

يصمت قليلا ، يعود إلى النحاس باشا . .

ـ عندما أعلن الإنصاف وعلاوة غلاء المعيشة أعلن معهما أيضا مجانية التعليم حتى المرحلة الثانوية . فى مجلس الوزراء طالب طه حسين بمجانية التعليم الجامعى ، النحاس باشا قال له : يوم ما تخبرنى أنه عندك مكان لكل طالب ، وأدوات بحث وأساتذة بعدد كاف ، سوف أقرر مجانية التعليم فورا .

سألته عما إذا كان مشى فى جنازة النحاس؟

ـ نعم ، لكننى لم أستمر حتى ضريح سيدنا الحسين الذى صلوا عليه هناك ، طبعا أنت تعرف ما حصل .

ضحكت . قلت له إننى رأيت فى معتقل مزرعة طرة عام ستة وستين

أكثر من ثلاثين وفديا اعتقلوا بعد انتهاء الجنازة على الفور، جريمتهم التى اعتقلوا بسببها دون محاكمة أنهم هتفوا فى المظاهرة: «لا زعيم بعدك يا نحاس»، بعض الذين قابلتهم فى المعتقل هتفوا بالفعل كما أخبرونى، ومنهم مصطفى ناجى ـ رحمه الله. كان طويلا، أسمر اللون، قال لى إنه هتف بالفعل، وكان بعضهم يمشى إلى جواره ويسألونه عن اسمه وعنوانه ولم يخف، كذلك حافظ شيحا.

هنا قال:

ـ حافظ شيحا كان معهم أيضا؟

قلت: نعم.

قال: حافظ شيحا كان زعيما للطلبة الوفديين، كنت أعرفه، أخبرنى أنه نظم إضرابا فى كلية الحقوق، استدعاه رئيس الجامعة وقتئذ، أحمد لطفى السيد باشا. كان طويلاً، صعيديا، عندما دخل المكتب رآه فسيحا، مشى إلى أحمد لطفى السيد وكأنه يقطع شارعا، وعندما وصل إليه، قال له: تفضل، قهوتك سادة ولاّ بسكر؟ طلب قهوة بسكر، وبعد أن شربها وقف أحمد لطفى السيد ليقول له:

ـ أنت مفصول من الجامعة فصلا نهائيا..

فى سنة أربعة وخمسين، محمد نجيب دخل فى أزمة مارس، حافظ شيحا كان مع نجيب. قبض رجال جمال عبد الناصر عليه، دفعوا به إلى السجن الحربى، دخل إلى حجرة فسيحة واسعة، كان يجلس فى آخرها ضابط، فوجئ بمن يضربه بالشلوت فاندفع إلى الأمام، قطع الحجرة، وصل إلى المكتب بدون مشى.. كان محاميا كبيرا ومحترما، طبعا عاد إلى الجامعة بعد فصله وأتم الحقوق...

قلت : لقد رأيته وكان متماسكا فى المعتقل ، وكان معهم أيضا ياسين سراج الدين وكان أنيقا فى ملابس المعتقل البيضاء ، وباستمرار يجلس معنا ، كانت عنابر الوفديين فى مواجهتنا ، وكان بها حوالى ستة وثلاثين هم ضحايا جنازة النحاس ، طبعا مسألة عبثية ولم يكن لها أى ضرورة . أذكر معتقلا وفديا اسمه حسن حصان ، كان رجلا ضخم الجسم ، طيبا ، وكان يشغله أمر ولديه . يبكى خوفا عليهما من الانحراف وهو بعيد عنهما ، انحراف هذا الزمان كان يعنى شربهما السجائر أو البيرة فى أسوإ الأحوال . عندما رأيت صورتهما رأيت شابين مكتملى الرجولة . كان فى المعتقل عنبر مخصوص لمن يطلق عليهم «النشاط المعادى» وهؤلاء خليط ، منهم من روى نكتة ، أو من تحدث بصوت مرتفع وكتب فيه أحدهم تقريرا ، هؤلاء لم يكن انتماؤهم السياسى واضحا ، ولكل منهم سبب أدى به إلى المعتقل ، ومعظمها أسباب تافهة ، بعضهم أمضى عدة سنوات ، أما أغلبية المعتقل فكانت من الإخوان المسلمين ، كان تعدادهم حوالى ألفين وخمسمائة ، وكان النشاط المعادى حوالى خمسين ، وكنا نحن الشيوعيين سبعة وخمسين ، وكانت العنابر متساوية المساحة ، فى عنابر الإخوان المسلمين ضم كل عنبر مائة وخمسين أو أكثر ، كانوا ينادون بالدور ، النصف يقف أول الليل والنصف يرقد ثم يتبادلان المواقع ، طبعا كانت ظروفا غير إنسانية ، ومع فظاعة ظروف المعيشة إلا أن معتقل طرة كان جنة بالنسبة لمعتقلات أبو زعبل والسجن الحربى ومعتقل القلعة ، كانت هذه الأماكن مخصصة للتعذيب . أى التحقيق بأسلوب ذلك الزمن . . .

مجلس العام الثالث والتسعين
(٩ ديسمبر ٢٠٠٣)



لم أعرف الحكمة مجسدة إلا من خلال نجيب محفوظ. خلال السنوات الأخيرة، أمد الله فى عمره، يهل علينا فى موعده، السادسة تمامًا، يتبعه حارسه الخاص، هو الذى أمضى عمره كله ساعيًا فى الشوارع والأسواق، والمقاهى، غير أن الأمر تبدل منذ عام أربعة وتسعين من القرن الماضى بعد حادث الاعتداء البشع، غير أن هذا الحادث كشف لنا عن نجيب محفوظ. كنا رغم الرفقة نستشعر وجوده وندرك معناه، لكننا رأيناه منذ ذلك الحين مجسدًا. يمكن تلخيص جوهره فى كلمتين «الإرادة المحفوظية». لم أعرف إرادة قوية مثله، تتحدى الألم والمرض والعجز وضعف الحواس، هذا التحدى هدفه استمرار الكتابة التى تعنى بالنسبة له الحياة ذاتها.

مع دنوه من بداية العام الثالث والتسعين كنت راغبًا فى محاورته، رغم أننا فى حوار دائم، ولكننى أعنى طرح أسئلة محددة لأطلع القراء على ما يفكر فيه، على رؤاه للعالم من هذا الموقع الزمنى والمكانى. خلال السنوات الأخيرة أحرص على خصوصية العلاقة، أن أنأى بها بعيدًا عن أى مظهر إعلامى، خاصة.

عندما يتمكن من الإصغاء إلى السؤال فإنه يجيب بوسيلتين، إما بسرعة خاطفة، أو ينتظر قليلاً، مدة قد تطول أو تقصر، وأحيانا نتصور أنه لا يريد الإجابة، غير أنه يفاجئنا بعد مدة، وفى كلتا

الحالتين ينطق بالحكمة، وأحيانا نتصور أنه قال كل ما عنده، غير أنه بعد فترة يعود إلى ما سألناه عنه، فنعرف على الفور أن ذهنه كان مشغولاً بما سألناه عنه.

فى البداية استفسرت منه عن جملة قالها خلال الأسابيع الماضية تعليقا على بعض الأحداث الثقافية، قال إن السياسة غالبة فى تناول الأدب.

قال إنه يلاحظ غلبة الأحكام المنطلقة من الرؤية السياسية على الأدب، وليس من خلال رؤية أدبية، ثم قال: ربما يكون رأيى هذا غير مطلق، ولكننى أفكر فى رفض صنع الله لجائزة الرواية، لقد كان موقفًا سياسيًا، وكان انفعال الناس بالموقف من منطلق سياسى أيضًا، لكن لم يتوقف أحد ليتناوله كأديب.

أسأله عن رأيه فى موقف صنع الله إبراهيم.

يقول إنه أعجب بالموقف فى حد ذاته. أن يقدم أديب على رفض مائة ألف جنيه انطلاقًا من رؤيته فهذه قيمة تستحق التقدير وقدوة، أما البيان الذى ألقاه وبرر به أسباب الرفض فيمكن أن نتفق أو نختلف معه كلٌّ حسب رؤيته، بالنسبة لى فإننى أقدر الرفض من أجل موقف.

أستفسر منه عن أحوال الحياة الأدبية بالنسبة لما يصله منها.

يقول: لا تنس أنك تتحدث إلى إنسان معزول، لا أستطيع متابعة ما يصدر.

أجادله: هل أنت بمفردك المعزول؟

يستفسر عما أقصده .

أقول إن أعمالا أدبية كثيرة ، بعضها جيد ، تصدر ويلفها صمت كثيف ، ومنها ما يسقط فى النسيان لعدم وجود حركة نقدية . كيف ترى الحركة الأدبية عبر سبعة عقود تمارس فيها الكتابة بدون انقطاع؟

يقول : لاشك أن التوازن بين الإبداع الأدبى والنقد أثمر حركة نشطة وصحية شهدت أجيالا متتالية ، لكننى أتفق معك فى أن غياب النقد الأدبى لأسباب كثيرة كان له تأثير أدبى ، أعتقد أن جيلنا كان أكثر حظا . وجيلكم أنتم محظوظ أيضا ، لكن ما أفكر فيه هو الكتاب الجدد الذين يعانون الإهمال النقدى والإعلامى .

سألته : كيف ترى رحلتك مع الأدب الآن ، أمد الله فى عمرك؟

قال : كانت شاقة جدا ومثمرة . وتلقيت جزائى . . .

سألته : أى نوع من الجزاء ، بالسلب أم الإيجاب؟

قال على الفور : بالإيجاب طبعا .

سألت : هل تعتقد أن الوظيفة عطلتك أم أفادتك؟

قال : عطلتنى وأفادتنى .

سألت : كيف؟

قال : طبعا أخذت الكثير من وقتى ، وقت كان ممكنا أن أخصصه للأدب ، لكن من ناحية أخرى أتاحت لى فرصة التعرف على مواقف ونماذج بشرية عديدة كان لها أثر فيما كتبت ، كما أنها أعانتنى على مواجهة الحياة .

قلت : أذكر عند بلوغك سن المعاش فى بداية السبعينات أنك كنت مبتهجًا وسعيدًا، وأنك قلت لى إنه بإمكانك المشى كما تريد بدون التقيد بمواعيد حضور وانصراف، وأن لديك العديد من المشاريع سوف تتفرغ لكتابتها. الحرافيش كتبت بعد المعاش، لو افترضنا أنك عدت مع الزمن، أو عاد بك الزمن وأنت معك ظروف مادية ميسورة توفرت بعد جائزة نوبل. يعنى لو رجع الزمن ومعك أموال نوبل، هل ستختار الوظيفة أيضًا؟

قال : طبعًا لا . . مستحيل أن أسلك طريق الوظيفة، ماكنتش أستمر كموظف.

سألت : هل الوظيفة عملت عندك نوعا من الازدواجية؟ يعنى أنت كنت موظفا ملتزما جدًا، ولعل سجل خدمتك أنظف سجل لموظف مصرى، فى نفس الوقت كنت تكتب «فضيحة فى القاهرة» و«ثرثرة فوق النيل» وتواجه الواقع فى كتاباتك بشجاعة.

قال : هذا طبيعى، الوظيفة وظيفة، والكتابة كتابة.

سألت : الآن، هل تفكر فى بعض الأدباء الكبار الذين عاصرتهم على المستوى الشخصى وكان بينك وبينهم علاقات؟

يجيب : لم تكن بينى وبين الأدباء الكبار فى جيلى علاقات خاصة.

قلت : ماذا عن سلامة موسى؟

قال : كانت علاقة احترام وتلمذة من جانبى، لكن لم تكن هناك علاقة شخصية؟

قلت : وماذا عن طه حسين؟

قال : علاقة تلميذ بأستاذه .

قلت : إذن من يحضر فى ذاكرتك الآن أكثر؟

قال : الباقون فى الذاكرة أنت تعرفهم، طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وسلامة موسى .

سألت : لكننى لاحظت أنك تعتز بتوفيق الحكيم أكثر ، وعندما أهداك قلمًا فى عيد ميلادك احتفظت به إلى جانب الأوسمة والنياشين .

قال : لأنه فنان .

قلت : والآخرون؟

قال : منهم المفكر والفنان، ومنهم الفنان المفكر أو المفكر الخالص .

قلت : رغم احترامك العميق للعقاد فإنك لم تسع إلى إقامة علاقة به، وعندما رأيته فى مكتبة الأنجلو لم تستجب لرغبة مديرها فى أن يعرفك به .

قال : العقاد كان شخصية عظيمة، مفكرا، جريئا، قوى الإرادة، لكننى لم أعرف الطريق إلى ندوته الأسبوعية ولم أشعر برغبة فى إقامة صلة شخصية . يكفى العلاقة الروحية .

سألته : وماذا عن الذين لم تتقبلهم؟

هنا صمت قليلا . قلت مداعبًا : الموظف اشتغل .

قال: لا . . أبدًا، أنت تعرف أننى رحب الصدر، ولا أحمل ضغينة، أولئك الذين أحببتهم ما زالوا معى حتى الآن، المنفلوطى بالنسبة لى الآن هو المنفلوطى الذى أحببته وأنا صغير السن، أما أولئك الذين لم أتقبلهم فلا أتذكرهم.

قلت: بعد تجربتك الطويلة فى الأدب والمواقف العامة، هل ترى أنه من الأفضل للأديب أن يعلن عن مواقفه فى القضايا العامة مهما كلفه ذلك، أم يعبر عن هذه المواقف فى أدبه؟

قال: لا مهرب من الحياة العامة، الأديب ليس منعزلاً، إنه مواطن، يعنى لو أن له موقفا سياسيا سيعلن عنه، لو كان عضوا فى حزب أو ينتمى إلى جماعة.

قلت: إذن لنفترض شيئًا آخر، لو أن أديبا رأى الفساد والخلل، هل يتصدى له بكتابة المقالات والنشاط العام، أم يدخر موقفه للكتابة الإبداعية؟

قال: لو ظروفه تسمح بإعلان موقفه من خلال المقال واتخاذ الموقف فعليه ألا يتأخر، وأن يقول ما يتفق مع ضميره، يعنى لو أنه يعمل صحفيا مثلك فعليه أن يرفع الصوت بقدر الإمكان. إذا لم يكن صحفيا وليس لديه منبر، فالأدب الإبداعى مجاله، على الأديب أن يتبع ضميره مهما كان الثمن، الإبداع لا يقبل الوقوف فى منتصف المسافة. بالنسبة لى أنا تكلمت وكتبت . .

قلت: بعد أن ظهرت رواية (فضيحة فى القاهرة) أو «القاهرة الجديدة» كما أسماها الناشر، حُقق معك فى وزارة الأوقاف عن

مضمون الرواية، لكن من حسن الحظ أن المحقق كان شقيق الدكتور طه حسين، فترفق بك وطلب منك الكتابة فى الحب، والابتعاد عن نقد المجتمع والموضوعات التى تجلب وجع الدماغ، ما تأثير ذلك عليك وقتئذٍ؟

قال ضاحكًا: ما رأيك أنت؟

قلت: رأيى أن ذلك لم يؤثر فيك، وأنك فى إبداعك لم تتهاون. هنا مال قليلا إلى الأمام، قال:

بعد أن كتبت «ثرثرة فوق النيل» ونشرت فى الأهرام مسلسلة وكان ذلك بفضل محمد حسنين هيكل، الحقيقة أن هيكل هو الذى أتاح الإبداع الأدبى الناقد للأوضاع فى الستينات، هل تذكر بنك القلق والسلطان الحائر للحكيم؟

قلت: نعم، وأذكر «أولاد حارتنا» و«اللص والكلاب» و«ميرامار» و«الشحاذ» وقصصك القصيرة التى كنا ننتظرها ونفسرها من خلال ما لا نستطيع أن نعلنه، أذكر قصة رائعة كتبتها بعد عودتك من اليمن، كنت تعارض فيها إرسال الجيش المصرى إلى اليمن..

قال: المشير عبد الحكيم عامر فيما نما إلى علمى، بعد أن أبلغوه بمحتوى «ثرثرة فوق النيل» أو ربما قرأها، قال: «الجدع ده زودها قوى ولازم يتربى». لقد أخذنى أحد معارف الدكتور حسن صبرى الخولى الذى كان مقربا من جمال عبد الناصر...

قلت: كان يشغل منصب «الممثل الشخصى للرئيس جمال عبد الناصر..».

قال: نعم، نعم، أخبرنى صديق مشترك من شلة العباسية أن قراراً كان قد صدر باعتقالى، وأن تدخلاً جرى من الدكتور ثروت عكاشة عند عبد الناصر شخصيًا، وتدخل عبد الناصر ليوقف الإجراء، كانت وجهة نظر ثروت عكاشة أنه لا يليق البطش بروائى بسبب رواية ومن قِبَل من؟ من قبل عبد الناصر . . .

قلت: لكنك منعت من الكتابة فى زمن أنور السادات . . .

قال: نعم، عندما وقعنا على بيان عام اثنين وسبعين نؤيد فيه مظاهرات الطلبة وندعو إلى حسم حالة اللا حرب واللا سلم، لقد فصل الرئيس الراحل أكثر من مائة كاتب وصحفى، أنت كنت بينهم.

قلت ضاحكا: نعم . . لقد أطلقت عليها حادثة أربعة فبراير، لأن القرار نشر فى الصحف صباح الرابع من فبراير عام ثلاثة وسبعين، استيقظت من النوم لأجد نفسى منحرفًا، كانت العناوين تقول «إجراءات حاسمة ضد المنحرفين» وأنه تقرر فصلنا من عضوية الاتحاد الاشتراكى وبالتالى فصلنا من الدور الصحفية، الطريف أننى لم أكن عضواً فى الاتحاد الاشتراكى، ولا فى أى حزب حكومى حتى الآن . .

قال: ولا أنا . . .

قلت: لقد فصلوك مع توفيق الحكيم سرًا، لم ينشر اسماكما فى القائمة . . .

قال: كانت نصيحة الدكتور كمال أبو المجد الذى كان يشغل منصب وزير الإعلام وقتئذ، وهو رجل زكى.

قلت: جميع رواياتك وقصصك نُشرت فى الأهرام تحت رئاسة تحرير الأستاذ هيكل، لكن بعد مغادرته الأهرام، نشر لك روايتان خارج الأهرام: «الحب تحت المطر» و«المرايا»، هل كان ذلك موقفًا من المرحوم يوسف السباعى ضدك؟

قال: لا.. كان ذلك رأى الدكتور لويس عوض باعتباره المستشار الثقافى للأهرام، اعترض على نشر «المرايا» فقام الأستاذ رجاء النقاش بنشرها فى مجلة الإذاعة والتليفزيون، نشرها باحتفاء كبير، ورسم الشخصيات الفنان سيف وانلى. اعترض أيضًا على «الحب تحت المطر» وكانت مجلة الشباب حديثة الصدور وقتئذ ويرأس تحريرها المرحوم صلاح جلال، هكذا...

قلت: يبدو أن الدكتور لويس عوض لم يكن رأيه إيجابيا فى أدبك...

هنا صمت نجيب محفوظ، وهذا صمت أعرفه جيداً عندما يفضّل ألا يفصح. بعد قليل قال «الله يرحمه». كنت قد نسيت، فتساءلت «من؟»، قال: «الدكتور لويس عوض..».

عدت لأسأل: إذن أنت رأيك أن الأديب يجب أن يقول رأيه فى ظل انعدام قوى سياسية فاعلة.

قال بحسم: طبعًا يجب أن يتكلم، أن يقول رأيه.

بعد صمت قال: أعتقد أن ما أكتبه يوم الخميس من كل أسبوع فى «وجهة نظر» أتاح لى أن أقول رأيى فى كل ما يشغلنى ويشغل الناس..

قلت: هذا صحيح، ولكنك فى السبعينات عندما كنت تكتب صفحة كاملة بعنوان المفكرة أغضبت الحكومة. . لم تعجبهم آراؤك. .

أومأ لكنه لم يتكلم، هنا سألته:

«لماذا بدأت كتابة المقال بعد خروج الأستاذ هيكل من الأهرام عام أربعة وسبعين؟».

قال: شوف، الأستاذ هيكل لم يطلب منى ولا من توفيق الحكيم أى شىء، بالنسبة لى كنت أنشر الرواية والقصة، لكن بعد أن جاء يوسف السباعى اجتمع بنا وقال إنه ليس من المعقول أن نوجد فى الأهرام وألا نكتب مقالات، طلب منا أن نكتب، وخصص لكل منا يومًا تحت عنوان المفكرة.

قلت: «شوف الروائى يعمل إيه فى زمايله؟».

مرة أخرى يعلق قائلا «آه»، ولم أفهم، هل الآه مقصود بها الموافقة أم يريد أن يخبرنى أنه سمع، ولأننى أعرف نغمات صوته، فأقول بالاحتمال الثانى.

قلت: طبعا كتابة مقال بهذا الحجم كان أمرًا مجهدًا جدًا. .

قال: «طبعًا».

هنا آثرت الانتقال إلى موضوع آخر.

قلت: أستاذ نجيب، لقد عشت ثورة ١٩١٩ وأنت صبى، وعشت الأزمة العالمية الاقتصادية سنة ١٩٢٩، وعشت توقيع المعاهدة عام

١٩٣٦ وإلغاءها عام ١٩٥١ ، والحرب العالمية الثانية، وحرب ١٩٤٨ وثورة ١٩٥٢ ، وعدوان ١٩٥٦ ، وحرب ١٩٦٧ ، الآن وأنت تمعن النظر فى كل ما مر من أحداث بمصر، كيف ترى مصر الآن؟

بعد لحيظة صمت، قال بتأن بليغ:

مصر الآن فى أزمة يا جمال، فى أزمة شديدة، لا يمكن الحكم على المستقبل من خلال الحالة التى نمر بها الآن . .

سكت لحظة ثم قال:

«الواحد بيحب يكون متفائلا دائمًا . . » .

سألته: هل مرت ظروف أصعب من تلك التى نمر بها الآن؟

بعد لحظات قال:

«لا . . الأزمة الاقتصادية فى بداية الثلاثينات كانت عنيفة، لكن لم نشعر بها نحن الموظفين، ولا سائر أبناء الشعب من الطبقة المتوسطة أو الفقراء، التجار الكبار خاصة تجار القطن هم الذين تأثروا بها، أما نحن الموظفين فلم نشعر بها، المرتب أول الشهر كان ضمانة، وكان يكفى تمامًا، كنا كموظفين فى نعيم، تخش فى شيكوريل أو شملا يستقبلوك بالأحضان، مع أنك كموظف بتشترى بملاليم، بس أهه بتشترى، ما هو فيه مرتب ثابت. الآن . . الموظفين حالهم زى ما أنت عارف، وكمان الطبقة المتوسطة . . » .

قلت: عندما بلغت الخمسين فى عام واحد وستين، أقام لك الأهرام حفلاً كبيرًا، ودعا الأستاذ هيكل كبار شخصيات مصر

ورموزها للاحتفال بك، كنت فى صدارة المشهد الثقافى ولاقيت التكريم على أعلى مستوى وأنت دون الخمسين، إذا قارنت وضعك ووضع أبناء جيلك بجيلنا، ألا ترى أننا تعرضنا لعملية تهميش.

تساءل بدهشة وربما بمسحة سخرية: أنت متهمش؟

قلت: حتى منتصف الثمانينات من القرن الماضى كان الوصف الذى يطلق علينا «الأدباء الشباب»، هذا وصف أطلق فى منتصف الستينات ولم يتغير لمدة عشرين عامًا.

قال: أنتم الآن الذين تمسكون بمقاليد الأمور ومفاتيح الحياة الثقافية، أنت رئيس تحرير جريدة أدبية كبرى.

قلت: هنا وضع دقيق، بالنسبة لى أنا رئيس تحرير كمهنى، وقد تعلمت منك ومن يحيى حقى ألا أستخدم المنبر الذى أشرف عليه للدعاية لشخصى، كان هذا موقفك عندما توليت الرقابة على السينما، ومؤسسة السينما، وهكذا كان موقف يحيى حقى خلال رئاسة تحرير المجلة، خلال عشر سنوات لم أنشر إلا عددا محدودا جدًا من النصوص القصصية تعد على أصابع اليد الواحدة، مستحيل نشر مقال عنى أو حتى خبر، إن علاقتى بالمؤسسة التى أعمل بها تختلف عن علاقتك أنت وكبار الكُتّاب بالأهرام، أنا صحفى محترف ولست كاتبًا متفرغًا.

قال: ولكن جيلكم يمسك الأجهزة الثقافية الآن..

قلت: هذا حقيقى إذا اعتبرنا المجايلة هى السن، ولكن المناخ الذى نعيشه مختلف، المؤسسة الثقافية بأجهزتها الآن يديرها أبناء الجيل،

ولكنها ثقيلة الوطأة، وفى مجتمع المفترض أنه يأخذ بالاقتصاد الحر، والحرية السياسية، نجد المؤسسة الثقافية تتخذ مواقف من الأدباء طبقا لولاءاتهم، الولاء لوكيل وزارة وليس للنظام!

قال: يبدو أن الثقافة الآن أكثر حكومية، ما تصفه الآن تأثير الروح الوظيفية.

قلت: لنأخذ الأمر بصورة أخرى. فى النصف الأول من القرن الماضى ازدهرت الثقافة المصرية من خلال دور نشر خاصة، وجمعيات أهلية، وكان تدخل الدولة محدودا جداً، على سبيل المثال كانت الإدارة الثقافية فى وزارة المعارف العمومية تشترى بعض النسخ من المجلات الثقافية كنوع من الدعم، وكانت العملية التعليمية جزءا أساسيا من الحركة الثقافية. هل تفضل قيام واستمرار الثقافة من خلال مثل هذه الجهود، أم الوضع القائم الآن الذى تتدخل فيه الأجهزة الثقافية فى أدق تفاصيل الواقع الثقافى، حيث تنفق الملايين على أنشطة مظهرية لا تؤدى إلى إنتاج ثقافى حقيقى.

قال: بالتأكيد أفضل الوضع الأول، لأن هذا يؤدى إلى حياة ثقافية طبيعية تؤدى إلى خلق مناخ حقيقى، وإلى فرز الغث من السمين، من الأفضل أن تمارس الدولة دورها فى الثقافة من بعيد.

قلت: أضف إلى ذلك تأثير الإعلام، الإلحاح على نشر الأخبار عن بعض الأدباء أو الموظفين أهم من النتاج الثقافى أو النشاط الثقافى.

قال: يمكن للإعلام أن يكون مسانداً للثقافة إذا أدير بسلامة نية ونزاهة، إنه من العناصر الهامة فى خلق المناخ السليم.

بعد لحظات صمت، سألته عن أحوال الكتابة الآن.

قال: الكتابة الآن محصورة فى الأحلام، أفكر فى الحلم، أحفظه جيداً، ثم أكتبه عميانى، يعنى من الذاكرة، كتبت سبعة وتسعين حلماً هكذا، لكن الأحلام الثلاثة الأخيرة أمليتها على الحاج صبرى لأن يدى لم تعد تساعدنى..

قلت: إنها المرة الأولى التى تملى فيها نصًا على شخص آخر.

قال: نعم...

شعرت بأسى فى صوته، حاولت تغيير الموضوع...

قلت: هل الأحلام مستمدة من أحلامك فعلاً أم متخيلة؟

قال: لا.. أحلام حقيقية، الحلم حل مكان الواقع.

قلت: ولكن مادة الحلم هشة والإنسان ينساها بسرعة.

قال: أنا أكتب ما أتذكره، تركيزى الآن على الأحلام، أستمد مادتى منها، يظهر أنا «فوّلت» على نفسى عندما كتبت «رأيت فيما يرى النائم». وجلجلت الضحكة المحفوظية الشهيرة. عدت لأسأله:

«لكن عندك أفكار كثيرة لم تكتب...».

قال: معظم المادة من الأحلام، هذا ما أقدر عليه الآن، لا أقدر على أكثر من ذلك.

قلت: لكن الأحلام القديمة فى «رأيت فيما يرى النائم» ليست حقيقية.

قال: بالضبط، إنها تأليف.

قلت: إذن الأحلام الحقيقية هى المعروفة بأحلام النقاهة، والتى نشر منها حتى الآن مائة حلم فى مجلة نصف الدنيا.

قال: تمام.. تمام..

قلت: لكن ألا تفاجئك فكرة قصة قصيرة أحيانا..

قال: غير ممكن، الفكرة تحتاج إلى تفعيل من خلال الكتابة، وأنا لا أكتب الآن، كل ما أقدر عليه الأحلام.

قلت: الأحلام مركزة جدًا، إنها نصوص أقرب إلى الشعر.

بعد صمت عدت لأسأله عن التوقيت الذى بدأ فيه الإملاء؟

قال: منذ أسابيع، كنت أحكى للأصدقاء عن أحلامى فطلبوا منى أن أكتبها حتى لا أنساها.

قلت: ولكنك كتوم فيما يتعلق بكتابتك.

قال: أصلهم كانوا بيسألونى عن الأخبار، فأرد بأخبار الأحلام..

قلت: أذكر أنك لم تلمح لى إلا بموضوع (المرايا). كان ذلك أيام قعدتنا فى مقهى عرابى، وبعد إحالتك على المعاش كنت تنهى قعدة الصباح بسرعة وتقول لى أنا باكتب فى عمل شاددنى، اكتشفت بعد ذلك أنه الحرافيش..

هنا أبدى يوسف القعيد ملاحظة عن تقطع العلاقات، كل العلاقات لا تتم.

قال نجيب محفوظ ضاحكًا: يعنى عاوزنى أفسر لك الأحلام؟

تدخل زكى سالم: أعتقد أن هذا من طبيعة الحلم، ألا تتم العلاقات، أن تتوقف فجأة، تلك طبيعة الحياة أيضا.

عاد يوسف القعيد ليسأل: هل تحلم بالألوان أم بالأبيض والأسود؟

ضحك قائلا: لا.. تكنيكلور..

سألته: ما هى الروايات التى تذكرها بوضوح الآن؟ أقصد بعد رحلة عمر مديد مع القراءة.

قال: الحرب والسلام، البحث عن الزمن الضائع...

قلت: وماذا عن يوليسيس.

قال: والله تفتكرها أو ما تفتكرهاش زى بعضه...

ارتفعت ضحكات الجميع.

قال: فى الحاجات الجديدة تبدو طبيعة التراكم، قرأت الأدب الجديد، ولكنى استخدمته فى محله، فى سياقه..

بعد لحظات قال: منذ أيام زارنى وزير الثقافة الإسبانى السابق، أخبرنى أنه قرأ قصتى «قسمتى ونصيبى» مترجمة طبعا، لكن لفت نظرى تفسيره الغريب للقصة، فسرها على أنها حول الصراع العربى-الإسرائيلى، وأن من سيتمكن من الآخر سيقتله ويشيل جثته.

قلت: هذا تفسير غريب جدًا.

قال: نعـم.

قلت: هذا يثير قضية التلقى، يمكن للأديب أن يكتب قصة، وعندما تصل إلى قارئ مختلف فى مكان أو زمان آخر يفهمها بشكل لم يخطر على بال كاتبها..

قال: هذا صحيح.

بعد لحظات من الصمت، قال:

لكن أنت لم تسألنى عن أحوالى عندما أكون بمفردى بالنهار..

قلت:

«أخشى أن أرهقك بأسئلتى..».

قال: لا.. أصلى عاوز أقول لك أنا بأقضى وقتى إزاى.. عارف أنا باعمل إيه؟

تطلعنا جميعا إليه مستفسرين، قال بعد لحيظة صمت:

«بأغنى...».

سألته ماذا يقصد؟

قال: أستعيد الأغانى التى أحفظها من أيام سيد درويش وعبد الوهاب وأم كلثوم؟.

سألته: كيف جاءت الفكرة؟.

قال: طبيعة.

سألته : هل تتذكر تفاصيل كثيرة؟

قال : تفاصيل كثيرة جداً، معظمها من الزمن الأول . .

سألته : هل تشرب شايا أو قهوة نهاراً؟

قال : أبداً، الشفطتين دول من الفنجان . .

سألته : والسجاير؟

قال : اثنتان فقط .

قلت : يخيل إليّ أنك دخنت اليوم ثلاثة .

قال : مستحيل . .

عدت لأسأل : أي أغانٍ تتذكرها وتغنيها عندما تكون بمفردك؟

قال : كثير .

قلت : من قد إيه كنا هنا . . من شهر فات ولاّ سنة لعبد الوهاب؟

قال : مثلاً . . أنا أحبها جداً .

قلت : وماذا تذكر لمنيرة المهدية؟

قال : أسمر ملك روحي، وبعد العشا يحلا الهزار والفرفشة . .

قلت : وحمامة بيضا؟

قال : دي لداود حسني . . حاجة جميلة!

قلت : هل سمعت منيرة مباشرة؟

قال: سمعتها فى مدينة رمسيس للملاهى، كانت أجمل مدينة ملاهى، مكانها الآن فى المهندسين، وسمعتها فى مسرح الماجستيك بشارع الألفى، لكن فى الحفلة الأخيرة كان صوتها ضعيفا وكانت تحشرج، حزنت جداً . .

سألته: وأم كلثوم؟

قال: فى بدايتها كدت أتشاجر مع واحد صاحبى لما قال لى إنه فيه مطربة جديدة اسمها أم كلثوم صوتها أجمل من منيرة، لكن عندما سمعتها وقعت فى غرام صوتها . .

سألته: ما الفرق بين الاثنتين؟

قال: عبد الوهاب له توصيف دقيق، قال إن الصوتين فى منتهى القوة، لكن صوت أم كلثوم له فرامل أفضل . . يقصد ختام النغمة.

بعد صمت، قال:

كانت منيرة لها معجبون كثر، منهم حسين رشدى باشا رئيس الوزراء فى العشرينات، من الحوادث المشهورة أنه عقد مجلس الوزراء فى عوامتها.

سألته مداعبا:

«فى عوامتها . . كان بيعمل إيه هناك؟»

قال ضاحكًا:

«أنا عارف كان بيهبب إيه؟».

ســألته :

«هل أحـبـبت شـخـصـا مـعـينا لكنك لم تصـادقـه أو تمنيت أنك تصاحبه؟».

قال : ماذا تقصد؟ .

قلت : سأعطيك مثالاً ، يعنى أنا مثلا كنت أحب أصاحب الحاج إبراهيم نافع صـديق مـحـمـود السعـدنى ، رجل جدع وشـهـم ، لكن الظروف لم تسمح . .

هنا قال زكى سالم :

«أنا فهمت ما تقصد ، أعتقد أن الأستاذ أحب العقاد جداً ، لكنه لم يصادقه» .

وافق الأستاذ على ما قاله زكى سالم ، وعندما سألته عن السبب ، قال :

«لم أتردد عليه فى ندوته ، لكنه كان شخصية عظيمة . . » .

سألته : «لاحظت أنك تستريح أكثر مع غير المثقفين . . . » .

قال : «أصل المثقفين بتوع فكر . . . » .

قال : ممكن بعض شخصيات الحرافيش . .

سألته : ما هو أقرب عمل إلى سيرتك الذاتية؟

قال : حكايات حارتنا .

بعد صمت، راح يستعيد بعضا من ذكرياته عن قبو قرمز الممتد تحت مسجد الأمير متقال، ثم قال ضاحكا:

«أذكر أنه كان فيه حكايات عن عفريتة اسمها «زرمبيحا»، وكنت في البيت أغنى وأنا طفل أغنية فيها اسم «زرمبيحا». الجيران سمعونى، أرسلوا إلى أمى، طلبوا منها أن أتوقف عن ذكرها حتى لا تطلع لهم».

قال زكى سالم: «لقد استخدم اسم «زرمبيحا» فى ألف ليلة وليلة...»

عدنا إلى الحديث عن الجمالية، وحكايات استمع إليها فى طفولته، ولدهشتى فقد استمعت إليها فى طفولتى أيضا ولكن بفارق أربعة أو خمسة عقود، مثل عفريت قبو قرمز الذى يظهر للناس على هيئة عسكرى بوليس، يستوقف أحد المارة داخل القبو ويسأله عن الساعة، وبعد أن يستمع إلى الإجابة يولى مبتعداً، عندئذ يلتفت من أجابه، ربما لغرابة صوت خطواته، فيكتشف مرعوبا أن نصفه الأعلى آدمى والنصف الأسفل لماعز...

تحدثنا عن القاهرة فى الثلاثينات، عن خطوط الترام، تذكرها بنصوع، ١٥ إلى الجيزة والأهرام، ٣٣ إلى إمبابة، فيه التقى بمحمد عبد الوهاب، ٤ ما بين الإمام الشافعى والسبتية، ٢٢ من المذبح إلى العباسية، كان يستقله عند العودة من القاهرة القديمة، تحدثنا عن الشيخ زكريا أحمد، عن الطرب، عن أصحاب العباسية الذين رحلوا جميعا، ودعونا للأستاذ بطول العمر الجميل.

الثلاثاء، ٦ يوليو ٢٠٠٤

لاحظت أن الأستاذ يبذل جهدا فى الإصغاء، سألته :

ـ هل ضعف حجر البطارية .

قـال :

ـ أظن . . .

علق زكى سالم قائلا :

ـ هذا حال مستجد منذ يومين . .

اقترحنا عليه تجربة نوع جديد من السماعات ـ ديجتال ـ غير أنه لوح بيده، رد فعل أعرفه وأتقنه منه، يعنى أن ذلك غير مهم. بعد لحظات صمت قال :

ـ منذ سنة اقترح أحد الأطباء إجراء عملية، قال لى ألم ربع ساعة ولا تعب كل ساعة، فقلت له إن الباقى من العمر كله ربع ساعة، ابتسم ضاحكا، قلت :

ـ أطال الله عمرك يا أستاذ .

الأربعاء، ٨ يوليه ٢٠٠٤

من أجل زكى سالم قبل الأستاذ أن يغير مكان وزمان المجلس، عادة يمضى مساء الخميس فى أحد الكازينوهات المطلة على النيل، لكنه اليوم جاء إلى فندق شيراتون هليوبوليس القريب من المطار .

حجز زكى سالم غرفة مؤثثة على الطراز الإنجليزى، ودعا مجموعة من أساتذة الفلسفة فى مقدمتهم الدكتور عاطف العراقى الذى أشرف على رسالته للدكتوراه «الفكر النقدى عند الشيخ الأكبر محيى الدين ابن عربى»، والتى تمت مناقشتها الأسبوع الماضى. من أصدقاء الثلاثاء جاء عماد العبودى، يوسف القعيد، الفنان التشكيلى محمد الشربينى.

وجود الدكتور عاطف العراقى، وأساتذة الفلسفة الآخرين، جعل الحديث يتجه إلى ذكريات الأستاذ عن دراسته للفلسفة، وعن الحياة الجامعية، سبق ذلك حديث طويل عن توقعات التغيير الوزارى المرتقب بعد عودة الرئيس مبارك من رحلة العلاج إلى ألمانيا أمس الأربعاء (٦ يوليو ٢٠٠٤).

عندما علم نجيب محفوظ أن الدكتور عاطف العراقى خريج جامعة القاهرة، دفعة سبعة وخمسين، قال:

«ياه... دا حديث قوى...»

طبعا، بالنسبة إليه هو خريج نفس القسم عام أربعة وثلاثين، قال الأستاذ إنه عندما تقدم إلى كلية الآداب كان الممتحن الدكتور طه حسين، وعندما سأله عن السبب الذى دفعه إلى اختيار قسم الفلسفة، أجاب معبرا عن بعض أفكاره، عندئذ قال العميد:

«انت بتتكلم كلام مش مفهوم.. روح الفلسفة..»

يقول محفوظ إن قسم الفلسفة لم يكن ملتحقا به إلا أربعة فقط، كانوا يشكلون الدفعة التى دخلت عام أربعة وثلاثين، وهم: توفيق

الطويل، عبد الهادى أبو ريدة، على عيسى، قال إن توفيق الطويل كان قريبا جدا منه، وإنه عندما توفى بكى تأثرا، كان القسم لا يضم إلا هؤلاء، وكان يتردد عليه للاستماع إلى المحاضرات بعض طلبة الأقسام الأخرى، ومنهم المرحوم رشاد رشدى. لم يكن هناك ظاهرة الأعداد الكثيفة التى تزدحم بها الجامعة الآن. يتوقف قليلا ويبتسم قبل أن يشرع فى الحديث، نعرف على الفور أنه سيروى أمرا ما:

«قسم الاجتماع كان فيه طالبة واحدة، اسمها إحسان، لا أذكر الاسم الثانى، وكان يدرّس لها حوالى عشرة أساتذة ومعيدين، كان الأساتذة أكثر من الطلبة. كانت الطالبة إحسان أنيقة جدا، تجىء إلى الجامعة بفستان يكشف ذراعيها، واستدعاها أحد الأساتذة، طلب منها أن تغطى ذراعيها، بدأت تجىء بفستان متصل بكمين مثبتين بزراير، وبمجرد خروجها من المحاضرة تخلعهما.

هنا علق القعيد قائلا:

«لابد أنهما كانتا جميلتين..»

قال: مؤكدا.

«جدا...»!

الثلاثاء، ١٢ يوليه ٢٠٠٤

سألته: هل رأيت طلعت حرب؟

قال: من بعيد، كنت أتردد على سينما الأزبكية، وكان يجىء

أحيانا بصحبة بعض الشباب ! شفت الناس يتعاملون معه باحترام رغم ما كان معروفا عنه . . .

أسأله عن المقصود بالمعروف عنه؟

يسكت ولا يجيب، أعرف أنه لا يريد أن يفصح، عندئذ أحيد بالموضوع، أسأل: «هل كان هناك سينما فى حديقة الأزبكية؟».

يقـــول:

«نعم . . كانت سينما وسط الحديقة تابعة لبنك مصر، تدخلها بقرشين، وتقعد إلى «ترابيزة» تأكل خشافا وتدخن شيشة إذا رغبت، وتتفرج على فيلم . . ».

يصمت قليلا، ثم يقول:

«كانت أياما . . ».

الثلاثاء، ١٩ يوليه ٢٠٠٤

يضحك بدون مقدمات، يتذكر أمرا.

يقول إنه كان يستمع إلى أم كلثوم فى إحدى حفلاتها، كانت تغنى قصيدة لـحّنها وأداها الشيخ على محمود، أحد أشهر وأقوى أصوات المدائح والقصائد الصوفية، أخذته النشوة، صاح مبتهجا، مخاطبا أم كلثوم:

«الله يا شيخ على . . »!

الثلاثاء، ١٥ يونيه

منذ فترة أخبرنا أنه لم يعد يستطيع الكتابة بنفسه، تدرب طويلاً بعد الحادث ولكنه لم يعد قادرا، بدأ يملى على الحاج صبرى ما يبدعه من أحلام فترة النقاهة.

يسأله زكى سالم: هل يؤدى ذلك إلى تغيير فى النص؟

يقول محفوظ: إن الأحلام مع الإملاء تحتاج إلى قدر أكبر من التركيز، إنه يخشى أن يفقدها ذلك بعض الشاعرية.

يسود صمت، أستحضر متخيلاً جلوس نجيب محفوظ إلى الحاج صبرى صباحا، يمليه ما يستجد من أحلام، محفوظ الذى كان يعتبر الكتابة سرا حميما، لا يمكن إطلاع آخر عليه، لكنها الرغبة فى الإبداع، غريزة الخلق لديه تجعله قادرا على تطويع أعتى الظروف.

الثلاثاء، ١٤ يوليو ٢٠٠٤

أعلن اليوم التشكيل الوزارى الجديد برئاسة الدكتور أحمد نظيف، سألت عن وزارات ما قبل يوليو ١٩٥٢، قال:

«كانت وزارات حزبية، وعندما ينجح حزب فى الانتخابات يأتى بفريق متكامل له منظور خاص، حتى فى وزارات الأقليات، مثل وزارة إسماعيل صدقى جاء بفريق كان له رؤية، طبعا الوزارات كانت تأتى بعد انتخابات، الانتخابات الوحيدة الحرة هى التى تأتى بالوفد، ولكن عندما تجىء حكومات أقلية تكون الانتخابات مزورة. تزوير الانتخابات كان يتم بتدخل الملك».

سألته عما إذا كان يذكر مرحلة ما قبل الثورة التى تعاقبت فيها وزارات عدة خلال فترة قصيرة، قال يوسف القعيد معلقا :

«لموسى صبرى كتاب جيد عن هذه الفترة، ملك وأربع وزارات. . ».

قال محفوظ إن هذه المرحلة شهدت تدهور صورة الملك عند الشعب، وساءت سمعته إلى حد كبير. قال إن الطليعة الوفدية التى كانت تعتبر يسار الوفد، ومنهم محمد مندور وإبراهيم طلعت، كانت بدأت تتحرك فى اتجاه ثورة شعبية، ولكن جاءت حركة الجيش لتبدأ مسارا مختلفا. .

سألته عن رؤيته للوزارة الجديدة التى تم تشكيلها اليوم برئاسة الدكتور أحمد نظيف، بعد تفكير قال :

«لا أستطيع إلا أن آمل خيرا. . ».

عدت لأسأله عن حزب الوفد، معروف أنه وفدى الاتجاه، هل كان عضوا فى حزب الوفد؟ قال بسرعة :

«لا طبعا، لم أكن عضوا فى حزب الوفد، كانت عضوية الوفد أهم من الوزارة، لكننى كنت من جماهير الوفد. . . ».

قلت :

«ما الفرق؟».

«الفرق كبير، كان للحزب تنظيمه، اللجنة العليا، والهيئة

الوفدية، ثم اللجان على مستوى المحافظات، أما جماهير الوفد وكنت منهم فهؤلاء عضويتهم ليست رسمية، أى لا نملأ استمارات ولا نحضر اجتماعات. لكن نتظاهر تأييدا للوفد، نتعاطف معه».

هنا قال القعيد:

«فى قريتنا الضهرية كان هناك عائلتان كبيرتان معروف انتماؤهما إلى الوفد، وكانا يتبرعان للحزب بمبالغ كبيرة، عندما كان الوفد يصل إلى الحكم يتم تركيب عدة التليفون فى دارى كبيرهما، وعندما يُبعد الوفد عن السلطة يُزال التليفون.

قال المهندس حسن ناصر:

«كان التليفون رمزا للسلطة فى الريف، كانت العدة تعنى السلطة، خاصة عند العُمَد. .».

الثلاثاء: ٢٧ يوليو ٢٠٠٤

جرى حديث عن الفلاسفة، سأل زكى سالم:

«يقول الدكتور عاطف العراقى إنه ليس لدينا فلاسفة، إنما أساتذة فلسفة، هل توافقه على ذلك؟».

قال محفوظ:

«نعم، لقد ولى عصر الفلاسفة الكبار، وأعتقد أن آخرهم هيجل الألمانى، ما تلا ذلك لا نجد بينهم من يطاوله قامة».

قال زكى :

«الدكتور عاطف يعتبر ابن رشد آخر الفلاسفة العرب والمسلمين . . »

قلت :

«الحقيقة هناك فيلسوف عظيم بعده لكنه غير مشهور فى العالم العربى ، إنه الملا صدر الدين الشيرازى ، والذى جمع بين فلسفة ابن سينا وحكمة الإشراقيين . . » .

قال عماد العبودى :

«لكنه فارسى . . . » .

قلت :

«له مؤلفات بالعربية ، وابن سينا كان من بلاد ما وراء النهر ، الحقيقة أن معظم فلاسفة المسلمين جاءوا من هناك . . الملا صدر الدين متعارف على أنه آخر الفلاسفة العظام ، وهناك رسالة علمية لدرجة الدكتوراه أعدها عنه الشيخ محمود عبد الفضيل وكيل كلية أصول الدين بالأزهر الآن . . » .

قال محفوظ :

«هل تقرأ علينا الأسبوع القادم بعضا من أفكاره؟» .

«بإذن الله يا أستاذ . . » .

مراجعات

الثلاثاء: يوليو ٢٠٠٢

سأل يوسف القعيد: ألا تقوم بمراجعات لأدبك وتجربتك الإبداعية كل مدة معينة؟

قال الأستاذ: لا . . لا أقوم بهذه المراجعات، أتصور أن المفكر هو الذى يجب أن يقوم بها، لكننى لم أفعل ذلك. الروائى والشاعر يعيدان النظر فى نفسيهما باستمرار، لكن التوقف والمراجعة من أجل المراجعة فلا أظن.

سألت: هل تولى اللغة اهتماما خاصا، بمعنى أنك تحاول تطويرها من عمل إلى عمل؟ لقد مرت لغتك بمراحل هامة، فمن يقرأ عبث الأقدار وكفاح طيبة لن يتصور أن من كتب هاتين الروايتين سيبدع الحرافيش وصولا إلى أصداء السيرة.

قال الأستاذ:

إننى لا أتعمد تطوير اللغة، اللغة بالنسبة لى مثل الكائن الحى، ينمو مع التجربة والخبرة، وزاد التجربة هو القراءة. وأحيانا يفرض العمل استخدام لغة ذات إيقاع خاص.

الثلاثاء: ٢٧ أغسطس ٢٠٠٢

تحدثت عن كتاب جديد صادر فى القاهرة، عنوانه «البحث العلمى والتكنولوجى فى إسرائيل» يتناول البحث العلمى فى

إسرائيل، ويقارنه بالبحث العلمى عند العرب. أخطر ما فيه أنه تم تسجيل ستمائة وأربعين براءة اختراع العام الماضى فى إسرائيل مقابل أربعة وعشرين فقط فى الدول العربية كلها.

أبدى دهشة، هز رأسه مرتين، عندما طال صمته أدركت أنه يقلب الأمر، وبعد وقت يطول أو يقصر سيتحدث مبديا رأيه، أو قد ينسى الأمر كله.

استأنفت حديثى..

قلت إن محمد حسنين هيكل لديه معلومات تبدو غريبة بالنسبة لمن يجهل، ولكن لمتابعته الدقيقة...

بدا مركزا جدا فى الإصغاء.

قلت إننى منذ أسابيع كنت فى زيارة له، ودار حديث حول إسرائيل، قال إن ما يثير اهتمامه فى إسرائيل ليس الجيش الذى كان بمثابة البوتقة التى تنصهر فيها العناصر المختلفة القادمة من شتى أنحاء العالم، ما يسترعى انتباهه الآن التقدم العلمى فى الجامعات، الجامعات العبرية بها مراكز بحث متقدمة، وعلى صلة قوية بمراكز البحث المتقدمة فى جميع أنحاء العالم. قلت إن حديث الأستاذ هيكل بدا لى غريبا يومئذ، فالجيش هو عماد الدولة العبرية، لكن بعد أن قرأت هذا الكتاب أدركت صحة ما تحدث فيه، ومدى دقة رؤيته.

بعد لحظات صمت سألنى:

ـ كم براءة اختراع فى إسرائيل؟

ـ ستمائة وأربعون.

ـ وعندنا نحن؟

ـ فى العالم العربى كله أربعة وعشرون.

بعد لحظات من الصمت قال:

ـ أين ستذهب هذه الاختراعات؟

تطلعت إليه صامتا، قال:

ـ ستصب فى مصلحة البشرية فى النهاية.. يعنى سوف نستفيد منها..

أصغيت إلى كلماته المعبرة عن نظرة إنسانية شمولية تتجاوز التوقيت الراهن الذى نعيشه، ولم أنطق باستفسار جال عندى: وماذا عنا نحن؟

الثلاثاء: ٢٠ يوليو ٢٠٠٤

سألته عما إذا كان يذكر الأب جاك جومييه.

قال على الفور: طبعا، إنه أول من كتب عنى من الأجانب، وكانت تربطنى به علاقة شخصية.

قلت إننى عرفت الرجل عندما كان يقيم فى دير الآباء الدومنيكان

بالدراسة، وهناك قرأ لى صفحات عديدة من رسالته العلمية التى نال بها درجة الدكتوراه عن (المحمل). وله دراسة أخرى عن خطبة الجمعة، وللأسف كلاهما لم يترجما إلى العربية، كتبهما بالفرنسية، قلت إنه كان رجلاً شديد التواضع، وما زال يعيش فى تولوز، ولعله يقترب الآن من المئة.

قال محفوظ: كانت دراسته عن الثلاثية رائدة.

قلت إننا قرأناها مترجمة عندما صدرت عن مكتبة مصر.

قال محفوظ: لقد زرته مع يحيى حقى فى الدير، رأيت هناك مكتبة هائلة فى ثرائها، قرأت منها الجزء الثانى من ديوان حافظ الشيرازى الذى ترجمه الدكتور إبراهيم الشواربى، لم أقتنِ منه إلا الجزء الأول.

قلت: إنه أعارنى هذا الجزء لأصوره فى مرة نادرة، وإنه حريص على الاحتفاظ به فى مكتبته التى لا تضم إلا عدداً قليلا جداً من الكتب.

قال محفوظ: هل أعرتك المجلد الأول؟

قلت: نعـــم.

قال: لا أذكر...

بعد صمت قال إنه كان يرى جاك جوميه أثناء مروره بمقهى عرابى، كان يرتدى الزى الأبيض للرهبان الدومنيكان، وكان يبدو إما قادما أو ذاهبا إلى الدير يقضى حاجة أو يحمل بعض الأشياء.

الثلاثاء: ٢٧ يوليو ٢٠٠٤

سألته عما إذا كان مصطفى النحاس قد قَبَّل يد الملك.

قال محفوظ: لا أظن ذلك، لقد سألت إبراهيم باشا فرج لكنه أكد عدم صحة ذلك، وقال إن من أشاع ذلك هو حسين سرى باشا.

قلت إن حقيقة مصطفى النحاس كزعيم وطنى عظيم لم تعرف إلا بعد سنوات طويلة من ثورة يوليو، إننى أنتمى إلى الجيل الذى تفتح وعيه بعد الثورة، وصورة النحاس باشا بالنسبة لنا كانت سلبية، كانت أشبه بالمهرج الذى ورث زعامة ثورة ١٩١٩، لكننى بعد أن قرأت تاريخ الحقبة من خلال كتابات الرافعى وطارق البشرى ولطيفة سالم (لها كتاب هام عن الملك فاروق) وجدت صورة مغايرة تمامًا، وجدته زعيما وطنيا قويا، مناهضا للملك، يكفى موقفه ضد تنصيب الملك فى الأزهر عندما حاول الشيخ مصطفى المراغى ذلك.

قال محفوظ: أذكر جملة للسكرتير الشرقى بالسفارة البريطانية، قال إن المشكلة فى مصر أن رئيس الوزراء يريد أن يمارس سلطات الملك، وأن الملك يريد أن يصبح رئيس وزارة!

الثلاثاء: ٢٧ يوليو ٢٠٠٤

سألت عما إذا كان الوزراء قبل الثورة يقدمون إقرارات ذمة مالية؟

قال: نعم.. ولكنها لم تكن تعلن.

قلت إننى أذكر اطلاعى على ملف خدمته، وأنه يتضمن إقرارا

بالذمـة المالـيـة حـرره عـام ١٩٥٢ ، وأنه كـان يمتلك وقـتـئـذ فى البنك ستمائة وعشرين جنيها .

ابتسم ، بعد لحظات قال إنه كان يقدم فى كل سنة إقرارا بذمته المالية حتى خروجه على المعاش ، بعد صمت قليل عاد إلى نفس الموضوع ، قال إن الميزانية كانت تتميز بالشفافية قبل الثورة ، وكانت مخصصات الملك مـعـروفة ، وأذكـر جـيـداً واقعـة مناقـشـة الميـزانيـة التى تم فـيـهـا تخصيص خمسين ألف جنيه لإصلاح اليخت «المحروسة» المملوك للدولة ، كانت مناقشة قوية ، قمة فى الأداء البرلمانى ، ولم نعرف مثيلا لها فيما بعد . .

الجــزء الثــانى

تم تسـجيل هذه المجـالس عـام ثمانيـة وسـبعـين وتسعـمـائة وألف، فى كـازينو كليـوباترا بشـارع الجـبلاية، وفى مـقـهى الفيـشاوى، وذلك يوم الاثنين كل أسـبوع بدءا من يونـيـو وحــتى أكــتـوبر، وقــد اقـتصـرت على الأسـتـاذ نجيب مـحفـوظ وشخصى فقط.

ذكريات.. الذكريات المحفوظية

ما أسرع مروق الأيام . .

أكثر من ربع قرن مضى على ذلك الصيف القاهرى الحار ، الشهور التى يتوقف خلالها نجيب محفوظ عن الكتابة بسبب حساسية تبدأ فى يونية وتنتهى آخر أغسطس ، هذا ما نعرفه كسبب معلن ، ربما ثمة أسباب أخرى ، منها التوقف الإرادى عن الكتابة للتأمل وإمعان النظر فيما كان وسيكون ، غير أن هذا الصيف لم يكن عاديًا ، خاصة بالنسبة له ، صيف عام ثمانية وسبعين وتسعمائة وألف ، كان محفوظ قد أعلن تأييده لزيارة القدس التى بادر إليها الرئيس أنور السادات ، واتخذت الدول العربية ممثلة فى اتحاد الكتاب العرب (لا أذكر من كان يرأسه وقتئذ ، ربما السيد على عقلة السورى) قراراً بمقاطعة نجيب محفوظ ، مقاطعته على جميع المستويات ، شخصيا ، ومقاطعة أعماله أيضا . هكذا منعت مؤلفاته كلها المكتوبة قبل زيارة القدس وبعدها من دخول الأفلام العربية ، واضطر منتجو السينما إلى إزالة اسمه من الأفلام التى كتب حواراتها أو قصصها أو شارك فيها ، كان الأمر بمثابة إعدام أدبى لأكبر كاتب عربى ، وفرصة أيضًا لأصحاب بعض النزعات الإقليمية الضيقة المتقنعة بلافتات شديدة القومية وساخنة العروبة لتحجيم الدور الثقافى المصرى .

هل يعنى إعلان نجيب محفوظ عن آراء سياسية وسيلة لكى يصادره البعض تماما؟

كيف يمكن مصادرة زقاق المدق، والثلاثية، والحرافيش، وأولاد حارتنا؟

كان القرار غريبًا، وهنا لابد من توضيح، فموقفى السياسى يختلف عن موقف نجيب محفوظ، لكننى ناقشته وحاورته مع محبيه وأصحابه، وبالنسبة لى فإن محفوظا يعلن مواقفه عن قناعة وبعد تفكير طويل، وليس لأسباب انتهازية كما يفعل بعض الكُتاب الآن، ولم يكن موقفه مفاجئًا بالنسبة لى، أذكر أنه صارحنا فى صيف عام سبعة وستين والهزيمة ما تزال طرية، جراحها تنزف بغزارة، كان ذلك فى مقهى الفيشاوى بالقاهرة القديمة، كنا ثلاثة، الروائى يوسف القعيد، والأديب الراحل إسماعيل العادلى، كنا نتحدث فيما جرى وما سيجرى، عندما فاجأنا برأيه، قال إنه إذا لم يكن هناك إمكانية لهزيمة إسرائيل عسكريًا، فلنلجأ إلى الطرق السياسية، إلى بحث إمكانية الصلح.

كان هذا الرأى فى ذلك التوقيت صادمًا لنا، وفيما تلا ذلك جرت مناقشات عديدة، اختلفنا فيها كثيراً، غير أن الصلة لم تهن، وإعجابنا بإبداعه الجميل لم يكف. حتى صدر هذا القرار الغريب بالمقاطعة، والذى عرف تطرفًا مبالغًا فيه عند التطبيق، لم يتقبل الضمير الثقافى العربى هذا القرار، بل أعرب كبار المبدعين والمثقفين العرب عن استنكارهم له وعملوا على إنهائه وتجاوزه عمليًا. فى هذا المناخ السيئ، اتصل بى الأستاذ عماد الدين أديب، وكان يعمل مديرا

لجريدة الشرق الأوسط، قال إنه يقترح عليّ حوارا طويلا، غير تقليدى مع نجيب محفوظ، ينشر على حلقات، وعندما التقينا تحسست الموقف بخصوص النشر، قال لى بوضوح إنه عرض الفكرة على المسئولين عن التحرير، وإنهم تحمسوا، وأن الجميع متفق على استحالة مقاطعة نجيب محفوظ إبداعيًا وأدبيًا.

هكذا بدأت.

* * *

لم يكن محفوظ قد بدأ إجازته الصيفية بعد والتى يسافر خلالها إلى الإسكندرية، كان قد تقاعد منذ ست سنوات وأصبح متفرغًا تماما للكتابة، وخلال تلك السنوات كتب ملحمة «الحرافيش»، كان فى حالة صحية جيدة، يمشى يوميا فى الصباح والمساء، يجوس فى شوارع القاهرة القديمة كل أربعاء، يتلمس أماكن الذكرى وأزمنة الحنين، عندما عرضت عليه الأمر تحمس كثيراً، واقترح أن نلتقى فى مكان هادئ لا يطرقه من نعرف، ووقع اختياره على مقهى إفرنجى «كازينو» مطل على النيل من الضفة المواجهة لبيته فى العجوزة، كان يعبر الجسر الطويل الممتد من المهندسين حتى ميدان باب الحديد «كوبرى أكتوبر»، يقطع هذا الجزء الصغير الذى يصل ضفة النيل الصغير، وينزل السلالم إلى مدخل المقهى. طلبت أن نبدأ بعد أسبوع، اتفقنا.

رغم الصلة الطويلة الممتدة منذ عام تسعة وخمسين، إلا أننى تهيبت الأمر، لذلك لم أعتمد على طول العلاقة وعمقها فقط، إنما قررت الرجوع إلى الأحاديث الهامة التى أجريت معه، قضيت

ساعات فى أرشيف دار أخبار اليوم، إلا أن المرجعين الأساسيين اللذيْن توقفت عندهما :

* حوار فؤاد دوارة معه، والذى ضمنه كتابه «عشرة أدباء يتحدثون»، والعدد الخاص من مجلة «الهلال» الذى صدر عام سبعين من القرن الماضى، وحرره الأستاذ رجاء النقاش رئيس التحرير وقتئذ، وفى تقديرى أنه من أجمل وأهم الأعداد الخاصة التى صدرت عن محفوظ وما زال مرجعًا ثريًا فى مادته وصوره ولابد من العودة إليه عند التفكير فى أى عمل خاص بالأديب الكبير. أصغيت أيضًا إلى حوار طويل على مدى ساعتين أذيع فى الستينات، وطبع فى شريطين من خلال شركة صوت القاهرة التابعة لاتحاد الإذاعة والتليفزيون، وعدت إلى ملاحظاتى الخاصة.

هكذا أعددت برنامجًا دقيقًا، منظمًا، استوحيت خلاله قدرة محفوظ على الانضباط، بحيث يجرى الحديث لتغطية عدة محاور :

* الطفولة، النشأة، التكوين.

* المكان، خاصة القاهرة القديمة. ولأننى ابن المنطقة ذاتها، فقد عشت ثلاثين عامًا فى حارة درب الطبلاوى المتفرعة من شارع قصر الشوق، أى على بعد خطوات من ميدان بيت القاضى الذى ولد فى أحد البيوت المطلة عليه، المكان ركن أساسى ليس فى أعمال محفوظ فحسب، إنما فى حياته اليومية، وتكوينه النفسى، إضافة إلى كونه ذاكرة حية للقاهرة القديمة والقاهرة الحديثة، ومن خلاله أعرف الصورة التى كانت والتى تغيرت. وقبل بدء حوارى معه نشرت دراسة عن القاهرة فى المكان، فى الواقع، وكما رسمها محفوظ،

ومن خلال خبرتى بالمكان قارنت بين الأصل والإبداع، وضمنتها كتاب «ملامح القاهرة فى ألف عام ـ الطبعة الثالثة».

* الكتابة وما يتصل بها، بالطبع لم يكن الأمر هنا مجرد أسئلة وأجوبة، إنما كانت فرصة سانحة لى لكى أستكشف أبعاد العالم الإبداعى لكاتب لا يتحدث كثيراً عن عالمه وعاداته فى الكتابة، وعلاقته باللغة، وبالأشكال الروائية الحديثة.

* الآراء السياسية، وكان الأمر هامًا خلال هذه الفترة بالذات، خاصة بعد صدور رواية الكرنك، وإعلانه تأييد السادات فى زيارته إلى إسرائيل.

* علاقته بالسينما، كيف بدأت، وكيف وصل عدد الأفلام التى أعد لها السيناريوهات أو الحوارات إلى أكثر من سبعة وسبعين فيلما.

* الوظيفة، أو بمعنى أدق العلاقة بين العمل الذى يؤديه الأديب من أجل تكاليف الحياة، وتأثير ذلك على إبداعه، وتكوينه ومساره. وبالطبع كنت أحاول أن أتلمس أوجه الشبه بين ما أعيشه وما عرفه.

* أخيراً.. حياته الأسرية، الحب والزواج، ومن ناحية الحب كنت متأثراً بتجربته التى عبر عنها فى الثلاثية من خلال حب كمال عبد الجواد لعايدة شداد، تلك العلاقة الفريدة التى احتوتنى لفترة ليست بالهينة. خلال حواراتى الممتدة عبر سنوات عديدة عرفت تفاصيل شتى عن حياته الخاصة، وعشت عن قرب مع أصدقاء الطفولة أو كما يسميهم شلة العباسية، وكان شديد الإخلاص فى علاقته بهم، يخصص لهم مساء كل خميس، حتى حالت ظروف

المرض وزحام القاهرة، ثم رحيلهم جميعًا . . رحمهم الله . غير أننى لم أكتب ما أراده هو أن ينشر، وحجبت ما يمكن أن يسبب له إزعاجًا، فظروف مجتمعاتنا لا تسمح حتى الآن بالبوح على الطريقة الأوروبية .

هكذا بدأنا، واستغرق العمل أكثر من عشرين ساعة على امتداد شهر كامل، عملنا خلاله بلا توقف، فيما عدا أيام الجمعة والخميس، وعندما بدأت الكتابة حذفت الأسئلة، إنه صوت ذاكرة محفوظ فقط الذى يروى، إننى أستعيد تلك الأيام الحارة، وعرة القيظ، بحنين، فتلك الفرصة الأطول التى سنحت لى كى أنفرد بالمبدع العظيم، الذى كان وما زال صديقا ومعينًا ومؤنسًا ودليلاً بالنسبة لى .

* * *

عندما انتهيت من تلك المجالس نشرت أولا على حلقات فى الشرق الأوسط، وفى نهاية العام سافرت إلى بيروت، كانت دار نشر (المسيرة) قد أعدت برنامجًا، ومما أعتز به، أن محفوظًا كتب مقدمة هذا القسم من المجالس عندما صدر فى كتاب مستقل بعنوان «نجيب محفوظ يتذكر» يقول فيها :

«هذا الكتاب أغنانى عن التفكير فى كتابة سيرة ذاتية لما يحويه من حقائق جوهرية وأساسية فى مسيرة حياتى، فضلا عن أن مؤلفه يعتبر ركنا من سيرتى الذاتية .

نجيب محفوظ».

الطفـــولة...

. . عندما أرحل بذاكرتى إلى أقصى بدايات العمر، إلى الطفولة الأولى، أتذكر بيتنا فى الجمالية شبه خال، أنجب والدى من قبلى ستة أشقاء، جاءوا كلهم متعاقبين، أربع إناث وذكرين، ثم تتوقف والدتى عن الإنجاب لمدة تسع سنوات. ثم. . أجىء أنا. عندما وصلت إلى سن الخامسة كان الفرق بينى وبين أصغر أخ لى خمس عشرة سنة، البنات كلهن تزوجن تقريبًا فيما عدا واحدة لا أذكر أى شىء عن حياتها فى البيت، أما شقيقاى فقد تزوجا بالفعل، أحدهما دخل الكلية الحربية وسافر للخدمة فى السودان، لهذا. . لا أتذكر فى البيت إلا والدى ووالدتى، لا أذكر أن أى إنسان آخر شاركنا البيت إلا الضيوف، عمتى، ابنة عمتى، ناس من الخارج، أغلب حياتى فى بيتنا كأنى طفل وحيد، لكن طبعًا كنا نزور الأشقاء فى بيوتهم. لهذا إذا ما حاولت استرجاع ذكرياتى عنهم، فإننى أتذكرهم فى بيوتهم وليس فى بيتنا. كانت علاقتى بهم علاقة الصغير بالكبار، أساسها الأدب والحشمة، لم أعرفهم كأشقاء أعيش معهم حياتهم اليومية، ألعب معهم، أضحك معهم، ولذلك كانت علاقة الأخوة من العلاقات التى أتابعها فى حياتى باهتمام، فيما بعد كان من أصدقائى

أشقاء، كنت أتابعهم، أسأل نفسى: ترى.. لو أن إخوتى قاربونى فى السن، كيف ستمضى علاقتى معهم؟ كان من بين أصدقائى ثلاثة أشقاء، كانوا دائمًا يلعبون معًا، يذهبون إلى النزهة معًا، يضحكون معًا، كنت أتابعهم وأسأل نفسى: هل كنت سأصبح مثلهم؟.. كنت محرومًا من الإحساس بالأخوة..

لهذا تلاحظ دائمًا أننى أصور فى كثير من أعمالى علاقات أخوة بين أشقاء، وهذا نتيجة لحرمانى من هذه العلاقة، يبدو هذا فى الثلاثية، فى بداية ونهاية، فى خان الخليلى..

لم أجرب هذه العلاقة فى الحياة الحقيقية، كنت دائمًا أنظر إليها كشىء محرم أو مجهول، كنت أتمنى أن يكون لدىّ نفس العلاقات بين أصدقائى: الأخوة...

اللعب

طبعًا البيت يرتبط فى ذكرياتى دائمًا باللعب، خاصة السطح، فيه مجال كبير للعب، فيه خزين، بط، فراخ، كتاكيت صغيرة، زرع فى أصص، لبلاب، ريحان، ثم السماء الفسيحة. كنا نسكن بيتًا مستقلاً، أو بالمعنى الدارج: بيت من بابه، ومن الممكن أن نطلق عليه «بيت رأسى» بالمعنى الحديث، كل طابق كان يحتوى على حجرة صغيرة وأخرى كبيرة، ثم أخيرًا السطح.. حيث نجد غرفة صيفية، كنا ننام فيها خلال أيام الحر، كان البيت يتكامل إلى أعلى، يعنى فى الطابق الأول غرفة الاستقبال، فى الطابق الثانى غرفة الطعام، وهكذا

ربما لصغر مساحة الأرض، كنا أيضًا نلعب فى الشارع، مع أطفال وبنات الجيران، كان البيت يقع فى مواجهة قسم الجمالية، يطل على ميدان بيت القاضى، لكننا كنا نتبع مشيخة درب قرمز.

ملحــوظـــة

«أزيل البيت الذى شهد مولد أديبنا الكبير، ومكانه الآن منزل حديث من ثلاثة طوابق، تحته مقهى، أما حارة درب قرمز فلا زالت كما هى، والقبو نفسه موجود، ويمتد تحت أحد المساجد الأثرية».

كانت الحارة فى ذلك الوقت عالمًا غريبًا، حيث تتمثل فيها جميع طبقات الشعب المصرى، تجد مثلا ربعًا، يسكنه ناس بسطاء، أذكر منهم عسكرى بوليس، موظفا صغيرا فى «كبانية» المياه، امرأة فقيرة تسرح بفجل أو لب، وزوجها ضرير، لهم حجرة فى الربع، وأمام الربع مباشرة تجد بيتًا صغيراً تسكنه امرأة من أوائل اللواتى تلقين التعليم وتوظفن، ثم تجد بيوت أعيان كبار، مثل بيت السكرى، بيت المهيلمى، بيت السيسى، وبيوتا قديمة أصحابها تجار، أو من أولئك الذين يعيشون على الوقف، كنت تجد أغنى فئات المجتمع، ثم الطبقة المتوسطة، ثم الفقراء. . أنا لا أدرى ما هو شكل الحارة الآن، ولعلك أنت تعرفه لأنك عشت فى المنطقة حتى السبعينات، كان الجميع يختلطون فى رمضان، كانت بيوت الأثرياء تفتح «المنادر» للفقراء، كان يمكن لأى شخص من أهل الحارة أن يدخل ويأكل حتى الغرباء، لقد شاهدت اندثار هذه التركيبة للحارة المصرية فى الثلاثينات، العائلات الثرية هاجرت إلى العباسية الغربية، أما العائلات المتوسطة

التى أنتمى إليها فقد رحلت إلى العباسية الشرقية، كانت هناك تكية أيضًا، وكان فيه ناس من العجم أو الأتراك كنا نراهم من بعيد، كان فيه معالم فى المنطقة علقت بذهنى، لعل أبرزها الفتوة، كان وجود الفتوات معترفًا به من الحكومة نفسها، كنا نستيقظ على الزفة فى بيت القاضى عندما تدب فيها المشاجرات، وفى ثورة ١٩١٩ لعبوا دوراً كبيراً. أنا «شفت» بعينى الفتوات وهم يكتسحون قسم الجمالية، ويحتلونه، قلت لك إنه كانت فوق السطح حجرة، كان لها نافذة تطل على الميدان، منها رأيت فى طفولتى كل المظاهرات التى مرت ببيت القاضى.

ملحوظة

القبو، التكية، الفتوة، الخلاء، من معالم الحارة الثابتة عند نجيب محفوظ، وعندما يحدثنا عن الأتراك أو العجم لعلنا نتذكر تلك الأناشيد الغامضة فى «الحرافيش» التى تنبعث من خلف أسوار التكية، وإذا كان نجيب محفوظ قد رأى فى طفولته المبكرة استيلاء الفتوات على قسم الجمالية والمظاهرات من خلال النافذة، فقد استعاد أديبنا بعض ما رأى فى «حكايات حارتنا»، ولنصغ إلى الحكاية الثانية عشرة..

«. . ماذا يحدث للدنيا؟

يجتاحها طوفان، يقلقها زلزال، تشتعل بأطرافها النيران، تتفجر بحناجرها الهتافات.

الميدان يكتظ بالآلاف، لم يقع ذلك من قبل، هديرهم يرج جدران حارتنا ويصم الآذان، إنهم يصرخون، وبقبضات أيديهم يهددون.

وأحملق فيما يجرى من فوق سور السطح، وأتساءل عما يحدث للدنيا..

وتتلاطم الأحاديث مشحونة بكهرباء الوجدان، وينهمر سيل من الألفاظ الجديدة، السحرية، سعد زغلول، مالطة، السلطان، الهلال والصليب، الوطن، الموت الزؤام.

الأعلام ترفرف فوق الدكاكين، صور سعد زغلول تلصق بالجدران. إمام المسجد يظهر فى شرفة المئذنة ويهتف ويخطب.

وأقول لنفسى إن ما يحدث غريب، ولكنه مثير ومسلٍّ شديد البهجة.

غير أننى أشهد مطاردة.

يندفع أناس داخل حارتنا، يرمون بالطوب، يتحصنون بالأركان.

يقتحم الحارة الفرسان بقبعاتهم العالية وشواربهم الغليظة. تنطلق أصوات حادة مخيفة تعقبها صرخات، أنزع من مكان المراقبة إلى الداخل فتطالعنى وجوه مذعورة وهمسات تقول:

- إنه الموت..

نرهف السمع وراء النوافذ المغلقة، لا شىء إلا أصوات متضاربة، وقع أقدام، صهيل خيل، أزيز رصاص، صرخة موجعة، هتاف غاضب. يتواصل ذلك دقائق فى الحارة ثم يسود الصمت.. ويتردد الهدير، ولكن هذه المرة من بعيد.. ثم يسود صمت مطلق.

وأقول لنفسى إن ما يحدث غريب ومزعج ومخيف. وأعرف بعض الشىء معانى الألفاظ الجديدة، سعد زغلول، مالطة، السلطان، الوطن، وأعرف بوضوح أكثر الفرسان البريطانيين والرصاص والموت، وتزورنا أم عبده فى غاية من الانفعال، تحكى حكايات عن الضحايا والأبطال، وتنعى إلينا علوة صبى الفران، وتؤكد أن جياد الفرسان حرنت أمام سور التكية، وألقت الفرسان عن متنها..

وأقول لنفسى إن ما يحدث حلم مثير لا يصدق..».

تنتهى الحكاية، ويواصل نجيب محفوظ التذكر..

التيه فى الزمن

من الشخصيات التى لا أنساها أيضًا النساء اللواتى كن يترددن على البيت ليقمن بإعداد الأحجبة، وأعمال السحر، كنت أرقبهن عندما يجئن إلى أمى، يجلسن معها، يتحدثن. من معالم طفولتى أيضًا، الكُتاب. كان النظام التعليمى وقتئذ يقضى بأن نذهب أولا إلى لكتاب، ثم نلتحق بالمرحلة الابتدائية، علمنا الشقاوة، ولكنه علمنا بادئ الدين، ومبادئ القراءة والكتابة، كان مختلطًا للجنسين، كان قر الكتاب فى حارة الكبابجى، بالقرب من درب قرمز، لا أدرى اذا يحوى الآن؟ ربما كنت تعرفه، ذهبت إليه فى الرابعة، لكن غريب أننى فى هذه السن المبكرة بدأت أرى أشياء أخرى خارج الحارة، تذكر أننى حدثتك من قبل عن غرام والدتى بالآثار، كثيرًا

ما ذهبنا إلى الأنتيكخانة، أو الأهرام، حيث أبو الهول، لا أدرى سر هوايتها تلك حتى الآن! ، كنا نخرج بمفردنا، وأحيانا مع الوالدة، تجرنى فى يدها، ونمضى إلى الأنتيكخانة، خاصة حجرة المومياءات، زرناها كثيراً، كانت أمى تتمتع بحرية نسبية، وبعكس ما تبدو عليه «أمينة» فى الثلاثية، التى لم يكن مسموحًا لها بالخروج إلا بإذن من أحمد عبد الجواد. تسألنى، من أين إذن استوحيت شخصية أحمد عبد الجواد؟

إننى أذكر هنا أسرة كانت تسكن فى مواجهتنا، كان البيت مغلقًا باستمرار، نوافذه لا تفتح أبدًا، ولا يخرج منه إلا صاحبه، رجل شامى اسمه الشيخ رضوان، مهيب الطلعة، وكانت أمى تصحبنى لزيارة هذه الأسرة، وكنت أرى زوجة الرجل غير المسموح بخروجها، كنا نزورها، ولكنها لا تزورنا، لأنه غير مسموح لها، وكانت ترجو والدتى أن تتردد عليها، كان لى أصدقاء كثيرون من الأطفال، وفيما بعد، عندما انتقلنا إلى العباسية، وكان عمرى اثنتى عشرة سنة، أصبحت على صلة ببعضهم، ثم اختفوا جميعًا عنى فى زحام الحياة، جميع أصدقاء طفولتى، فيما عدا واحد التقيت به منذ عشرين أو خمس وعشرين سنة فى ميدان الجيش أثناء توجهى إلى مقهى عرابى، كانت قد مضت سنوات عديدة، طويلة، ولم ير أحدنا صاحبه، لكننا تعرفنا إلى بعضنا، ثم اختفى، ولم أره بعد ذلك أبدًا، وهكذا ضاع أصدقاء طفولتى فى الزمن وزحام الحياة.

كانت والدتى تصحبنى معها دائمًا لأننى الوحيد، تصحبنى فى زياراتها إلى الأهل، والجيران، وهكذا رأيت كثيراً من مناطق

القاهرة: شبرا، العباسية. كثير من المناطق التى تقع فى قلب القاهرة الآن كانت حدائق وحقولاً . .

الوالـــد..

كان والدى يتحدث دائمًا فى البيت عن سعد زغلول، ومحمد فريد، ومصطفى كامل، ويتابع أخبارهم باهتمام كبير، كان إذ يذكر اسم أحد من هؤلاء فكأنما يتحدث عن مقدسات حقيقية، كان يتحدث عن أمور البيت مع أمور الوطن فى وحدة واحدة، كل حدث صغير فى حياتنا اليومية كان يقترن بأمر عام، فهذا الأمر وقع لأن سعدا قال كذا، أو لأن السراى، أو لأن الإنجليز. . ، كان والدى يتكلم عنهم بحماس وكأنه يتحدث عن خصوم شخصيين أو أصدقاء شخصيين، كان والدى موظفًا، وعندما وصل إلى السن الذى يستحق فيه المعاش استقال، كان موظفًا طبقًا لكادر قديم لا نعرف عنه الآن شيئًا، بعد استقالته عمل مع أحد أصحابه التجار، كان صديقه تاجراً كبيراً يسافر كثيراً إلى بورسعيد. . .

ملحـــوظـــة

نلاحظ هنا أن أحمد عبد الجواد فى الثلاثية سافر مرة واحدة خارج القاهرة، وكانت إلى بورسعيد بهدف تجارى، وخلال هذه الزيارة خالفت أمينة تعليماته بعدم الخروج، وأصابها ما أصابها.

كان البيت لا يوحى بأنه من الممكن أن يخرج منه أى إنسان له صلة

بالفن، الثقافة الوحيدة فى البيت ذات طابع دينى، وصلته بالحياة العامة ذات صبغة سياسية، كان والدى صديقًا للمويلحى، وقد أهداه نسخة من كتاب «حديث عيسى بن هشام» . . نسخة أذكرها جيداً . .

ملحـــوظـــة

يذكرنا نجيب محفوظ هنا ببعض ملامح الأب فى الثلاثية، ولكن هناك معالم أشد وضوحًا، خاصة فى «حكايات حارتنا». نجد ذلك فى الحكايات رقم «١٤»، و«١٥»، و«١٨»، و«١٩»، و«٢٣»، ولنستعد معًا الحكاية رقم «٢٣»..

. . ذات صباح تدهمنى اليقظة بعنف، أستيقظ مجذوبًا من عالم الغيب بقبضة مبهمة، يلفنى تيار من الطنين. أنصت فيقف شعر رأسى من ترقب الشر، أصوات بكاء تتسلل إلىّ من الصالة، تغرز أفكار السوء أسنانها فى لحمى، ويتخايل لعينى شبح الموت، أثب من الفراش مندفعًا نحو الباب المغلق، أتردد لحظة ثم أفتحه بشدة لأواجه المجهول . .

أرى أبى جالسًا، أمى مستندة إلى الكونصول، الخادمة واقفة عند الباب، الجميع يبكون . . وترانى أمى فتقبل علىّ وهى تقول :

ـ أفزعناك . . لا تنزعج يا بنى . .

أتساءل بريق جاف :

ـ مـــاذا؟

فتهمس فى أذنى بنبرة مختنقة :

ـ سعد زغلول . . البقية فى حياتك .

فأهتف من أعماقى :

ـ سـعد !

وأتراجع إلى حجرتى .

وتتجسد الكآبة فى كل منظر . . . » .

ما تبقى

« . . لا أذكر أبدًا أيًا من زملائى فى الكتاب ، أو فى المدرسة الابتدائية التى كانت مواجهة لمسجد الحسين ، التى يوجد فيها ساعة أثرية . من هذه المدرسة رأيت المظاهرات ، كانت المنطقة دامية ، يمكنك القول إن أكبر شيء هز الأمن الطفولى هو ثورة ١٩١٩ ، شفنا الإنجليز ، وسمعنا ضرب الرصاص ، وشفت الجثث والجرحى فى ميدان بيت القاضى ، شفت الهجوم على القسم ، كيف أنظر إلى طفولتى الآن؟

لقد انعكست حياتى فى الطفولة فى الثلاثية إلى حد ما ، وفى «حكايات حارتنا» بشكل أكبر ، كانت طفولة طبيعية ، لم أعرف الطلاق ، أو تعدد الزوجات ، أو اليتم ، طفولة طبيعية بمعنى أن الطفل نشأ بين والدين يعيشان حياة هادئة مستقرة ، لم يكن أبى سكيرًا ، أو مدمنًا للقمار ، لم يكن شديد القسوة ، مثل هذه الأمور لم يكن لها

وجود فى حياتى، حتى ما يكدر أخفى عنى، كان المناخ الذى نشأت فيه يوحى بمحبة الوالدين، ومحبة الأسرة، وكنت أقدس الوالدين والأسرة، كان الخيط الثقافى الوحيد فى الأسرة هو الدين. فى سنة ١٩٣٧ توفى والدى عن خمسة وستين عامًا، كنت أعيش مع والدتى فى العباسية، التى انتقلنا إليها منذ عام ١٩٢٤ تقريبًا، لكن المكان الذى بقيت مشدودًا إليه، أتطلع إليه دائمًا هو منطقة الجمالية...».

بين العباسية والحسين..

.. فارقت منطقة الجمالية إلى العباسية وعمرى اثنا عشر عامًا، وكان لانتقالنا إلى العباسية تأثير كبير على حياتى، ولم تكن العباسية التى انتقلت إليها فى تلك السن المبكرة تشبه العباسية الحالية. الآن، تقوم المبانى فى كل مكان، والشوارع تتقاطع وتتجاور، لكن عباسية زمنى القديم كانت تحوى الكثير من الخضرة، والقليل من المبانى، كانت البيوت صغيرة من طابق واحد، وكل بيت تحيطه حديقة، ثم تمتد الحقول حتى الأفق، كان والدى يصحبنى مع والدتى إلى منطقة حدائق القبة، فيما يلى كوبرى الحدائق، وهناك نركب تروللى صغيرا يمشى فوق قضبان، يوغل بنا فى الحدائق، كان السكون عميقًا، والمنطقة كبيرة جدًا لا تحوى إلا عددًا قليلاً من القصور، كل هذا راح، الحدائق اختفت، والمبانى ملأت المكان، لم تكن العباسية برغم ذلك منفصلة تمامًا عن الحى القديم. وجدت منطقة الحسينية، وعرابى الفتوة المشهور، نفس التقاليد، قلت إن انتقالى إلى العباسية أحدث نقلة كبيرة فى حياتى، الغريب أن أصدقائى، أصدقاء العباسية،

أصدقاء الصغر، استمرت علاقتى بهم حتى هذه اللحظة، باستثناء الذين انتقلوا إلى رحمة الله، حتى بعد أن فرق بيننا المكان، أحدهم إلى المعادى، وآخر إلى الهرم، لكننا، عندما نلتقى، حتى بعد انقطاع زمنى، فكأننا نستأنف لقاء لم ينقطع إلا بالأمس فقط، كان أصدقاء العباسية مجموعة متناقضة، فيها كل نوعيات البشرية، من أسماها إلى أدناها، فيهم ناس تقلدوا أكبر المناصب المهنية، أطباء ومهندسون ومحاسبون، ومنهم بلطجية، وبرمجية، ومنهم فتوات، والعلاقة بيننا كانت حميدة، حتى الشرير منهم كان يمارس شره بعيداً عنا، كانوا أكثر من مجموعة، لكننى كنت صديقًا للكل، كلهم شخصيات لا تنسى، ولم تهن العلاقات، حتى بالبعد، وهذا غريب!

ملحوظة لابد منها

.. استوحى أديبنا الكبير شخصيات عديدة من أصدقاء العباسية فى رواياته، ولكننى أشير إلى عمل واحد، كتب فيه عن بعضهم بشكل مباشر، أقصد «المرايا»، راجع الفصول الخاصة بجعفر خليل، خليل زكى، رضا حمادة، حنان مصطفى، زهران حسونة، سابا رمزى، سرور عبد الباقى، سيد شعير، شعراوى الفحام، صفاء الكاتب، طه عنان، عدلى بركات، عشماوى جلال، عصام الحملاوى، عيد منصور. ومنذ أواخر الستينات ترددت على أديبنا الكبير فى لقائه الأسبوعى بأصدقاء العباسية فى مساء كل خميس، فى مقهى عرابى القديم، وهناك كان مع أصدقاء الصبى يبدو منطلقًا، على سجيته، وقد تعرفت إلى معظم

أصدقاء العباسيـة، ثم توقف هذا اللقاء، والسبب أزمة المواصلات التى عاقت أديبنا عن الانتقال من شارع النيل حيث يسكن إلى العباسية..

شخصية غريبة

لم أنس الجمالية.

حنينى إليها ظل قويًا، دائمًا كنت أشعر بالرغبة فى العودة إلى الجمالية، إلى أصدقائى هناك، ما الذى يسَّر لى هذا وبانتظام؟ كان لنا صديق من شلة العباسية توقف عن الدراسة وانتقل للعمل مع والده فى دكان منيفاتورة بالغورية، كنا فى الإجازة، فى العطلة المدرسية، كانت أكثر من أربعة شهور، كان يقول لنا: لابد أن تجيئونى يوميًا، كنا عندئذ نقطع الطريق سيرًا على الأقدام، بدءًا من ميدان فاروق (ميدان الجيش حاليًا) ثم شارع الحسينية، ثم بوابة الفتوح، فشارع المعز، كان لابد أن نمشى حتى الغورية لأستمتع بالمنطقة، وعندما نصل إليه نبقى معه حتى يغلق الدكان، ثم نمضى إلى مكانين كان يفضل الجلوس فيهما، مقهى زقاق المدق، ومقهى الفيشاوى. عرفت زقاق المدق بفضل صاحبنا هذا، الحقيقة كان بينى وبين المنطقة والناس هناك، والآثار، علاقة غريبة، تثير عواطف حميمة، ومشاعر غامضة، لم يكن ممكنًا الراحة منها فيما بعد إلا بالكتابة عنها. أعود إلى صديقى هذا، لقد كان شخصًا مغامرًا، عمل مع والده، وعندما جاءت أزمة الثلاثينات هجر أباه، اختفى، راح يلتقط رزقه من الصعيد، كان جريئًا جدًا، أطلق لحيته، وقال إنه قادم من المدينة

المنورة، وباع التراب للناس على أنه تراب من قبر النبى، وكان يعالج الناس، وكانت له أحداث عديدة، فى إحدى المرات أحدث نزيفًا لرجل أثناء خلعه لضرسه، وهرب من البلدة، كان بائعًا جيدًا برغم ذلك، ثم تزوج، واستقر به الحال، كان بورمجى تمام. الحقيقة أنه هو الذى عرّفنا الطريق إلى أنحاء القاهرة، أين هو الآن؟ لا أدرى، كان إذا جاء إلى القاهرة يجىء إلىّ، يزورنى، كان يفاجئنى فى وزارة الأوقاف، ثم وزارة الثقافة، ثم يختفى. لا أدرى، هل يعيش الآن أم أنه انتقل إلى رحمة الله، لو أنه موجود فى القاهرة لزارنى بكل تأكيد، كان مغامرًا، أذكر أنه بعد أن هجر والده إثر أزمة الثلاثينات، ثم ضاق به الحال، أراد أن يرجع إلى والده، وسطنى، ذهبت إلى والده، كان جارًا لنا فى نفس الشارع، استقبلنى الرجل بحفاوة، وعندما ذكرت اسم ابنه، هب البيت كله فى وجهى، حتى أمه، لأنه تخلى عن العائلة فى ظرف حرج، صديقى هذا لم يكن يعرف مبادئ الوفاء والتعلق بالأسرة، قل إنه بلا مبادئ، قل إنه سابق لعصره، المهم أنه كان مغامرًا، شخصيته وتجاربه فتحت لى عوالم عديدة كتبت عنها العديد من المرات، وهى موزعة فى كثير من الروايات. . أما صديقى هذا، فلا أدرى أين هو الآن. .

نقطة انطلاقى

من أصدقاء العباسية الذين انتقلوا إلى رحمة الله، المرحوم فؤاد نويره، والمرحوم أحمد نويره، وهما من شلة العباسية، وهما أشقاء

الموسيقار عبد الحليم نويره. كانت صداقتى للكبير، أحمد، أما عبدالحليم نويرة فكان يتردد علينا من حين إلى آخر، كان أصغر إخوته، رحلا فى عمر مبكر، رحمهما الله. . كانت كل سهراتنا فى منطقة الحسين، كنت أتردد على المنطقة بافتتان لا حد له، وتبلغ سهراتنا أجمل لياليها فى رمضان، كنا نمضى إلى الحسين لنسمع الشيخ على محمود، ونقضى الليل كله حتى الصباح، كان ذلك أثناء دراستى، ثم أثناء وظيفتى، تعرف أننى لم أنقطع عن منطقة الحسين حتى أوائل السبعينات، عندما كنت ألتقى بك هناك، لكن تقدمى فى العمر، وازدياد أزمة المواصلات، تسببا فى عدم ترددى بانتظام، أضف إلى ذلك أن المكان نفسه تغير، الفيشاوى القديمة تهدمت، كان السهر فى الفيشاوى حتى الصباح من أمتع ساعات حياتى، وكانت الليالى تجمع شخصيات عديدة. إن عدم ترددى على الجمالية يحزننى جداً، أحيانًا يشكو الإنسان بعض جفاف فى النفس، تعرف هذه اللحظات التى تمر بالمؤلفين، عندما أمر فى الجمالية تنثال علىّ الخيالات. أغلب رواياتى كانت تدور فى عقلى كخواطر حية أثناء جلوسى فى هذه المنطقة، أثناء تدخينى النرجيلة، يخيل لى أنه لابد من الارتباط بمكان معين، أو شىء معين، يكون نقطة انطلاق للمشاعر والأحاسيس، خذ مثلا كُتابنا الذين عاشوا فى الريف، مثل محمد عبد الحليم عبد الله، أو عبد الرحمن الشرقاوى، ستجد أن الريف هو حجر الزاوية فى أعمالهم ومنبع أعمالهم، نعم. . لابد للأديب من شىء ما، يشع ويلهم. .

. . عدت إلى الجمالية كموظف، عندما عملت في مكتبة الغوري، وأشرفت على مشروع القرض الحسن، كان ذلك في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات، كنت أعمل في مكتب الوزير، وزير الأوقاف، وحدث أن تغيرت الوزارة، طلبوا مني أن أختار مكانًا مختلفًا لأعمل فيه، اخترت مكتبة الغوري في الأزهر، دهشوا طبعًا لأن هذا مكان لا يختاره موظف لبعده والإهمال الذي يحيط به، لكنني كنت أرمي إلى هدف آخر، لقد قضيت شهوراً من أمتع فترات حياتي في مكتبة الغوري، في هذه الفترة مثلا قرأت «مارسيل بروست»: «البحث عن الزمن الضائع»، وكنت أتردد بانتظام على مقهى الفيشاوي في النهار، حيث المقهى العريق شبه خال، أدخن النرجيلة، أفكر وأتأمل، كنت أمشي في الغورية أيضًا، لقد انعكست هذه المنطقة في أعمالي، حتى عندما انتقلت بعد ذلك إلى معالجة موضوعات ذات طبيعة فكرية، أو رمزية، عدت أيضًا إلى عالم الحارة، إن ما يحركني حقيقة عالم الحارة، هناك البعض يقع اختيارهم على مكان واقعي، أو خيالي، أو فترة ما من التاريخ، لكن عالمي الأثير هو الحارة، أصبحت الحارة خلفية لمعظم أعمالي، حتى أعيش في المنطقة التي أحبها، لماذا تدور الحرافيش في الحارة؟ كان من الممكن أن تجري الأحداث في منطقة أخرى، في مكان آخر له طبيعة مغايرة، إنما اختيار الحارة هنا لأنه عندما تكتب عملا روائيًا طويلا، فإنك تحرص على اختيار البيئة التي تحبها، التي ترتاح إليها، حتى تصبح «القعدة حلوة»، أما الخلاء الذي يظهر في عالم الحارة، فاستوحيته من العباسية، أثناء سكني في العباسية كثيراً ما كنت أخرج

إلى حدود الصحراء، إلى منطقة عيون الماء حيث كان الاحتفال يقام عادة بالمولد النبوى، هناك كنت أجد نفسى وحيداً، خاصة أن هذا الخلاء كان على حافته المقابر، كان خلاءً لا نهائيًا، فى العباسية عانيت أول حب حقيقى من نوعه، من قبل كنت أحس بالجمال فى الجمالية بقدر الأحاسيس التى تراود صبيًا فى الثامنة أو العاشرة، لكن العباسية عرفت أول حب لى من نوعه، كانت تجربة مجردة من العلاقات، نظرًا لفوارق السن، والطبقة، من هنا لم تعرف هذه العلاقة أى شكل من التواصل، وربما لو حدث ذلك لتجردت العاطفة من كثير مما أضفيته عليها، وسوف تبدو آثار هذه العلاقة فى تجربة كمال عبد الجواد فى الثلاثية وحبه لعايدة شداد، عرفت العباسية مرحًا، وصحبة لا تعوض، كنت ألعب الكرة مع الأصدقاء، وكنت لاعبًا جيداً. .

ملحوظة

والكلام هنا للدكتور أدهم رجب، الطبيب المشهور وأحد أصدقاء العباسية، يقول:

كان نجيب محفوظ لاعب كرة من طراز نادر، فى أيام صبانا فى العباسية كان محاوراً ومداوراً، ومناوراً كرويًا لو استمر لنافس على الأرجح حسين حجازى والتتش ومن بعدهما عبد الكريم صقر، وأقول الحق ـ وأنا أشهد للتاريخ ـ أننى لم أر فى حياتى حتى الآن وأنا مدمن للكرة فأنا شاهد عدل، أقول لم أر لاعبًا فى سرعة نجيب محفوظ فى الجرى، كان أشبه بالصاروخ المنطلق، وكان هذا يلائم الكرة فى عصر صبانا.. ففى شبابنا الباكر كان عقل اللاعب فى قدميه،

وكان اللاعب القدير هو اللاعب الفرد الذى ينطلق بالكرة كالسهم نحو الهدف لا يلوى على شىء..

المنبسط المنطوى

تسألنى عما إذا كنت انطوائيًا؟

ربما لأنك رأيتنى فى مرحلة مختلفة من العمر، ولكن الانطوائى نموذج مختلف تمامًا، كان أحد أفراد شلتنا منطويًا، يجلس صامتًا بمفرده، وكنا نتحلق أو ندور حوله، لنستشيره، «ننكشه»، لكنه لم يكن يستجيب لنا، إنما يغادرنا إلى البيت، هل أنا منطو؟ أنا طوال عمرى لم تَخْلُ فترة واحدة لى من أصدقاء، فى العباسية كُنت طوال النهار مع أصحابى، لكن فى نواح أخرى تجدنى مثلا لا أتبادل الزيارات مع الأقارب، إننى لا أندمج إلا مع الأصدقاء الذين أبقى معهم على سجيتى، ونقعد كما أقعد معك الآن. فى مقهى، فى الشارع، فوق الأرض، لكن إذا جئت تقول لى إن هناك اجتماعًا، أو عرسًا، أو. . لا أطيق ذلك، أى قعدة تقيدنى لا أطيقها، حتى الأفراح الخاصة بالأقارب لا أحضرها. . نعم. . نعم أنا أقوم بالواجب الاجتماعى، لكن فى حدود، الساعة الخامسة مثلا تجدنى معهم أثناء عقد القران، ثم أنصرف، لكن زيارة رسمية أو ما شابه ذلك، لا، أصدقائى لا يزورونني لسبب، إننى معهم طوال اليوم. مع الأصدقاء كنت أصبح على طبيعتى، إننى لا أطيق التكلف، لا أحتمله، لا أحب إلا الجلسة التى أصبح فيها مع أصدقائى وكأننى بمفردى، ولعلك تذكر جلساتنا فى مقهى عرابى مع الأصحاب القدامى.

المتكلم هو الدكتور أدهم رجب . .

كان نجيب محفوظ ـ ولا يزال ـ وفيًا ، ذلك النوع الأسطورى من الوفاء ، الذى لا تسمع عنه إلا فى القصص والروايات الخرافية . .

أصدقاؤه الأعزاء هم الذين عرفهم وعرفوه فى مطلع صباه فى العشرينات وأوائل الثلاثينات . .

وبعد ذلك فإن كل من صادفهم مجرد معارف وزملاء ، أعز أصدقائه كان مختار نويرة ، وفؤاد نويرة رحمهما الله ، وعبد الحى الألفى وكيل الوزارة بالمالية ، وكاتب هذه السطور ، وقريب آخر له مات ، كان يكتب رواياته الأولى على الآلة الكاتبة ، وقد نسيت اسمه . لم يكن نجيب محفوظ وفيًا للأشخاص فحسب ، بل للمعانى والعادات أيضًا ، فهناك برنامج ليوم الخميس لا يعدل عنه مهما كانت الأسباب : عند الظهر يغادر مكتبه ليتغدى مع والدته ، ومع أشقائه وشقيقاته ، ومنهم ناظر مدرستى السابق الأستاذ إبراهيم عبد العزيز ، ويقدره نجيب محفوظ إلى حد التقديس . وإذ ينتهى غداء نجيب محفوظ وأشقائه مع والدتهم ظهر الخميس ، كان يذهب فى الساعة السادسة إلى قهوة عرابى ليقابل أصدقاءه القدامى جدًا ، الشخصيين ، وفى الثامنة مساء يذهب إلى «الحرافيش» وهى شلة حديثة العهد ، أما شلة عرابى . . فهى شلة العمر كله !

بداية التكوين
والصراع بين الأدب والفلسفة

فى أحد الأيام رأيت أحد أصدقائى واسمه يحيى صقر يقرأ كتابًا، رواية بوليسية عنوانها «ابن جونسون»، ويحيى هذا قريب لعبد الكريم صقر لاعب الكرة المشهور، سألته:

ما هذا؟

قال إنه كتاب ممتع جدًا..

استعرته منه، قرأته واستمتعت به للغاية، كان ذلك ونحن طلبة فى السنة الثالثة الابتدائية، بحثت عن روايات أخرى من نفس السلسلة، ثم تساءلت: إذا كان هذا ابن جونسون فأين جونسون نفسه؟ بحثت ووجدت سلسلة أخرى من الروايات بطلها الأب، كانت هذه أول روايات قرأتها فى حياتى، كان عمرى حوالى عشر سنوات، وكما قلت لك لم يكن هناك مناخ ثقافى فى العائلة، والكتاب الأدبى الوحيد الذى رأيته مع أبى «حديث عيسى بن هشام» لأن مؤلفه المويلحى كان صديقًا للوالد، كنت أقرأ روايات جونسون على أنها حقائق، ولهذا كنت أكاد أبكى، أو أضحك تبعًا لتغير

المواقف. من رواية إلى رواية، من بوليسية إلى تاريخية، سارت قراءاتى، وبدأت التأليف وأنا طالب فى المرحلة الابتدائية. ولكنه تأليف من نوع غريب، كنت أقرأ الرواية وأعيد كتابتها مرة أخرى، بنفس الشخصيات مع تعديلات بسيطة، ثم أكتب على غلاف الكشكول، تأليف: نجيب محفوظ، وأختار اسمًا لناشر وهمى، أعدت كتابة روايات لسير ريدر هجارد، لتشارلس جارفس، كان التأليف دائمًا فى الإجازات، هكذا بدأت كتابتى للرواية، طبعًا مع ملاحظة الإضافات التى أضيفها من حياتى، من علاقاتى وخناقاتى مع الأصدقاء. وبدأت بعد ذلك التنقل فى القراءة، حتى وصلت إلى المنفلوطى، ثم المجددين، قرأت أيضًا للمفكرين، وكان المفكرون هم الذين يحظون بالاحترام فى هذه الفترة، طه حسين، العقاد، وغيرهما، أما الأدب فقد اعتبرته هواية جانبية، كان الاحترام للفكر، للمقالات، للنقد، للعرض، وليس للقصة، وهذا أثار تساؤلاتى الفلسفية، كان العقاد يثير تساؤلات حول أصل الوجود، علم الجمال، من هنا جاء توجهى إلى الفلسفة، كان الجانب المحترم فى الحياة الأدبية هو المقال، أما القصة فغير محترمة، ولهذا كنت لا أفكر فى التفرغ للأدب، للقصة، كما أننى كنت متفوقًا فى الرياضة والعلوم.

سر الوجود

كان اتجاهى معروفًا، إما إلى الهندسة، أو الطب، لهذا عندما فكرت فى الفلسفة انزعج والدى انزعاجًا شديداً، كذلك انزعج

المدرسون، لأننى كنت ضعيفًا فى المواد الأدبية، أحد أساتذتى واسمه بشارة باغوص ـ الله يرحمه ـ سألنى مستنكرًا:

لماذا تؤذى نفسك. . ماذا تفعله بنفسك؟

كان المدرسون يعرفون طلبتهم وقتئذ معرفة وثيقة، لأن الفصل لم يكن يضم إلا خمسة عشر، أو ستة عشر، كان المدرسون يراهنون على الطلبة، ويفخرون بالطالب الذى ينبغ. فى البداية لم أكن أفكر إلا فى الوظيفة من خلال الكرة، بمعنى أن أحصل على وظيفة تمكننى من البقاء فى القاهرة لأواصل لعب كرة القدم، وبعد أن تركت الكرة بدأت أفكر فى أن أصير طبيبًا، أو مهندسًا، لأننى قوى فى الرياضة والعلوم، هذا هو السبب الوحيد، لكننى بعد أن بدأت أقرأ المقالات الفلسفية للعقاد ولإسماعيل مظهر، وغيرهما، وبدأت قراءاتى تتعمق، تحركت فى أعماقى الأسئلة الفلسفية، وجدت أن هذه هى همومى، وخيل لى أننى بدراستى للفلسفة سأجد الأجوبة الصحيحة، ألا يصبح الدارس للطب طبيبًا، والدارس للهندسة مهندسًا؟ إذن فدراستى للفلسفة سوف تجيب على الأسئلة التى تعذبنى. خيل لى أننى سأعرف سر الوجود، ومصير الإنسان، يعنى بعد تخرجى، سأتخرج ومعى سر الوجود، وكنت أدهش، كيف يتجاهل الناس سر الوجود فى قسم الفلسفة ويدرسون الطب أو الهندسة، بالطبع والدى صدم، وعندما قوبل بإصرارى، قال لى: ادخل الحقوق مثل ابن عمك، وابن عمتك، لتتخرج قاضيًا، أو مستشارًا، لكن أى مستشار، أى قاض؟ إننى أريد سر الوجود؟ هل أنت منتبه إلى سذاجة الفكرة؟ كما تتعلم الطب، ستتعلم سر الوجود. . .

الأدب والفلسفة

. . . مشيت فى حياتى بدون مرشد، وكان أفراد عائلتنا من أصحاب المهن، طبيب، مهندس، قاض، لم يكن أحدهم يهتم بالأدب، من كان سيدلنى؟ ولم يكن السؤال ممكنا، إلى من أتجه؟ إلى العقاد مثلا؟ هنا يبدو جانب انطوائى، لقد عشت أقرأ للعقاد ولم أره، طه حسين لم ألتق به أبدًا إلا عندما دعانا المرحوم يوسف السباعى لمقابلته فى نادى القصة. كنت أعتقد أن الأدب نشاط سرى، نشاط أسلى نفسى به، حتى استفحل الأمر كالداء، وحتى بدأ الصراع بعد حصولى على الليسانس. الصراع بين الفلسفة والأدب، وفى السنة الأخيرة لدراستى أدركت ميلى الحاد إلى الأدب، أردت التخصص فى الأدب إلى جانب الفلسفة، ولكن المرحوم عباس محمود أخبرنى أن هذا مستحيل لمخالفته النظم المعمول بها وقتئذ، أثناء إعدادى لرسالة الماجستير وقعت فريسة لصراع حاد، كل ليلة أتساءل: فلسفة أو أدب؟ كان صراعا حادا من الممكن أن تكون له عواقب خطيرة، استمر ذلك حتى سنة ١٩٣٦، حسمت الحيرة المعذبة لمصلحة الأدب، وهنا شعرت براحة عميقة، راحة لا مثيل لها، ولكن ظهرت أمامى صعوبة من نوع جديد. .

الأدب

كيف تشمل ثقافتى كل ما فاتنى؟

الوقت محدود، عملت موظفًا، وكان أمامى الكثير، لهذا بعد

تخـرجى والتحـاقى بالوظيفـة اسـتمررت أعمـل فى البيت وكأننى
لا أزال طالبا، وهذا جعل والدى مهموما بى، كان يقول لى: كأنك
لم تتخـرج، أراك جـالسـا إلى المكتب ليـلا ونهـارا، أقـول لـك هل
ستحصل على الدكتوراه، تقول لى «لا». . إذن لماذا ترهق نفسك؟
كـان هم والدى لأننى أعمل وقتا طويلا، كـان إحساسى أن الزمن
محدود، وفى نفس الوقت أريد أن أقرأ فى الأدب، فى العلم، فى
التاريخ، أريد أن أستمع إلى الموسيقى، وفى نفس الوقت أكتب،
أكتب بجدية، فى السنوات التى سبقت ذلك كنت أكتب المقال فى
العديد من المجلات، كنت أيضًا أكتب القصص القصيرة، ولكننى
كنت أنشر فى مجلات مجهولة، أقصد القصص، يعنى أجد مجلة
محدودة، تعيش على الإعلانات، أبادر بإرسال قصة لها، ولذلك
كان من أهم أيام حياتى يوم أن نشرت لى قصة فى مجلة «الرواية»،
ربما أقـول إنه أهم من يوم حصـولى على جائزة الدولة التقـديرية،
كذلك يوم نشـرت فى «المجلة الجديدة» لسلامة موسى، لقد نشرت
عددًا كبيرًا من القصص، لا أذكر عدده، كما أننى لا أذكر أول قصة
نشرت لى، ربما كان الدارسون المهتمون بالببلوجرافيا أقدر منى على
الحصر، إن الذى اختـار مجموعـة «همس الجنون» هو المرحـوم
عبدالحميد جودة السحار، لم أكن أريد أن أنشر هذه المجموعة، كنت
نشرت قبلها الروايات التاريخية الثلاث، والقاهرة الجديدة، وزقاق
المدق، وجاء ليقول لى: لماذا لا تصدر مجموعة قصصية؟ قلت له:
«أى مجموعة الآن. . لقد فات أوانها»، أنا لم أكتب القصة القصيرة
بهدف كتابة القصة القصيرة، أنا كتبت روايات، ودرت بها على
الناشرين الذين رفضوا نشرها، ولأننى كنت أريد أن أنشر فقد كتبت

القصة القصيرة، نعم هذا هو الدافع إلى كتابة القصة القصيرة، وهنا لاحظ شيئا هاما، وهو أننى أخذت موضوعات بعض هذه القصص من روايات. بعض الناس قالوا إن قصصى القصيرة تحولت إلى روايات، لكن العكس هو الصحيح، السحار أصر على إصدار مجموعة قصصية، أعطيته عدداً هائلا من المجلات، مجلات لا أذكر عناوينها، ولكنه عندما لاحظ أننى مستاء، قال: «إذن نكتب تاريخ كتابة القصص الحقيقى. متى طلب منك الزيات أن يصدر لك مجموعة قصصية»؟ قلت: عام ١٩٣٨ . قال السحار: «إذن اعتبر هذه المجموعة أول كتبك، ستكتب عليها ١٩٣٨»، ولهذا قد لا يدرى القارئ أن «همس الجنون» نشرت لأول مرة بعد ظهور زقاق المدق، وليس فى عام ١٩٣٨ كما هو مكتوب فى قائمة مؤلفاتى التى تجدها فى كل كتاب. كنت أخشى أن يحدث نشرها صدمة كبيرة، لكن السحار هو الذى أصر، وهو الذى اختار، وهو الذى طبع. كان المرحوم السحار من شلة العباسية، ولكنه حديث نسبيا، وكان قد أنشأ لجنة النشر للجامعيين ونشرت لنا، غير أن أول كتاب نشر لى لم يكن له علاقة بالأدب، كنت طالبا بالثانوى عندما شرعت فى ترجمة كتاب «مصر القديمة» لجيمس بيكى، وذلك بهدف تقوية نفسى فى اللغة، ثم أرسلته إلى المرحوم سلامة موسى لنشره كمقالات، وفوجئت فى أحد الأيام بأحد الأشخاص يطرق الباب ويسلمنى نسخة من الكتاب مطبوعة، كان سلامة موسى قد طبعه كهدية إلى القراء كبديل عن شهرين تتوقف فيهما مجلة «المجلة الجديدة» التى كان يصدرها. لم أصحح الكتاب، ويذكرنى ذلك بواقعة طريفة، فعندما تقرر طبع «عبث الأقدار» طلب منى أن أصححها، كنت أقرأ وأشطب الكلمة

وأكتب التصحيح فوقها بدلا من كتابته فى الهامش كما هو متبع. ولهذا عندما نظر عمال المطبعة إلى الهوامش وجدوها نظيفة، فطبعت الرواية بأخطائها المطبعية. عرفت فى هذه السنوات سلامة موسى، لكننى لم أرتبط بعلاقة وثيقة به. كنت أرسل له مقالات لنشرها، وطلبنى لمقابلته، وعندما ذهبت إليه صدم؛ إذ وجدنى تلميذاً بالجامعة، لهذا أصبح نشر المقالات أقل وأصعب، فيما تلا ذلك اللقاء يبدو أنه كان يظننى خريجا، أو رجلا كبيرا، لقد نشرت العديد من المقالات، كان معظمها مجرد تعريف بموضوعات فلسفية، أو تلخيص لبعض ما كنا ندرسه فى الجامعة، ولهذا رفضت تماما أن أجمعها فى كتاب، لقد ألح علىَّ صديقى الدكتور محمد يوسف نجم لإعادة نشرها فى كتاب، بالطبع مثل هذا الكتاب سيوزع جيدا، لكن القارئ لن يجد فيه جديدا. خاصة أن كتابًا كبارا ظهروا فى مجال الفلسفة فيما بعد، وأضافوا إليه. لقد انتهت مرحلة كتابتى للمقالة الفلسفية بعد حسم الصراع بين الفلسفة والأدب بعد تخرجى من الجامعة، وهنا أود أن أحدثك بشكل أكثر تفصيلا عن المرحلة التى تلت ذلك..

التكوين.. والكتابات الأولى

. . بعد حسمي للصراع بين الفلسفة والأدب، وجدت نفسي في مواجهة مشكلة كبرى، كان عمري وقتئذ خمسًا وعشرين سنة، وعليَّ أن أضع نظامًا لدراسة الأدب، والاستمرار في الاطلاع على الجوانب المختلفة للثقافة العامة، ماذا أفعل؟ هل أبدأ من الأدب الإغريقي وأستمر في القراءة؟ هل أتابع العصر الحديث، وأعود من حين لآخر إلى أدب العصور القديمة؟ كان اطلاعي على الأدب الحديث له أولوية، فبدأت منه، كنت بلا مرشد، طبعا وجدت صعوبة، ولم يكن هناك حركة ترجمة واسعة، لهذا قرأت الأعمال العالمية في اللغة الإنجليزية، كان الحصول على أحدث المؤلفات الإنجليزية في هذا الوقت أسهل بكثير من وقتنا هذا الآن، كنت تجد كافة ما تريده من كتب، والكتاب غير المتوفر تطلبه فيصلك بعد أسبوع على الأكثر، كنت أقوم بجولة أسبوعية على المكتبات في وسط المدينة، ولا زلت أقوم بنفس الجولة صباح يوم الجمعة، لكن الملاحظ أن الكتب المعروضة الآن فقيرة جدًا في تنوعها، وحداثتها، بالنسبة للمعروض في الثلاثينات، والأربعينات. أذكر خلال الحرب الثانية أن أحد أصحاب المكتبات عرض عليَّ أن يشتري مني ما جمعته من كتب بنفس الثمن الذي دفعته، لكنني رفضت، ساعدني في منهجية

القراءة كتاب فى تاريخ الأدب يستعرض تاريخه حتى سنة ١٩٣٠ ، وأذكر أن اسمه «درنك ووتر» ، ساعدنى هذا الكتاب فى اختيار قراءاتى الأدبية ، ولأننى بدأت متأخرا ، لم أدرس أى أديب دراسة متكاملة ، كان الكتاب يرشدنى إلى الأعمال المتميزة لكل كاتب ، قرأت «الحرب والسلام» لتولستوى ، و«الجريمة والعقاب» لدستويفسكى ، قرأت فى القصة القصيرة لتشيكوف ، وموباسان ، فى نفس الوقت قرأت لكافكا ، وبروست ، وجويس ، أحببت شكسبير ، أحببت سخريته ، وفخامته ، ونشأت بينى وبينه صداقة حميمة وكأنه صديق ، كذلك أحببت يوجين يونيل ، وإبسن ، وسترندبرج ، وعشقت «موبى ديك» لميلفيل ، أعجبنى «دوس باسوس» ، ولم يعجبنى همنجواى ، كنت فى دهشة من الضجة الكبيرة المحيطة به ، أحببت من أعماله «العجوز والبحر» ، وجدت فولكنر معقداً أكثر من اللازم ، وأعجبت بجوزيف كونراد ، وشولوخوف ، وحافظ الشيرازى ، وطاغور ، وهنا تلاحظ أننى لم أتأثر بكاتب واحد ، بل أسهم هؤلاء كلهم فى تكوينى الأدبى ، وعندما كتبت لم أكن أقع تحت تأثير أحدهم ، ولم تبهرنى الإنجازات التكتيكية الحديثة ، تخيل لو أننى كنت تأثرت بجويس وحاولت أن أنهج نهجه فى تيار الوعى ، لقد قرأت يوليسيس فى أواسط الثلاثينات . . لكننى عندما بدأت الكتابة كنت أطرح هذا كله ، وأنهج منهجا واقعيا . .

الواقعيـــة..

. . كنت أكتب طبقا للمنهج الواقعى ، فى نفس الوقت الذى كنت

أقرأ أعنف الهجوم على الواقعية، كان الأدب العالمى الحديث قد تعرض للواقع عبر مئات الأعمال، ثم انكفأ إلى الداخل، إلى تيارات الوعى، واللاوعى، وما وراء الواقع، لكن بالنسبة لى وللواقع الذى أعبر عنه لم يكن قد عولج معالجة واقعية بعد حتى أقدم على استخدام الأساليب الأدبية الحديثة التى كنت أقرأ عنها وقتئذ، كيف أغوص إلى واقع لم يوصف فى ظاهرة، ولم ترصد علاقاته؟ فى «خان الخليلى» ناس أحياء، يعيشون ويتألمون، ويترددون على المقاهى، الغوص إلى الداخل يبدو منطقيا مع بطل جويس لأنه منطو ومغلق، المهم أن يدرك الكاتب الأسلوب المناسب للتعبير عن موضوعه وعن نفسه، كنت بلا مرشد، وبلا دليل، وكنت أكتب وفق منهج أقرأ السخرية منه، أقرأ نعيه، لكننى الآن أعتقد أن إدراكى كان سليما، وكان مما يزيد الأمر صعوبة أننا نفتقد التراث الروائى فى الأدب العربى.

التـــــراث

. . كنت أقرأ الكتاب المصريين المعاصرين، لكننى كنت أعرف أن القصة أو الرواية بالنسبة لهم على هامش حياتهم، «عودة الروح» أعجبتنى كعمل أدبى، ولكننى وجدت أنها أقرب إلى المسرح منها إلى الرواية . .

لا . . لم يكن هناك تراث روائى يمكن أن أرتكز عليه . .

كان أصحاب الروايات نفسها لا يعترفون بها، الدكتور طه حسين يكتب رواية فى الصيف، لكن من طه حسين؟ إنه المفكر. العقاد

يكتب سارة، لكن من هو العقاد؟ إنه المفكر، بل إن العقاد كان يحتقر القصة والرواية. إذا كان هؤلاء بأنفسهم يحتقرون الرواية، فكيف ستلتفت إليها من خلالهم؟

كنت أعمل في أرض شبه خالية، وعليّ أن أكتشف بنفسي وأمهد أيضا..

من روافد قراءاتي الهامة: التراث العربي، وقد عرفته في سن مبكرة، عندما درست في المرحلة الثانوية بعض عيون التراث العربي، مثل الكامل للمبرد، والأمالي لأبي على القالي، وكان ذلك بفضل مدرسي اللغة العربية المعممين، وظهر أثر ذلك في موضوعات الإنشاء، كان مدرس اللغة العربية اسمه الشيخ عبد الهادي، يقرأ موضوعاتي في الإنشاء ويشيد بالألفاظ العربية القديمة «.. شوفوا الأسلوب، شوفوا الكلام اللي ما حدش يقدر يفهمه».. وقرأت الشعر العربي القديم، لكنني يجب أن أعترف أنني لم أقرأ التراث بانتظام..

التـــاريخ

بعد أن حسمت الصراع بين الأدب والفلسفة، كنت أفكر فيما يجب أن أكتبه، وفي هذا الزمن كانت الوطنية متأججة، والدعوى إلى إعادة الأمجاد الفرعونية، كنت قرأت في تاريخ مصر، وكانت هناك كتب قيمة في هذا الوقت، قررت أن أكرس حياتي لكتابة تاريخ مصر بشكل روائي، واستخرجت حوالي خمسة وثلاثين أو أربعين

موضوعًا، حتى أن الشيخ مصطفى عبد الرازق قال لى «هذا يشبه ما فعله جرجى زيدان». هذا ما كنت قد خططت له. لكن هذه الرغبة، أو هذا الدافع مات بعد رواية «كفاح طيبة»، ماتت الرغبة كما حدث فيما بعد إثر انتهائى من كتابة الثلاثية، مات التاريخ، ما الذى أحياه، ما السبب فى موته؟ لا أدرى، استوحيت رواية «رادوبيس» ورواية «عبث الأقدار» من أسطورتين، أما «كفاح طيبة» فكانت انعكاسا للظروف التى تمر بها مصر وقتئذ، لهذا تجد الجوانب التاريخية عندى ضعيفة، وعندما تقرر منحى جائزة عن رواية «رادوبيس» كلمنى فى التليفون أحمد أمين، قال لى: أريد أن أسألك سؤالا، لماذا وضعت عجلات حربية فى رادوبيس؟ قلت: أعرف أن العجلات الحربية دخلت مع الهكسوس، ولكننى أردت استخدام الخيال، وأنا أعرف ما أقوم به..

لقد كان هناك مد فرعونى، وهو مد كانت له مبرراته الموضوعية، إذ إن العصر الفرعونى هو المرحلة المضيئة الوحيدة فى مواجهة الواقع المر الذى كنا نعيشه، كانت كفاح طيبة ضد المحتل الإنجليزى، والحاكم التركى القابع فى السراى، كنت أغلى ضد الإنجليز، وضد الأتراك، كنت قد درست تاريخ مصر الفرعونية دراسة كاملة، توشك أن تكون دراسة متخصص، وعزمت على كتابة هذا التاريخ فى روايات، كان من الموضوعات التى اخترتها، موضوعات عن الرعامسة والتحامسة، وكان لدىَّ موضوع مهم عن أخناتون، كنت أواظب على حضور محاضرات قسم الآثار، درست كل ما يتعلق بالعصر الفرعونى، الحياة اليومية، وسائل الحرب، الدين، كيف ألقيت بهذا المجهود الكبير بعد كفاح طيبة، وأكتب «القاهرة

الجـديدة»؟ ربمـا لأن التـاريخ أصبـح عـاجـزا عن أن يمكّنني من قـول ما أريده. ربما كنت أريد الدخـول مبـاشـرة فى مـعـالجـة الموضـوعـات الاجتماعية، قد يكون هذا كله صحيحا، لم أعد إلى التاريخ فيما بعد، بل إننى اعتبرت الجهد الذى بذلته فى دراسة التاريخ جهداً ضائعًا لأننى لم أرجع إليه فيما بعد، لم أستفد منه، وإن كان قد ترك أثراً فى تكوينى، قد لا أعيه، ولكنه حقيقى، الآن تبدو عودتى إلى التـاريخ صعبـة، لكن من يدرى، قد أعـود إلى التـاريخ يومًا فكثيراً ما يستعصى علينا حاضرنا. .

العـــلم

إننى شغوف بقراءة العلم.

قراءة هذه الكتب التى تلخص نظريات العلم وتبسطها للناس، بل أقـول إن قـراءة العلم أهـم عندى أحـيـانًا من الأدب، إن الأدب يمنح المتعة والشكل وخبرة بالحياة، لكن بالنسبة للثقافة العامة تجدها فى الفلسفـة والعلم، ولاحظ أن القـراءة فى العلم تخـتلف عن الإيمان بالعلم، إننى أؤمن بالعلم، ويرجع الفـضل فى ذلك إلى المفكرين والكتاب الذين بشروا بالعلم، ومنهم سلامة موسى الذى نبهنا إلى دور العلم فى الحضارة الحديثة. ولو أن النظرة الآن إلى العلم تختلف عن النظرة إليه فى القرن التاسع عشر، لاشك أنه نزل عن كبريائه إذا صح القول مع أن إنجازاته تعاظمت.

* * *

* إننى أقـرأ فى العلم إلى جـانب الأدب والفن، لهـذا تجدنى أقـرأ أكثر من كتاب فى وقت واحد، لدىَّ نهم حاد إلى القراءة لم يحد منه إلا مـرض السكر الذى حـد من نشـاطى فى العـام الأخـيـر عندمـا اضطررت نتيجة لأوامر الأطباء إلى العمل ساعة والراحة ساعة، ولأننى بدأت دراسة الأدب فى سن متأخرة، لهـذا لم أعـاود قـراءة عمــل أدبى مرتين، كانت الرقعـة واسعة جـدا، ونهمى إلى الجديد لا يسمح بقراءة عمل مرتين. وإلا . . كان فيه أعمال عزيزة جداً على نفسى كان يجب أن أقرأها مرتين، مثل «الحرب والسلام» لتولستوى، و«البحث عن الزمن الضائع»، ولو أنه بتقدم العمر فترت الرغبة فى الاطلاع على الأدب، اليوم إذا كان أمـامى كتـاب فكرى يبـحث عن الحضارة أو العلم يصبح أكثر جاذبية لى من رواية أو مسرحية، ربما لأن النصف الثانى من القرن العشرين لم يشهد شوامخ أدبية تناطح القمم الأدبية. بخلاف زمان، يعنى عندما تقرأ مثلاً الجبل السحرى لتوماس مان، تجد متعة فنية وفكرية، لا يوجد مستوى كهذا الآن، فى هذه السنة قرأت رواية «مائة سنة من العزلة» لجارسيا ماركيز، لولا أنك أعرتها لى وذكيتها لى لما كنت قرأتها، يعنى لو وجدتها فى مكتبة مدبولى ربما كنت لن أشتريها، إن الجديد القادم من أوروبا لا يشجع، ولاحظ أن ماركـيز من كـولمبيـا . . أمريكا اللاتينية. إننى أتابع إنتاج الشبان بدقة، هذا صحيح، ولكن هذا أمر مختلف، هنا إحساس بالواجب والرغبة فى معرفة تطور أدبنا، لهذا تجدنى أقرأ ما يصلنى لأعـرف كيف يكتب الشبـان، أعرف أن هناك رؤية جديدة، تطورا جديدا، ما يصلنى من أدب عربى معاصر أقرأه أيضًا، فى الماضى كان

الإبداع العربى خارج مصر محدودًا جدًا وكان فى أغلبه أدبًا فكريًا، قرأت معظم ما أتيح لى الاطلاع عليه، تصور أن ذلك كان أسهل فى الثلاثينات، كنت تجد فى المكتبة التجارية كتبًا لمؤلفين عراقيين، أو سوريين، أو مغاربة، الآن. . لا، ليس لدينا سوق مشتركة للكتب وهذا مؤسف، معظم اطلاعى على أدب البلاد العربية كان بواسطة أصدقاء، كأن يجىء صديق مسافر ويعطينى كتابًا، أو مؤلف يرسل لى كتابه، لكن السوق شحيح . .

العقــــلانية...

. . لاشك أن قراءتى للفلسفة كان لها تأثير كبير فيما بعد، أشعر بهذا بشكل شخصى، بعض النقاد يقولون إن الرؤية الفكرية واضحة فى أعمالى، فيها عقلانية، طبعا تعرف أن الأدب الأوروبى فى القرن العشرين غلب عليه الطابع الفكرى، لم نصل نحن إلى ذلك فى تقديرى حتى الآن، إنما لا يخلو أدبنا من فكر، ولكن لا يقارن بأدب سارتر، أو كامى، كان الأدب فى القرن التاسع عشر يعكس الواقع بشكل فنى، الحياة بكل دوافعها، عواطفها وانفعالاتها، كذلك المتعة فى القصص، والحكاية، تغير ذلك فى القرن العشرين. هناك روايات تبدو وكأنها كتب فكرية، غلب الطابع الفكرى على الخلق . .

العبــــث

لا . . بالتأكيد، أنا لست عبثيا . . . هل تعرف ماذا يعنى العبث؟ .

إنه يعنى باختصار، أن الحياة لا معنى لها، والحياة بالنسبة لى لها معنى وهدف . . إن تجربتى الأدبية كلها مقاومة للعبث، ربما كنت أشعر بدبيب عبث، لكننى أقاومه، أعقلنه، أحاول تفسيره، ثم إخضاعه، بعض أبطال الحرافيش يبدون وكأن حياتهم ضاعت عبثا، لكن فى إطار العائلة الكبيرة لم تكن عبثا .

لا يا عزيزى جمال . . أنا لست عبثيا، إن أكمل شكل للعبث تجده عند بيكيت، تلك هى النظرة العبثية الحقيقية، إنها فقدان الإيمان بأى شىء، ليس الإيمان بالدين فقط، ولكن أى إيمان من أى نوع، أحيانا يزحف الشعور بالعبث خاصة فى لحظات اليأس والضيق، الحياة من حولنا تبدو قاسية، حياتنا الشخصية فى واقعنا المحلى تبدو أحيانا عبثية، بالضبط . . عبث اجتماعى كما تقول، لا معقول واقعى، لا يضيع العبث إلا انتصار من نوع معين يرد الثقة إلى النفس، إننا نعيش حتى الآن إحباطات داخلية مستمرة منذ أن وعينا، مجرد أن نتنفس نجد من يجثم على أنفاسنا ليكتمها ويفسد حياتنا . وهذا فظيع، لذلك لن تجد نغمة الانتصار الأولى التى كانت فى جيل ثورة ١٩١٩، نفس هذا الجيل وصلت إليه الإحباطات، لكنه تذوق الانتصار، بدأنا نعى وهذا الجيل يتحطم، نعم . . يتحطم، أنا بدأت أقرأ الصحف فى سنة ١٩٢٦، كان عمرى أربع عشرة سنة، كانت الثورة قد هدأت، وبدأت التنازلات، ثم الإحباطات، ثم القمع، واستمر ذلك، أتيح لنا التنفس بعد ١٩٥٢، ولكن سرعان ما انتكس الوضع، وهكذا، على أية حال أعترف لك بأننى سقطت فى العبث لدقائق بعد هزيمة يونيو، صحيح أن المقاومة بدأت، لكن كان الواقع يبدو عبثيا، فظيعا . .

اللغـــة

لم يكن نهمى إلى القراءة فقط، ولكننى كنت أحب اقتناء الكتب أيضا، فيما عدا كتب التاريخ النادرة التى كانت فى دار الكتب، أو مكتبة الجامعة التى كانت أغنى من دار الكتب. قرأت معظم الأعمال العالمية فى اللغة الإنجليزية، وقرأت بالفرنسية أيضا، ولكن بالإنجليزية أكثر، لم يكن ممكنا بالنسبة لى قراءة بروست فى الفرنسية، قرأته بالإنجليزية، لكننى قرأت أناتول فرانس فى الفرنسية، أصعب شىء قراءة عمل أدبى فى لغته الأصلية لأن الأسلوب الأدبى منمق، وأحيانًا يكون صعبا، قراءة كتاب علمى أسهل، لأن الأسلوب واضح.

المكتبـــة

. . مكتبتى الآن موزعة إلى قسمين. .

البيت القديم فى العباسية، حيث يقيم ابن شقيقتى المهندس محمود الكردى، وبيتى فى شارع النيل، السبب ضيق المكان، بعد زواجى نقلت إلى البيت الكتب الأساسية، ولأن المكان ضيق، والشراء مستمر، أصبحت أمتلك خزانة كتب وليست مكتبة، تصور أننى عندما أريد الرجوع إلى كتاب معين فى مكتبتى لا أبحث عنه، الأسهل بالنسبة لى أن أشتريه من جديد، أصبح البحث صعبًا لتكدس الكتب، لدىّ عدد هائل من الروايات، والكتب العلمية، وفى مختلف المجالات، ومجموعة نادرة من كتب الفن، مثلا مؤلفات

هربرت ريد، فى كل كتاب خمسون أو ستون لوحة، لا تقدر بثمن الآن . . .

نعم . . نعم، كنت من الذين اشتروا نسخة من دائرة المعارف البريطانية عندما استوردتها دار المعارف لأول مرة، اقتنيتها لأنها مرجع فى أى مجال قد أحتاج إليه، وأحيانا، بعد تعذر وصول الكتب الأجنبية الجديدة أقرأ فى دائرة المعارف، خاصة عندما أفتقد شيئًا جيداً . .

كنت فى حالة قراءة مستمرة، ثلاث ساعات يوميا، أقرأ بعد أن أكتب لأننى لو فعلت العكس لما استطعت النوم.

كان نهمى إلى القراءة كبيرا . . .

لكن جاء الحد من ساعات القراءة فى العام الماضى كخبطة موجعة لى . .

إننى حقا حزين، لكننى . . أحمد الله على أية حال، فلا زلت قادرا على القراءة وإن كان الوقت أقل . .

* * *

الخروج من الظل.. إلى دائرة الضوء..

. . . عدد كبير من القصص نشرته فى أوائل الثلاثينات، معظمه لم تضمه مجموعة، كما أننى نسيت تماما المجلات التى كنت أرسل إليها قصصى، فى هذا الزمن كان عدد المجلات الجادة فى مصر أكثر من مجلات التسلية، بل إن الأخيرة كانت نادرة، كان عدد المجلات الجادة كبيراً، تقدم التراث العالمى فى الأدب، والتراث الحديث، لم يكن هناك أى مشكلة فى تتبع مصادر الثقافة، أما المجلات العامة، مثل المصور، آخر ساعة، اللطائف المصورة، فمحدودة العدد والانتشار، ولم تتوسع هذه المجلات إلا بعد الحرب العظمى، كان عدد المتعلمين فى مصر محدودا، لكن من يقرأ يشكلون نسبة عالية، لو استمرت هذه النسبة مع ازدياد عدد المتعلمين، لو ظلت كما هى، لأصبح لك مثلا مائتى ألف قارئ، نعم. . مائتى ألف قارئ، لك أنت بالذات، كان لكل جريدة صفحة أدبية يومية، ولكل جريدة عدد أسبوعى مستقل، مثل البلاغ الأسبوعى، والسياسة الأسبوعية، بخلاف المجلة الجديدة والمقتطف، والحديث. . .

أول جنيــه !

لم تربطنى أى علاقة بأصحاب المجلات التى نشرت لى، كنت أرسل قصصى أو مقالاتى بالبريد، الوحيد الذى استدعانى سلامة موسى، كانت الكتابة بلا مقابل، ويبدو أنه عندما لاحظ أننى كتبت عنده لفترة طويلة أراد أن يكافئنى معنويًا، ربما كان ذلك هو الدافع لاستدعائى . .

استمررت أنشر بلا مقابل، أول قصة تقاضيت عنها أجراً تقاضيته بعد أزمة تسببت فيها، كنت أنشر فى «الرواية» و«الرسالة» مجانا، المرحوم صلاح ذهنى طلب منى قصة لمجلة «الثقافة»، أعطيته قصة ونشرت بالفعل، آخر السنة اتصل بى تليفونيا، قال لى: يا أخى أنت سببت لنا مشكلة، قلت: خيرا. . لماذا؟ قال: لك جنيه مكافأة لم تصرفه. دهشت، سألته: ولكن. . لماذا تعطوننى هذا الجنيه؟، قال: إنه مكافأة عن قصة. تزايدت دهشتى، سألت: «هى القصص بفلوس؟».

عرفت أنهم أثناء مناقشة الميزانية العمومية فى نهاية السنة وجدوا هذا الجنيه الذى حال دون تقفيل الميزانية.

الكتــاب الشعبى...

فى سنة ١٩٤٣، بدأنا النشر فى لجنة النشر للجامعيين التى أسسها المرحوم عبد الحميد جودة السحار، وشقيقه سعيد السحار أطال الله فى عمره، كان الكتاب يطبع منه ألفا نسخة فقط، حتى

أصدرت روز اليوسف سلسلة الكتاب الذهبى، طبعة شعبية، طلبونى، ذهبت إلى سعيد السحار أخبره، لأننى كنت أخلاقيا ملتزما بطباعة كتبى عنده، وافق بشىء من الضيق، قال: انظر إلى كتبكم، طبعنا من كل كتاب ألفى نسخة فقط، بعض الكتب مضى عليها عشر سنوات، ولكن لا زال متبقيا منها فى المخزن ما بين أربعمائة أو خمسمائة نسخة، فما بالك بكتاب سيطبع منه خمسة عشر ألفا، بالطبع لن تصدر طبعة ثانية منه أبدا.. المهم أننا اتفقنا، وسلمت روز اليوسف رواية «خان الخليلى»، وفوجئت بوضع جديد، لأول مرة يعلن عن كتاب لى، إعلانات متوالية، صورة كاريكاتورية للمؤلف وهو يقدم كتابه، شكل جديد من النشر، وإذا بالخمسة عشر ألف نسخة ينفدون فى أسبوع، ليس ذلك فقط، ولكن المخزون من الكتب فى مخزن سعيد السحار ينفد، ثم يعاد طبع الروايات، وتباع، طبعة ثانية، ثالثة، رابعة، الكتاب الشعبى لم يقتل الطبعات الأخرى بل أحياها، كيف تفسر ذلك؟ لا أدرى. كان تفسيرى أن عدد القراء كبير، وأن الطبعة الشعبية وصلت إليهم، وصلت إلى قراء كنا نجهل الطريق إليهم. كانت لجنة النشر للجامعيين تعلن بشكل محدود جدا، مجرد إعلان صغير، لكن روز اليوسف قامت بحملة إعلانية كبيرة، وهذا وضع مستمر حتى الآن، فرق كبير أن تطبع كتابًا فى دار نشر، وأن تطبعه فى سلسلة شعبية، إذا كان السحار له الفضل فى طباعة كتبى، فإننى مدين بالانتشار إلى الكتاب الذهبى..

انهيار.. بسبب الثلاثية...

سببت لى الثلاثية صدمة حادة، عانيت منها كثيرا . .

بعد أن كتبت عبث الأقدار، وبداية ونهاية، وخان الخليلى، والسراب، ورواياتى الأولى، وبعد أن انتهيت من الثلاثية، ذهبت بها إلى سعيد السحار، كانت الثلاثية رواية واحدة عنوانها «بين القصرين»، أما التقسيم إلى ثلاثة أجزاء فله قصة أخرى سأرويها لك بعد قليل، نظر سعيد السحار إلى الرواية، وتساءل: ما هذا؟ قلت: رواية جديدة . . «بين القصرين»، أمسك بالرواية، قلب صفحاتها الألف، قال . . كيف أطبع هذه؟ إن ذلك مستحيل . .

عدت إلى البيت وأنا فى منتهى الحزن. شوف . . كان فى مكتبى أحيانا ثلاث روايات لم تنشر، ولكننى لم أضق بذلك أبدا. ولكن فى هذه الليلة حدث لى انهيار . . أبعد هذه السنوات من العمل، أبعد هذا الجهد الشاق لا أستطيع نشر أكبر وأعز عمل؟ . مررت بأيام يأس، وفى إحدى المرات كنت فى نادى القصة، وتحدثت عن روايتى الضخمة التى فشلت فى نشرها، وإذا بالمرحوم يوسف السباعى يطلبها منى، قال: نحن سنصدر مجلة، لا أذكر متى دار هذا الحديث بالضبط، قبل الثورة أم بعدها؟ لقد انتهيت من الثلاثية فى أبريل ١٩٥٢ . يوسف السباعى أخذ منى «بين القصرين» كلها، وكانت نسخة مخطوطة، أى لم يكن لدىَّ صورة منها، لم أكن قد نسختها على الآلة الكاتبة. نعم . . كان من الممكن أن تضيع، لو أن هذه النسخة الوحيدة فقدت من المرحوم يوسف السباعى لأى سبب لضاعت الثلاثية إلى الأبد، بعد الثورة وتغير الظروف، اتصل بى،

قال: سنصدر مجلة، وسننشر الرواية. ثم صدرت «الرسالة الجديدة» وبدأ نشر بين القصرين. من الذى شعر بنجاح المسلسلة؟ سعيد السحار، قال لى إن الرواية ناجحة، ولكن صدورها فى كتاب واحد مستحيل لأنها ضخمة جداً، اقترح تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء بدلا من ثلاث فترات، سألته: والاسم؟، قال: سمها ثلاثة أسماء. ومن هنا جاء عنوانا «قصر الشوق» و«السكرية»، وأصبحت بين القصرين ثلاثية..

أذكر الفترة التى تلت رفض السحار لنشرها بأسى، كانت صدمة فظيعة، بل إهانة، خاصة عندما قال لى لحظة رؤيته لها «إيه الداهية دى؟»..

صدرت الثلاثية، وانتشرت بسرعة، كان أول كتاب يروج لى خارج السلسلة الشعبية: «بين القصرين»، ثم توالت الطبعات، والرواج، حتى بدأ تزوير الكتب فى بيروت سنة ١٩٦٥، منذ ١٩٦٥ حتى سنة ١٩٧٠ ضعفت حركة التوزيع ضعفا كبيرا، ماتت الكتب، بينما أصدقاء سعيد السحار فى الخارج يرسلون إليه النماذج المزورة، ولم يكن هذا بالنسبة لى فقط، إنما لعديدين، التزوير استمر حتى الآن، لكن ربما كان له ما يبرره الآن، أقصد المقاطعة بسبب الظروف السياسية، ولكن فى عز ألمى بسبب التزوير كنت أجد عزاء من نوع آخر، إذ أوصلنا الكتاب المزور إلى مناطق لم نصلها، مثل شمال إفريقيا، والسبب: أننا لم نكن نجيد عملية التوزيع. كان انتشارا أدبيا، وليس ماديا، لقد طبع من أعمالى أكثر من مليون نسخة، لم أتقاض حقوقى إلا عند مائة وخمسين ألفا ومائتين، الطريف أن

المزورين كانوا يحتفظون باسم «مكتبة مصر وسعيد السحار» على الأغلفة، نفس الأغلفة ولكنها باهتة قليلا.

كنت فيما مضى أتخيل نفسى فى السن التى أستحق فيها معاشا كاملا، وأخطط لإحالة نفسى حتى أتفرغ للأدب تماما بعيداً عن الوظيفة، ولكننى عندما وصلت إلى هذه المرحلة من العمر اكتشفت أننى فى حاجة إلى مرتبى كاملا، أعباء الحياة تتزايد باستمرار، تصور أن المرتب الوحيد الذى كان يكفينى فى حياتى منذ بداية الشهر وحتى نهايته، بل وأدخر منه، كان مرتبى الذى تقاضيته عندما التحقت بوزارة الأوقاف فى الثلاثينات، كان صافى ما أقبضه ثمانية جنيهات، وكانت سنوات الأزمة الاقتصادية التى أفلس فيها التجار، ولم ينج من ضنكها إلا أصحاب الدخول الثابتة، أقصد الموظفين. لم أفكر أبدا فى الأدب كمصدر دائم للرزق، إن ذلك مستحيل عمليا، لكن هناك فترة كان من الممكن أن أكتفى فيها بدخلى من الأدب، وهى السنوات القليلة التى توالت فيها الطبعات، وانتهى ذلك فى سنة ١٩٦٥، عندما بدأ تزوير الكتب فى الخارج..

الآن مستورة والحمد لله.

الروايات الكبرى... الثلاثية..

.. فى الحقيقة أن فكرة الثلاثية جاءتنى على دفعات، أستطيع تحديد اللحظات الأولى، كنت أقرأ فى كتاب عن أجرومية الرواية، فى الواقع أنا قرأت العديد من الكتب عن فن الرواية، أول ما تعرض له هذا الكتاب الرواية التى يسمونها رواية الأجيال، أو رواية الأزمان التى تعرض أجيالا عديدة متوالية، أعجبنى الشكل، هنا كنت أقرأ عن نوع محدد من الرواية، هنا بدأت محاولة التذكر، عما إذا كنت قد قرأت عملا أدبيًا من هذا النوع؟ .. لا .. لم أكن قد قرأت، بالمناسبة .. هناك أشياء تقرأها ولا تستجيب لها، وهناك قراءات أخرى تتجاوب معها، ما تردد داخلى بقوة، ضرورة أن أكتب رواية من هذا النوع، ولكننى ترددت، مثل هذه الرواية فى حاجة إلى تمرين طويل، وتفرغ كامل، يعنى إذا كان لدىَّ مشروع رواية أفرغ منه أولا، مثل زقاق المدق، السراب، وفى هذه الأثناء أصدر طه حسين رواية «شجرة البؤس»، وجدتها قريبة جدًا من هذا النوع، أقصد رواية الأجيال، ولكنها قصيرة إلى حد ما، فى هذه الفترة أخطأت خطأ كبيرًا، لم أكرره فيما بعد أبدًا فى حياتى، فى هذه الفترة تحدثت كثيرًا عن هذا النوع من الروايات، وأفضت فى شرح أفكارى، ونيتى فى

كتابتها يومًا ما، أحد الأدباء الذين استمعوا إلىَّ ذهب وشرع فى كتابة رواية من هذا النوع، أى رواية أجيال، وأصدرها بعد ستة شهور، منذ هذه التجربة تعلمت ألا أحكى أى شىء، أى تفاصيل عن مشروعاتى، بالطبع لك أن تتخيل قيمة الرواية من الناحية الفنية إذا كانت قد كتبت وصدرت فى ستة شهور فقط . .

المهم . . أعود إلى طه حسين، كانت شجرة البؤس رواية أجيال ولكنها صغيرة، سيطرت الفكرة علىَّ تمامًا، وهنا بدأت أقرأ الروايات الكبرى التى تعرض للأجيال، قرأت «ملحمة أسرة فورسايت» لجولزورثى، و«الحرب والسلام» لتولستوى، و«آل بودنبروك» لتوماس مان، فى لحظة معينة شعرت أننى وصلت إلى نقطة معينة امتلكت فيها زمام الموضوع، هنا نقطة لابد من توضيحها وهى أننى لم أعتد قراءة أعمال معينة قبل أن أكتب إحدى رواياتى، ولكن هذه القراءات كانت جزءًا من ثقافتى واطلاعى، إن أعمالى تنتمى إلى المدرسة الواقعية، وهناك روايات لا حصر لها تمت إلى هذه المدرسة، لكن العمل الأدبى الوحيد الذى كتبته ولم أقرأ له شبيهًا، ولم أستطع تصنيفه فى مدرسة معينة، هو . . «حكايات حارتنا» . .

شخصيات بين الواقع.. والخلق..

. . فى السنوات التى سبقت الثلاثية كانت التفاصيل تتراكم من هنا وهناك، من جلسة، من حوار، من سهرة، إن تسعين فى المائة من شخصيات الثلاثية لها أصول واقعية، بعضها من عائلتنا، بعضها من جيران، بعضها من أقارب، بالطبع الشخصية الواقعية تنسى، لأن

الخلق يحيلها إلى شيء آخر، الأصل فى الواقع ينسى، ولا يعرف تاريخيًا إلا طبقًا لتسجيلك أنت، الأصل لا يهم، وجدت أنها تجربة لا دخل فيها بشخصيتى، إن الثلاثية هى العمل الوحيد الذى يحتوى جزءًا كبيرًا من عقلى وقلبى، بعض الناس يقولون لى: أليس فى شخصية أحمد عاكف شيء منك؟ وهذا غير صحيح على الإطلاق، أحمد عاكف شخصية حقيقية، كان موظفًا فى الجامعة، بالتحديد فى إدارة الجامعة، قرأ الرواية بعد صدورها ولم يعرف نفسه، لم يعرف أبدًا أننى استوحيت بطل الرواية منه هو، وهذا يدلك على شيء غريب أيضًا، رأى الإنسان فى نفسه، ورأى الآخرين فيه، ما أبعدهما عن بعض، كان أحمد أفندى عاكف الذى عرفته مجرد موظف صغير بإدارة الجامعة، كان يظن أنه يعرف كل شيء فى مصر، كان لديه البكالوريا فقط ويظن أنه جمع علوم الدنيا كلها، كان أرعن وسطحيًا، والمخاطرة التى تحملتها أنه لو عرف أننى استوحيته فى «خان الخليلى» ربما هدد ذلك حياتى، ربما كان يعتدى علىّ، إذ إنه لم يكن طبيعيًا بالمرة، وبالمناسبة، تعرضت حياتى مرة أخرى بسبب إحدى الشخصيات التى استوحيتها من الواقع، أقصد بطل «السراب»، إنه شخصية حقيقية، كان حاصلا على ليسانس الحقوق، اسمه حسين بدر الدين، لم يكن يقرأ أى روايات أو أى نوع من الأدب، أحد أصحابنا من شلة العباسية، لعلك تذكره.. على محمد على، ذهب إليه وقال له بسخرية «نجيب كاتب عنك»، عندئذ أخرج مسدسه، وشتمنى، بالطبع اختفيت عنه، كان هذا الشخص من الأثرياء، ضيع ثروته حتى تسول، وكان ينام بمقهى الفيشاوى، دخل السجن بسبب المخدرات، كانت العقدة فى حياته علاقته بأمه، وكان

دائمًا يصاحب العديد من النساء، وفى نفس الوقت لا يمارس أى فعل، كان من الممكن أن يقتلنى، مع أنه لم يقرأ الرواية، كان شخصًا شريرًا شاذًا، فى الرواية تجد شخصًا آخر، رقيقًا وهادئًا، كاد صديقى على محمد على أن يتسبب فى مأساة بسبب حبه للسخرية. سافر حسين بدر الدين إلى الكويت، وهناك عمل بمساعدة أحد أصدقاء والده، ثم مات، أما أحمد عاكف الواقعى فلا أدرى إن كان على قيد الحياة أم توفاه الله الآن.. أذكر أنه زارنى آخر مرة منذ ثلاثين عامًا، ثم اختفى.. والآن.. لنرجع إلى الثلاثية..

الثلاثيـــة

.. كتبت الثلاثية وأنا فى عنفوانى، صبور، جلود، عمل كهذا كان يحتاج إلى صبر، إلى صحة، لو أنك رأيت أرشيف الثلاثية ستدرك مدى ما أقول، ما خططته من أجل كل شخصية، كل شخصية كان لها ما يشبه الملف، حتى لا أنسى الملامح والصفات، خاصة وأننى أعمل فى كل سنة من أكتوبر إلى أبريل فقط بسبب مرض الحساسية الذى يصيب عينى، كذلك التخطيط للرواية كلها بحيث تمضى فى بناء متماسك، قسم كبير من الأوراق والكراسات، كتبتها فى أكثر من أربع سنوات، بدقة، بهدوء، بتأن، تحدونى الرغبة إلى أن أنهى شيئًا جيدًا، ولم يكن صراعى مع اللغة قد بدأ بعد والذى واكب الأشكال الحديثة، كنت أكتبها بأسلوب هادئ، بالمناسبة، فإن أكبر صراع خضته فى حياتى كان مع اللغة العربية، منذ أول كتاب، فى عبث الأقدار تجد أسلوبًا قرآنيًا. كما تعلمنا.. إن

الأسلوب لا علاقة له بالموضوع، وعندما جئت إلى الأدب الواقعى، كان الأمر صعبًا، كان الأسلوب لا يمشى فى يدى، لا يطاوعنى، دخلت فى صراع بلا شعور بينى وبين اللغة، ربما لو كنت أدرى أننى فى صراع كنت فقدت الاتجاه، لكن الخناقة دارت فى اللاشعور، كيف أذلل اللغة؟ كيف أطوعها؟ كيف يكون الحوار مقبولا مع أنه فصيح، ولذلك إذا استعرضت بعض القصص الأولى ستجد أشياء مضحكة، على سبيل المثال ربما تجد شخصية فى مقهى بلدى وتتحدث بأسلوب فصيح متقعر، لم يكن هناك مثال أحتذيه. كل العباقرة الذين سبقونا لم يكتبوا عن أحياء شعبية، وإذا كتب، فإنه يكتب الحوار بالعامية، ليست هنا مشكلة، وإنما أن تطور اللغة كى تصبح فنية وواقعية، فتلك مشكلة، وهذا أصعب ما وجدته، أو صادفته فى حياتى الروائية، لم يكن هناك نموذج يحتذى، ومما يلاحظ على كتاب الدكتور عبد المحسن طه بدر «نجيب محفوظ.. الرؤية والأداء»، أنه لم يتكلم عنى فى موقعى، لم يقل كيف وجدت الرواية، كيف تطورت بها، وإلى أى حد وصلت، لم يراع الظروف التى كانت محيطة بى فى البداية، لقد تحدث حديثًا مطلقًا، كأنه يتكلم عن أديب إنجليزى، لو رجع إلى اللحظة الزمنية التى بدأت فيها الكتابة وعرف المتاعب التى واجهتنى، لهذا جاء بحثه مجردًا، بحثًا عقلانيًا.

معايشة دائمة

.. نعود إلى الثلاثية، إن مادتها يمكن القول إنها عاشت معى منذ الطفولة، الناس الذين كتبت عنهم عايشتهم على فترات زمنية مختلفة

من حياتى، الحكاية هى. . كيف كان يمكن أن أصب هذه التفاصيل فى عمل واحد، الحقيقة من الصعب أن أقول لماذا خرجت بهذا الشكل، ولم تصدر بشكل آخر، كان من الممكن أن تخرج فى النهاية بأشكال عديدة، كيف تكون فى خلايا مخى بهذه الطريقة بالذات، فهذا ما لا أستطيع أن أجد له تفسيراً واضحًا، كانت الثلاثية شاغلى طوال السنوات التى عملت خلالها على إنجازها، وهنا أود أن أقول لك ملاحظة هامة، إذا كان عندك موضوع معين فلا تؤجله. لماذا؟ كان عندى موضوع عن مصر الحديثة بعد الثورة، لم أفكر فيها كثلاثية مع أننى كنت أخطط لها على هذا الأساس، فى هذه الفترة لم يكن لدىَّ الصبر أو الجلد أو الثقة بأن العمر سيسمح بإنجازها، أثناء كتابتى للثلاثية كان عندى إحساس يقينى أننى سأنهيها، طبعًا من الممكن أن يموت الإنسان فى أى وقت، ولكن هذا الإحساس أفتقده الآن، لا أعتقد أنه يمكننى المجازفة بعمل ضخم كهذا فى مثل عمرى الآن. . لا. . الحرافيش استغرقت فى كتابتها سنة، فكرت فيها حوالى سنة، واستغرقت كتابتها سنة أخرى، وكانت دفقة خيال، لا يحتاج إلى جهد كبير مثل الذى احتاجته الثلاثية، العمل الواقعى الذى يحتاج إلى رصد، وتجميع، أما وقت الحرافيش فكان ملمومًا. . بخلاف الثلاثية، كانت شخصيات الثلاثية لا تبرح فكرى إطلاقًا، ومن هنا حافظت على وحدة الاتجاه فى الرواية، حتى فترة الإجازة، أو فى فترات الانقطاع بسبب شغلى فى وزارة الأوقاف، حتى فى السينما، كنت أعايش الشخصيات والأحداث، وعندما كنت أستأنف الكتابة بعد انقطاع لم أكن أعيد قراءة ما سبق أن كتبته، الله يرحمه محمد عبد الحليم عبد الله قال لى إنه حريص على قراءة ما سبق أن كتبه،

إننى أقرأ العمل بعد أن أعيد كتابته، بعد التبييض أنتظر فترة، ثم أعيد قراءته، وفى جميع الحالات أشعر بعدم الرضا، أشعر بالفرق بين التصور المبدئى وبين ما أنتجته فعلا، بين الطموح وبين ما تحقق، ولكنه عدم رضا لا يؤدى إلى إلغاء ما كتبته، المرة الوحيدة التى اضطررت فيها إلى إلغاء عمل كتبته حدثت بعد انتهائى من رواية «ما وراء العشق» وقد كتبتها خلال السنوات الأخيرة، بعد انتهائى منها شعرت بعدم رضا نهائى، من الصعب أن أقول لك ما الذى أثار ضيقى منها، كنت مطمئنًا إلى القسم الأول منها، لكن القسم الثانى أشعرنى بعدم ارتياح، ولكن هذا نوع مختلف عن عدم الارتياح الذى ينتج بسبب ما كان فى خيالك، وما تحقق بالفعل، لقد كان لدىّ ثلاث روايات «أفراح القبة» و«ألف ليلة وليلة» وتلك الرواية، دفعت بالروايتين الأوليين إلى النشر، واحتجزت «ما وراء العشق» إلى السنة القادمة، كى أعيد فيها النظر . .

كيف أنظر إلى الثلاثية الآن؟

الحقيقة أننى لم أعد النظر فيها، لم أقرأها مرة أخرى، لكن يمكن القول بأن الثلاثية وأولاد حارتنا والحرافيش، هى أحب أعمالى إلى نفسى . . . فى الثلاثية كما قلت جزء كبير من نفسى، يتمثل فى شخصية كمال عبد الجواد، وكمال لم يدخل إلى الثلاثية اعتباطًا، وليس لأنه جزء منى، ولكنه ظهر بهذه الصورة لأنه جزء لا يتجزأ من موضوع الرواية. الرواية قادمة من عصر كلاسيكى، ومتوغلة فى عصر رومانتيكى، ومتجهة إلى عصر تحليلى، وفيها تلاقى الشرق بالغرب، ولكن ليس من خلال رحلة كتلك التى قام بها توفيق

الحكيم، أو يحيى حقى، أو الطيب صالح، إنها تمثل الذى وجد الغرب وهو فى الشرق، جاءت إليه مظاهر الحضارة فكان لابد من شرح هذه التغيرات فى النفس وفى الروح وفى العقل، ولما كنت قد عانيت بسبب ذلك تجربة ضخمة، فكان من الضرورى أن تنعكس فى الرواية، وجدت أن أفضل من يمثلها جيل الوسط، بالطبع كان من المستحيل أن تجدها عند ياسين، كان من الممكن أن يمثلها فهمى، ولكن فهمى مات، إن أزمة كمال هى أزمتى، وجانب كبير من معاناته هى معاناتى، من هنا يجىء حبى للثلاثية، وحنينى إليها. .

الأدب العظيم.. ينبع من الذات..

. . مع تقدم العمر يشعر الإنسان ويدرك أن منشأه هو المأوى !

كأنه يعيد دورة الحياة، إنه يقابل بعالم جديد يبدو لأول وهلة أنه ليس عالمه، لا يكفى أن تفهم عالمًا ما حتى يصبح عالمك الذى يخصك، إن المعايشة أعمق من ذلك، نحن نتجه إلى عالم جديد، هذا العالم يقينا لن أعايشه، أنا فى نهاية مرحلة، أقول عمر، ما هى التجربة الحية المكتملة التى عشتها؟ ستجد أنها تتمثل فى القديم، ليس بمعنى الرجوع إلى قيمه، أو بمعنى رفض الجديد، ولكن باعتباره المأوى الخاص بك، لأنك عايشته وفهمته، أما الجديد، الآتى، فأنت تتمنى له الخير ولا شيء غير ذلك، لأنك لن تشارك فيه بنفسك، على سبيل المثال أنا عندى أولاد الآن، أدرك تمامًا أنهم سيعيشون حياة مختلفة، أدرك أننى لن أشارك فيها. لذلك فى هذا الاضطراب، فى هذه الدنيا الغريبة، يركن الإنسان إلى طفولته، إلى العمر الآمن الذى انقضى، من هنا قد أكون أجبت عن سؤالك حول حنينى إلى الحارة، ومصادر رواية الحرافيش، والقدرة على استعادة واقع انقضى. . يخيل لى أن الإنسان كلما تقدم فى العمر يتذكر طفولته أكثر، ويستعيد تفاصيل كان يخيل إليه أنها اندثرت، لماذا؟ لأن هذه الفترة عاشها حياة كاملة غير مرسومة. حدث لى أن كل التجارب الروائية

الأولى كانت نتيجة حياة عاشت بدون تخطيط، الذى كان يتحكم فى علاقاتها العلاقات الإنسانية، أنت تعرف الإنسان كإنسان . . وبس . . فيه مودة، نفور، حب، كله طبيعى، مع تقدم العمر تبدأ فى مراقبة الناس وتحولهم إلى أشياء ومواضيع، عندئذ يضيع منهم جانب كبير، يعنى أنا أتصورك مثلا وأنت تلعب فى الحارة، تعرف ناسًا معرفة طبيعية، بخيرها وشرها، يصح أنك أصبحت اليوم بدون تلقائية الزمن الماضى، لا . . لك فلسفتك ونظرتك، ربما تنظر إلى الناس من جانب الطبقات، هنا فقدت الإنسانية جانبًا منها، فى الصغر كنت أشوف أحد الفقراء، أرثى له، أحزن، أشوف واحدًا ثريًا أنفر من جانب فيه أو العكس، فى الكبر بدأت أضع هذا فى جانب، وذاك فى جانب، هذا معى، وهذا ضدى، هذا يفقد جوانب، الحياة الأولى هى التلقائية والطبيعية، وتمدك بالإنسان فى كامل أبعاده، ولا تعوض، كلما تقدمت فى السن، وأصبح لك فلسفة، ورؤية، تتغير الأبعاد، يصبح عندك منظور يرى الأشياء أكثر من غيرك، وأشياء يعمى عنها لا يراها، ولهذا التجارب الأولى، عندما بدأنا الكتابة كنت لا أتخيل مطلقًا أننى سأصل إلى نقطة معينة ولا أجد عندها ما أكتبه، لماذا؟ لأن كل ما أراه جدير بالكتابة، كان ذلك يبدو مستحيلا، لكن بعد التقدم فى العمر، واكتساب رؤية وخبرة، يبدأ فى انتقاء موضوعات معينة تتفق مع رؤيته، من هنا قد تمضى سنوات وهو لا يجد ما يكتبه، كثير من الحوادث قرأتها فى الصحف ولم أتأثر بها، حتى قرأت حادثة محمود أمين سليمان فى الصحف، من هنا ولدت اللص والكلاب، لقد حدثت لى هوسة بهذا الرجل، أحسست أن هذا الرجل يمثل فرصة تتجسد عبرها الانفعالات، والأفكار، التى

كنت أفكر فيها دون أن أعرف طرق التعبير عنها، العلاقة بين الإنسان والسلطة، ومجتمعه، طبعًا بعد أن كتبت عنه، لم أكتب قصة محمود أمين سليمان، أصبح الموجود هو سعيد مهران، فى فترة بدائية قبل ذلك، كانت كل حادثة تستحق أن تكتب، الآن كم من الحوادث تمر بى ولا تستحق أن تكتب من وجهة نظرى، إن المنجم الحقيقى فى الماضى البعيد، ستجد أنك تحب كل من عرفت، وترغب فى الكتابة عنهم، أما الآن فالأمر عكس ذلك . .

الشكل والمضمون

. . حنينى إلى الحارة جزء من حنينى إلى الأصالة، عندما بدأنا نكتب الرواية كنا نظن أن هناك الشكل الصح والشكل الخطأ، أى أن الشكل الأوروبى للرواية كان مقدسًا، بتقدم العمر تجد أن نظرتك تتغير، وأنك تريد أن تتحرك من كل ما فرض عليك، ولكن بطريقة تلقائية وطبيعية، وليس لمجرد الخروج أو كسر الشكل عمدًا، تجد نفسك تبحث عن النغمة التى تستخرجها من أعماقك، أيا كانت هذه النغمة، سواء عادت بك إلى القديم، أو قادتك إلى المودرنيزم، أو عادت بك إلى الحدوتة، يعنى كأنك تقول، ما هى الأشكال التى كتبوا بها، أليست طرقًا فنية خلقوها هم؟، لماذا لا أخلق الشكل الخاص بى الذى أرتاح إليه؟ بالنسبة لى فيما يتعلق بالثورة على كل ما هو أوروبى أو تقليدى ازدادت خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة، أصبحت ثقتى فى نفسى أكثر، أصبحت أبحث عن النغمة التى أكتب بها من داخل ذاتى أكثر، اتجاهى إلى الحدوتة أحد معالم هذه المرحلة،

أخص بالذكر الحرافيش، بعد الحرافيش حاولت أن أستوحى عملاً قديمًا، وهو ألف ليلة وليلة، وهى رواية لم تنشر بعد، لكن يجب أن أوضح لك شيئًا مهمًا، وهو أن تقليد القديم مثل تقليد الحديث كلاهما أسر، المهم أن تبحث عما يتفق مع ذاتك، طبعًا الكاتب الأوروبى الذى بدأ معى يبحث عن ذاته من أول يوم، ليس لديه عقد، ولأنه لا يأخذ ثقافته من الخارج، ولكن بالنسبة لنا نحن الكتاب الذين ننتمى إلى العالم المسمى بالنامى أو المتخلف فقد كنا نعتقد وقتئذ أن تحقيق ذاته الحقيقية الأدبية لا يجىء إلا بإلغاء ذاته، يعنى أن الشكل الروائى الأوروبى، مقدس، والخروج عنه كفر، لهذا خيل لى فى لحظة معينة أن دور جيلنا هو أن يكتب الرواية بشكل صحيح، لأننى كنت أتصور أن هناك رواية صح، ورواية غير صح، الآن. . تغيرت النظرية، الرواية الصحيحة هى النابعة من نغمة داخلية، فلا أنا أقلد المقامة، ولا أقلد جويس، يعنى الحقيقة أنا حاليًا لا يثير أعصابى إلا التقليد، حتى القديم، وما أرجوه حقيقة من الجيل الذى يلينا، والذى قد يصل بنا إلى العالمية أن يكون أكثر إخلاصًا بالنسبة لهذه النقطة، الإخلاص للذات، لأنه لا يجب أن يكون الموضوع فقط محليًا، ولكن الشكل أيضًا، يوم أن نحقق هذا، يمكن القول عندئذ أننا قدمنا أدبًا عربيًا صحيحًا إلى العالم. .

. . ربما كانت ثرثرة فوق النيل، واللص والكلاب، محاولة لكسر الشكل التقليدى فى الرواية كما تقول، ولكن لاحظ أن ذلك فى إطار الشكل الأوروبى، الحقيقة أن الإنسان فيه قدر من الأصالة مهما حاول التقليد، لذلك تيار الوعى فى أيدينا لم يعد هو تيار الوعى هناك، كذلك اللا معقول بين أيدى كتابنا أصبح لا معقولاً مختلفًا،

لا معقولنا يؤدى إلى المعقول، لم يكن الأمر مجرد محاكاة فقط، إنما خلق شيئًا مختلفًا.

.. لكل كاتب نوعية من الشخصيات يفضل التعامل معها، لكن المسألة لا تجىء بتخطيط، الموضوع يجيب صاحبه معه، أحيانًا الواحد يكون قد عرف شخصيات وينساها، ثم يطغى فجأة فى فترة معينة، بعد أن يعرف الإنسان طريقه، ككاتب مسرح، أو رواية، يكون غالبًا فى العشرينات عنده مخزون تجارب لا حصر له، تؤثر فى الوجدان ومتراكمة، تصبح المشكلة الأولى بأى شىء تبدأ، لذلك كانت الإلهامات سريعة، بعكس الحال بعد تقدم السن، ويكون قد تحرر من ضغوط الوجدانات الكثيرة التى صاغ منها سلسلة أعماله، الاختيار مع تقدم العمر يصبح أصعب، فى البداية تكون أشبه بأنك عندك مخزون سلعى كبير، ثم تخلصت منه، بعد ذلك يكون الانتقاء، ما يثير سخريتى، أن بعض الناس يقولون «الكاتب ده قال اللى عنده» ماذا يعنى الذى عنده، إننا هنا لسنا أمام فيلسوف، أو مفكر، بالنسبة لهؤلاء كتاب أو كتابان وقد ينتهى الأمر، لكن بالنسبة للأديب فإن الحكاية تشبه الغريزة الجنسية، طالما فيها حيوية تحتاج إلى الخروج، هذا هو الأساس، إذا ذهبت هذه القدرة انتهى الأمر حتى ولو كانت الدنيا كلها مواضيع، هو ده الأساس، مش واحد يقول لك، دا عنده حاجة عايز يقولها، عايز يقول إيه؟ لذلك لما تقول على أى أديب، دا عاوز يقول إيه، من الصعب، لكن من السهل أن تجيب على سؤال كهذا بالنسبة لشوبنهاور أو نيتشه، من أغرب الأسئلة التى أسمعها، واحد يسأل «أنت عاوز تقول إيه فى القصة دى؟»، طيب ما أنا لو عاوز أقول حاجة معينة أقولها فى جملة أو مقالة، وخلاص.

السياسة.. والثورة..

لست معاديا لثورة يوليو..

. . دخلت السياسة حياتى منذ الطفولة، عندما كنت أرى المظاهرات فى ميدان بيت القاضى، فى المنزل كان الوالد والوالدة متعاطفين مع الوفد، وإذا ذكر اسم سعد زغلول فإنه يذكر باحترام، وتقديس، وعندما بدأت أقرأ الصحف، كنت أجرى بعينى على السطور حتى أجد اسم الزعيم فأتوقف عنده، لكن ما زرع فى أرواحنا الوطنية، وعلمنا أصولها، فهم المدرسون، خاصة أولئك المعممون من أساتذة اللغة العربية، كانوا يتوقفون خلال الحصص عن الدروس ويبدأون أحاديثهم عن الوطنية، وكانوا يوبخون الطلبة الذين لا يشتركون فى المظاهرات أو يتهربون منها، كانت اللى ماسكة غطاء حلة، أو إيد هون، أو عصا، النساء المحجبات كن ماشيين بوقار منظم، صحيح . . كتر خيرهم، لكن المظاهرات الحقيقية كانت فى الأحياء الشعبية . . كانت الإضرابات تبدأ بعد الطابور مباشرة، يعلو التصفيق، ثم نلقى بالملاعق لأن المدارس كانت تقدم لنا طعام الغداء، وكان المدرسون يشجعوننا على الخروج فى المظاهرات، ما أذكره ويهزنى حتى الآن مظاهرات النساء فى ميدان بيت القاضى وشوارع

الجمالية، كتب التاريخ تحدثك عن مظاهرات المحجبات من سيدات المجتمع، وخروج طالبات مدرسة السنية، لكنها لا تذكر مظاهرات نساء الحوارى والأزقة، لقد رأيتهم بعينى، وكان شيئًا لا مثيل له . . في صور المظاهرات ترى النساء المحجبات زوجات الباشوات، ويقولون . . المرأة المصرية، مرأة مصرية مين؟ أنا شفت آلاف النساء في الجمالية فوق عربات الكارو . . نساء الحوارى . .

ملحوظة

نستعيد الفصل الخاص بالشيخ هجار المنياوى فى رواية المرايا:

كان الشيخ هجار المنياوى مدرس اللغة العربية فى مدرستنا الابتدائية، ولحق بنا فى المدرسة الثانوية، وكان من أهل الصعيد، ينطق بلهجتهم، قوى البنيان طويل القامة غامق السمرة، قليل العناية بمظهره، فعمته أصغر مما ينبغى، ولا ذوق له فى اختيار ألوان الجبة والقفطان، ولكنه كان يفرض الاحترام بقوة شخصيته والتمكن من مادته وشجاعته الفائقة، ولم يكن متزمتا، كان يحب النكتة، ويروى لنا جميل الأشعار، ومرة تبارى فى فناء المدرسة مع مدرسى الرياضة البدنية فى التحطيب، فلعب بعصاه برشاقة أذهلتنا وانتصر على خصمه وسط تصفيق حاد. ومرة دخل جعفر خليل الفصل متأخراً بعد أن انتظمنا فى مجالسنا، وكعادته فى حب المزاح، قلد أستاذنا فقال له:

- عم صباحا.

وضحك الفصل وانبسط جعفر، وتركه الشيخ هجار حتى جلس، ثم ناداه:

ـ جعفر خليل. .

فوقف، فقال له بهدوء:

ـ أعرب «عم صباحا».

وعجز جعفر عن إعرابها، ففتح الشيخ دفتر يومية التلاميذ وأعطاه صفراً، فاحتج جعفر قائلا:

ـ إنها صعبة!

فقال الشيخ بهدوء:

ـ ولم تستعمل ما لا تفهمه؟

أما جانبه الجاد فكان فذا لا يتكرر، كان فى المدرسة الابتدائية ـ عصر الثورة ـ مدرسا للغة العربية والوطنية. فلدى أى مناسبة يفتح باب الحديث الوطنى، يستعيد الذكريات المجيدة. ويشيد بالأبطال، ونحن نتابعه والدموع فى أعيننا، وكان يحدث عن سعد زغلول وكأنه ولى من أولياء الله أو صاحب معجزات، معتبرا زعامته رسالة سماوية ومعجزة تاريخية، ومنه عرفنا ما لم نكن نعرف عن نشأة سعد، ومهارته فى المحاماة، ومواقفه فى نظارة المعارف ونظارة الحقانية، وزعامته، وتحديه لقوة الإنجليز، وسحره وبلاغته، وما ينتظر البلاد على يديه، وكان يقول:

ـ ببلاغته عبأ الشعور، وباسمه قامت الثورة. .

وكان يعرف التلميذ الكامل فيقول :

ـ هو من يحصل العلم ويثور على الطغاة .

وكنا نحبه بقدر ما نجله ، ونتلقى عنه الوطنية والأصالة ، وبفضله أحببنا اللغة العربية وعشقنا أشعارها .

وفى المدرسة الثانوية تغير مذاق الجهاد ، فتوارت عنا وجوه الإنجليز وبرزت فى الصورة وجوه المصريين الموالين لهم ، واحتلت الحزبية المكان الأول فى الصراع ، وخاض الشيخ المعركة الجديدة بنفس القوة والصلابة ، وكان يقول :

ـ المعركة هى المعركة ، ولكن الأعداء ازدادوا عدداً فوجب علينا مضاعفة الجهاد .

ويوم أضربنا على عهد محمد محمود ، اليوم الذى استشهد فيه بدر الزيادى ، أخرجه ناظر المدرسة فطالبه بأن يخطب التلاميذ حاثاً إياهم على الانتظام فى الدراسة . وكان فى طبعه حدة تثور على التحدى وتنفجر غضبا أعمى ، فاعتلى المنصة أمام حجرة الناظر وصاح بصوت رهيب :

ـ العلم يطالبكم بالنظام والوطن يطالبكم بالجهاد ، وليس لكم إلا ضمائركم فارجعوا إليها . .

وكتب الناظر تقريراً عنه فرفعه إلى وزير المعارف ، وسرعان ما تقرر فصله ، ويوم غاب عن المدرسة وانتشر الخبر هاجم الطلبة حجرة الناظر حتى اضطر إلى الفرار من المدرسة ، واضطرت الوزارة إلى نقله حماية لحياته . وقد عاد الشيخ إلى المدرسة فى عهد الوفد ، ولكنه

فصل مرة أخرى فى عهد صدقى، فعمل فى مدرسة بين الجناين الأهلية التى كان يملكها رجل وفدى معروف. وفى حكومة المعاهدة تعين مفتشا بالوزارة وسويت حالته تسوية عادلة. وفى انتخابات ١٩٤٢ رشح نفسه على مبادئ الوفد فنجح. كما نجح مرة أخرى عام ١٩٥٠. وقد التقيت به مرات فى بيت رضا حمادة، كما عرفت بعض أبنائه. ولما صدر قرار حل الأحزاب - بعد ثورة يوليو - رجع إلى قريته فى الصعيد فلم يبرحها، ولا أدرى إن كان ما زال على قيد الحياة أم انتقل إلى جوار ربه. ومما يذكر أنه فى سبتمبر عام ١٩٥٢ أو ١٩٥٣ وكنت ماراً أمام نادى الجيش القديم بالشاطبى، رأيت بعض أعضاء الوفد واقفين فى فناء النادى يحيط بهم جند، وسمعت من بعض المارة بأنهم اعتقلوا وسيرحلون إلى القاهرة، ورأيت بين الضباط الذين يشرفون على الإجراءات الضابط محمد هجار ابن شيخنا القديم هجار المنياوى. تأملت الموقف، نظرت طويلا إلى الابن، تذكرت الأب، ثم خيل إلىّ أنى أسمع هدير الزمن وهو يتدفق حاملا متناقضاته المتلاطمة.

كدت أفقد حياتى

اشتركت فى جميع المظاهرات التى جرت، أذكر أننى أمشى مع عدد من الأصدقاء فى شارع محمد على، فجأة رأينا أحد أبناء البلد يحمل حجرا كبيرا ويضرب رأس كونستابل إنجليزى فيصرعه. فى نفس اللحظة رأينا عدداً من الخيالة قادمين من ناحية العتبة الخضراء، نظرنا إلى الخلف لنستدير ونجرى، فوجئنا بقوات من الجيش، كنا محصورين، ولا أحد سوانا فى الشارع، وجثة القتيل الإنجليزى ملقاة

أمامنا، أما ابن البلد فقد هرب، تعرف أن بعض حوارى شارع محمد على منحدرة إلى أسفل، تؤدى إليها سلالم، صاح أحدنا . .

اجر . . . اجر . . .

جرينا، جريت بأسرع ما يمكن أن أجرى به، من حارة إلى حارة، حتى فوجئنا بحارة سد لا تؤدى إلى أى منفذ، أدركنا يأس قاتل، فجأة أطلت امرأة من إحدى الشرفات، وأشارت إلى باب البيت، دخلنا، أغلقنا خلفنا، نظرت إلينا من فوق السلم،

اطلعوا . . .

طلعنا إلى السطح، عبرنا إلى السطح المجاور، نزلنا فى بئر السلم، انتظرنا حوالى نصف ساعة، خيم فيها صمت فظيع، ثم خرجنا، ومشينا حتى شارع عبد العزيز، ثم إلى العتبة الخضراء . .

المظاهرة التى مات فيها فهمى عبد الجواد فى الثلاثية مظاهرة حقيقية من الناحية التاريخية، لم أستوح هذه الحادثة فى الثلاثية، أما مظاهرة فهمى فكانت عند حديقة الأزبكية، مظاهرة مسموح بها، وكان فيها الطلبة والعمال، والقضاة، وفجأة أطلق الإنجليز النار، وقتلوا عددا من الناس، لا أدرى لماذا اخترت هذه المظاهرة بالذات ليموت فيها فهمى، هذه ناحية لا أستطيع تفسيرها . .

الكفـــر...

كان الوفد هو حزب الأمة بلا جدال، وكان من يقول إنه ليس وفديا يبدو فى نظرنا كأنه كافر، كان الوفد يعبر عن القضية الوطنية

والاجتماعية، كان أول انقلاب على الدستور مصيبة، بعده كنت أمشى أكلم نفسى من الضيق والقهر، ثم بدأت المشكلة الاجتماعية تلفت النظر، أضف إلى ذلك تأثير سلامة موسى، لهذا وجدت أن أنسب شيء هو الجناح اليسارى للوفد، لهذا عندما جاءت ثورة يوليو وأعلنت مبادئها خيل إلىّ أن هذه هى مبادئ الجناح اليسارى الوفدى لو أنه حكم، لهذا، رحبت بها حقيقة، بل إنها تجاوزته إلى تغيير الملكية وهذا ما لم يكن سيحققه يسار الوفد، لقد رحبت بالثورة فعلا، طبعا كنا نتمنى لو أن الثورة اتخذت قاعدتها من الوفد أساسا باعتبار أنه القاعدة الشعبية القديمة، لكن ما يحدث دائمًا عكس ذلك، لأن للثورة شعبية أيضا وستصبح مهددة، لسوء الحظ عادت الثورة الوفد، وكان يمثل قاعدة شعبية، ومن هنا بدأ ضرب الديموقراطية، كان من الممكن فى رأيى أن تمضى المسيرة الديموقراطية إذا ما اعتمدت الثورة على إنجازاتها كضرب الإقطاع وإنهاء الاحتلال، كان سينضم إلى الثورة أنظف من فى الأحزاب، لكن ضاعت الفرصة، لهذا وقعت فى إطار الحكم العسكرى، صحيح أنها أنجزت إنجازات هامة، لكن غياب الديموقراطية يهدد الإصلاحات، وإذا تأملت الآن ما تم ستجد أنه أضير بسبب غياب الشورى والديموقراطية، معظم الأخطاء التى وقعت كان سببها الانفراد بالرأى والقرار، الحكم الفردى يصبح كالقضاء والقدر، وأنت وحظك . .

الزعيـــم..

. . لم أر سعد زغلول بعينى، يوم أن ذهبت إلى عابدين لأراه،

جاء فى سيارته لمقابلة الملك، ولكن الكتل البشرية حالت دون رؤيتى له، عينى لم تقع عليه، رحت بيت الأمة أيام النحاس، من المشاهد التى لن أنساها، جنازة سعد زغلول، طبعا من الصعب مقارنتها بجنازة جمال عبد الناصر، لأن القاهرة فى الوقت الأول كانت مليونا فقط، ولكن المؤكد أن المشهدين من أجل الحوادث التى شهدتها القاهرة فى هذا القرن، كان سعد محبوبا إلى درجة غريبة، لى صديق قبطى، أطلعنى منذ سنة أو سنتين لا أذكر على دعوة زفاف أخته، أنت تعلم أن دعوة الزفاف تكون مبهجة، هذه الدعوة كانت مجللة بالسواد، كان مكتوبا فيها «فلان وفلان يدعونكم إلى كنيسة كذا لحضور إكليل.. والبقية فى حياتكم لموت زعيم الأمة»، طبعا فى ظروف عادية هذا يثير التشاؤم، هل رأيت أو سمعت عن دعوة زفاف بهذا الشكل؟.

إنها فترة لا توصف، حتى المؤرخ الذى كتب عن هذه الفترة يختلف عن الذى عايشها بنفسه، هناك ناس يستكثرون هذا الحب بالنسبة لسعد، ولكن هذا الحب كان مدرسة للوطنية، كانت مصر تقاطع البضائع الأجنبية، لأى موقف، كنت تشوف المحلات الكبرى الأجنبية فارغة تماما من الزبائن، أما شركة بيع المصنوعات فالزحام فيها لا يطاق، أى حاجة مصرية حتى لو رديئة جداً كانت تثير الفخر.

لست معاديا للثورة..

.. فى جميع ما أكتب ستجد السياسة، من الممكن أن تجد قصة خالية من الحب أو أى شىء، إلا السياسة، لأنها محور تفكيرنا كله،

الصراع السياسى موجود، حتى فى أولاد حارتنا التى يمكن أن تصفها بأنها رواية ميتافيزيقية ستجد الصراع على الوقف، بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ تناولت موضوعات حساسة جداً، مثل ميرامار أو ثرثرة فوق النيل، الحقيقة أنت قلت كلمة صادقة جداً منذ أسبوعين، قلت إن نجيب محفوظ عندما يكتب لا يعبأ بشىء، وينسى كل شىء. هذا حقيقى، كنت أحيانًا بعد أن أسمع ردود الفعل أتوقع أشياء مرعبة، خاصة بعد قصة مثل «الخوف»، فى الشارع مرة أجد واحداً يسألنى عن معناها، ربما تكون حاجة بريئة، لكننى كنت أخاف، لكن لاحظ أنا كنت أنقد الواقع نقد المنتمى إليه، أنا لم أرفض ثورة يوليو مطلقا، ولم أكتب أى عمل ضدها، أنت تعلم أن هناك روايات معادية للثورة، كنت أوجه النظر إلى سلبيات تسىء إلى الثورة، لن تجد كلمة بالإشارة أو التلميح ضد الإصلاح الزراعى، أو مكاسب العمال والفلاحين، فى ميرامار انتهازية الاتحاد الاشتراكى، هذا كان حقيقيا، ربما كان ذلك سببا فى عدم البطش بى، أيضا فإن إحساسك بالبراءة يمنحك الشجاعة، بمعنى أننى لم أكن منضما إلى جماعة سرية، أو متصلا بسفارة ما، ليس معقولا أن أكون معاديا للثورة ثم أكتب فى الأهرام، وأمنح كل هذه الفرص التى حصلت عليها..

ابنتى تسأل: من هو سعد زغلول؟

.. لم أعرف أى شخص من زعماء الوفد معرفة شخصية، كل الوفديين الذين أحببتهم، عرفتهم فى جلسة توفيق الحكيم خلال السنوات الأخيرة، هل تذكر محمود غنام؟، قابلته عند توفيق

الحكيم، وقال لى إنه شافنى فى التليفزيون، وسمعنى أقول إن أحب زعيم إلى نفسى هو سعد زغلول، قام نط مفزوعًا من الكرسى، قال لى: أنا افتكرت إنه حيقبض علىّ أنا مش أنت، ورحت أسأل، مين ده؟ بعد ظهور الثلاثية، كثير من الوفديين وجدوا فيها أول كلام جيد عن الوفد، حتى الذين خرجوا عن الوفد قبل الثورة قرأوها وشافوا روحهم فيها، يعنى مثلا إبراهيم عبد الهادى كان يقرأها ويحض الناس على قراءتها، كثير من التاريخ الذى حفلت به الثلاثية كان مات، واسم سعد زغلول لم يكن يذكر فى المدارس، بعد ظهور الوفد الجديد منذ ثلاثة أعوام أرادوا أن يحيوا ذكرى سعد والنحاس، بنتى الصغيرة سمعت اسمًا جديدًا، فسألتنى عن سعد زغلول وهل لا زال يعيش. . من أين هذا؟ طبعًا صدمت صدمة كبيرة. .

مصر الفتاة والإخوان

. . كنت أعرف الإخوان المسلمين، ومصر الفتاة، وأتابعهما، مصر الفتاة بدأت كنشاط شبابى، ومشروع القرش لصناعة مصنع للطرابيش، ولكنها كانت تخفى هدفا سياسيا، وكان زعيمها انتهازيا، أعلن تأييده لمحمد محمود، كيف تؤيد اتجاهًا معتدلاً وأنت تعلن التطرف؟ وفوجئنا بهم وقد أصبحوا فاشيست، عاديناهم، ولم أتعاطف معهم أبدًا، أما الذين كرهتهم منذ البداية، فهم الإخوان المسلمون، الإخوان فى البداية كانت جمعية دينية تضم وفديين وغير وفديين، ولكن عندما وجدناهم بدأوا ينافسون الوفد، عاديناهم، كنا نعتبر أى منافسة للوفد بمثابة إضعاف لقوتك الضاربة، لم يكن الوفد

فى الانتخابات يرشح أمام مرشحى الإخوان إلا الأقباط، وكان مرشحو الوفد يكتسحون.

لم يكن لى أصدقاء من الاتجاهات الأخرى إلا استثناءات محدودة جداً مثل عبد الحميد السحار، الذى كان يميل إلى الإخوان، كان يقول لى تعال قابل الشيخ البنا وبعدين احكم. لكننى لم أكن أطيق هذه السيرة أبداً . .

عبد الناصر..

. . لم ألتق بعبد الناصر فى لقاءات خاصة، إنما رأيته ثلاث مرات عندما حصلت على وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى، طلعت وسلمت عليه ونزلت، المرة الثانية سنة ١٩٥٧، كان هناك عدد من الأدباء العرب، التقى بهم، وكنت أحد الذين ذهبوا إلى اللقاء، المرة الثالثة كانت فى الأهرام، عندما زاره فى سنة ١٩٦٩ إذا لم تخنى الذاكرة، كان يتحدث إلى كل شخص، قال لى:

ـ إزاىّ ناس الحسين بتوعك . . بقالنا زمان ما قريناش لك قصة . .

هيكل قال له:

ـ لا . . دى بكرة طالعه له قصة.

كان يوم خميس، هيكل قال:

ـ نعمل إيه . . ما هى قصصه تودى الليمان . .

عبد الناصر قال له:

ـ لا . . دى تودى رئيس التحرير . .

طبعا عبد الناصر وسعد زغلول طوران مختلفان، عبد الناصر أنجز أشياء بارزة للبلد لا يمكن أن تغفل، من الصعب المقارنة، سعد زغلول كان الشرارة الأولى، كان يريد الاستقلال، عبد الناصر جاء إلى البلد وهى شبه مستقلة، وأنجز ثورة اجتماعية حقيقية، للأسف الثورة اتخذت موقفا معاديا من سعد زغلول، حتى منع اسمه من الكتب والأفلام إلى آخره، ثم دار الزمن دورته، منذ أيام كنت أشاهد فيلما عن وفاة تيتو، وظهر جميع زعماء العالم الذين عرفوا تيتو، ما عدا صورة عبد الناصر، مع أنك تعرف إلى أى مدى كانت علاقة عبد الناصر بتيتو !

التاريخ والمأساة..

كنت عزوفا عن إقامة أى علاقة مع المسؤولين أو السياسيين، لم أسع لمقابلة أحدهم، للأسف تاريخنا الحديث ثورات ونكسات، لو أن الأمور مضت بشكل سليم منذ عهد محمد على لأصبحنا مثل اليابان الآن. السياسى العبقرى هو الذى يفهم الظروف، ثم يتخذ القرار المناسب، إلى أى حد يجب أن يخوض المعارك مع القوى الأجنبية، ومتى؟ . . لو . . ولكن التاريخ لا تصح فيه كلمة لو . . والإنسان لا يتذكر التاريخ إلا بعد أن يصبح الأمر مأساة . .

* * *

. . ترجع ذكرياتى عن الفتوات إلى منطقة الحسين، كان من المعروف فى صغرى أن لكل حارة، أو حى، فتوة، شفت الفتوات فى نوعين من الحوادث، أولا . . الزفة، كانت الزفة تبدأ بعد منتصف الليل، أصحى من النوم على واحد بيغنى والصهبجية يردوا وراءه، وحملة الفوانيس، يمرون من أمام قسم البوليس فى ميدان بيت القاضى، يظهرون من حارة معينة، غالبا فى الزفة يحدث أن يعترضها فتوات، لأنه لو فيه ثارات قديمة، تصبح هذه أحسن فرصة للثأر، الفرح ينقلب إلى نكد، شفت زفة تنقلب إلى خناقة دموية أمام القسم. النوع الثانى، كان الفتوات يتفقون على الخروج إلى الخلاء، فتوة العطوف مثلا مع فتوة قصر الشوق، للخناق، لكل فتوة رجاله، يشيلوا المقاطف المليئة بالطوب والزجاجات، ويتجهون كلهم إلى الخلاء، خلاء كان اسمه أرض المماليك، وبعد أن يحطم كل منهم الآخر، كنت أرى النتيجة، السيارات تحملهم إلى قسم الجمالية، تحرر لهم المحاضر ثم تجىء عربات الإسعاف لتشيل الجرحى، فيه منظر ثالث شفته، لكن لا يمكن أن تسميه فتوة، كان رجلا هائل الحجم، عملاقا أعمى، عادة كان يمشى فى حاله، ولكن إذا استفز فإنه يصبح قوة مهولة، رأيته بعينى يقهر فرقة بوليس كاملة، كان الأمر بالقبض عليه مهمة عسيرة جداً، الحقيقة أننى منذ خمسة عشر عاماً قرأت عنه ريبورتاج إما فى آخر ساعة أو المصور، كان بدون صور، ذكريات يبدو كتبها أحد أبناء المنطقة.

ملحوظة

نستعيد هنا الحكاية رقم «٤١» من حكايات حارتنا.

إبراهيم القرد أضخم بناء إنسانى تشهده عيناى، لا أتصور أن يوجد بين البشر من هو أطول أو أعرض منه. مئذنة، يتحسس طريقه بنبوت رهيب، تحمله قدمان حافيتان كأنهما سلحفتان، يقول أهل حارتنا إنه من لطف الله أن يخلق إبراهيم القرد ضريرا. وهو الشحاذ الوحيد فى حارتنا، فمنذ احترف التسول لم يتجرأ آخر على ترديد «الله يا محسنين».

يقعد الساعات متربعا عند مدخل القبو، معتمداً على نبوته، يصمت طويلا، ينفجر بصوت كالرعد «يا أكرم من سئل»، يجيئه الطعام فى أوقاته، تتراكم الملاليم فى جيبه، يتبادل التحيات مع السابلة.

وبسبب من حدة التناقض بين قوته الخارقة وبين حرفته المستضعفة فإنه مثار للابتسام، ولكن بلا حنق أو حقد، فحسبه أنه ابن حارتنا وحسبه أنه لا يستثمر قوته فى العدوان!

ويشاء الحظ أن أشهد معركته الكبرى.

ففى أحد المواسم يهبط حارتنا زلومة - شحاذ ضرير أيضًا - من القبو راجعا من القرافة مثقلا بالفطير والتمر، فيختار مجلسا غير بعيد من القرد ليستريح من عناء يوم مظفر.

ها هما الشحاذان الضريران يجلسان على جانبى مدخل القبو كأنهما حارسان. ويتلقى القرد بأذنيه الحادتين رسائل خفية من

حركات شفتى زلومة، كما يتلقى أنفه رسائل مغرية من جراب الأغذية، يتجه رأسه نحو الرجل باهتمام وتساؤل وتحفز.

ويهتف زلومة فى غبطة:

- يا حسين يا حبيب النبى يا سيد الشهداء.. مدد.

فيقطب إبراهيم القرد ويتساءل بغلظة:

- مــن؟

فيجيبه زلومة ببراءة:

- سائل على وجه الكريم!

- وماذا جاء بك إلى هنا يا ابن الزانية؟

فيسأل زلومة بحدة:

- أملكت أرض الله؟

- ألا ترانى؟

- إنى أرى بنور القلب.

فيتمتم إبراهيم القرد:

- عظيم.

يتمطى بنيانه قائما ويمضى نحو زلومة وكأنما يراه، يقبض على منكبه، لا أدرى ماذا يفعل به، ولكنى أرى الرجل وهو يصرخ ويتلوى ويستغيث. ويتجمهر أناس كثيرون. يخلصون بينهما بعناء شديد، يبدو من البعض كلمات غاضبة:

ـ افتراء وظلم.

ـ أنت وحش.

ـ أنت لا تخاف الله!

ويصيح إبراهيم القرد:

ـ عليكم اللعنات.

ويغضب أحدهم فيرميه بسلة محطمة ملقاة.

ويثور القرد. أجل يثور ثورة أكبر من ثورة مظاهرة زاخرة. كأنما هرست له دملا. يجن جنونه، يهدر بأقذع الشتائم، يشهر نبوته ويدور به ويضرب به كل مكان فيرتطم بالجدران والأشياء، وينشر الفزع فى دائرة آخذة فى الاتساع. يتفرق الرجال، يركضون، يتلاطمون، يعثرون فيسقطون، يصيحون، يستغيثون، القرد ينقلب قوة عمياء مدمرة تجتاح الحارة، يلوذ الناس بالأزقة الجانبية، تغلق الدكاكين، تتحطم الكراسى والسلع وتنقلب السلال والمقاطف.

وتتدفق قوات الشرطة على الحارة. يذهل الضابط عندما يدرك أن المعتدى ما هو إلا شحاذ ضرير، ثم يأمر جنوده بإلقاء القبض عليه.

وتتجدد المعركة بين القرد والجنود، يخوضها الجنود عزلا من السلاح بأمر من الضابط، ولكنهم لا يلبثون أن يتطايروا فى الهواء كاللعب، إنه قوة لا تغلب.

ويتجمع الغلمان فى الأطراف ويشجعون القرد بهتاف صاخب. الحق إننى لم أر رجال الداخلية من قبل على حال من التعاسة كما

أراهم الآن، ويصيح الضابط من داخل بدلته البيضاء ذات الشريط الأحمر:

ـ يا قرد. ستضرب بالرصاص إن لم تسلم نفسك فى الحال.

ولكن القرد يتمادى فى التحدى منتشيا بثوران القوة والنصر. ويرحمه الضابط فلا يأمر باستعمال هراوة أو بندقية ولكنه يستدعى بعض رجال المطافئ.

ويتدفق الماء من الخرطوم كالشلال فيصب قوته التى لا مفر منها على القرد. يرتبك القرد ويتعثر ويدور حول نفسه مترنحا منهزما حانقا قاذفا بسيل من السباب المقذع، ثم يتهاوى فوق أديم الأرض بلا حول فينقض عليه الجنود بالأغلال.

ويغيب القرد عن حارتنا فترة من الزمن، ولكنه يرجع ذات يوم ببنيانه الضخم وهامته المرفوعة فيلقى استقبالا حميما وتحيات حارة... فيواصل حياته السابقة متعملقا عند مدخل القبو مثل أسطورة.

عرابى وسعد..

انتقلت إلى العباسية. اشتبكت صورة الفتوة مع صورة الشجيع الذى رأيته فى السينما، كنت أرى أفلام الشجيع فى سينما الكلوب المصرى وعمرى أربع سنوات، سينما الكلوب أقدم سينما فى القاهرة تقريبا، فى العباسية كنا نسكن فى حى متوسط لكنه يقع بين

منطقتين شعبيتين، الحسينية وكان لها فتوة، والوايلى وكان له فتوة، الأحياء الراقية طبقيا والتى كان من غير الممكن ظهور فتوة منها، كانت تتبع فتوة أقرب حى شعبى، يعنى العباسية مثلا كانت تتبع عرابى فتوة الحسينية، ومصر الجديدة تقع فى نطاق فتوة الوايلى، بدأنا نسمع عن عرابى الأساطير، فى هذه الفترة رأيت اثنين من أعوانه، وكان من الممكن تأجير بعضهم لضرب شخص معين أو ما يشابه ذلك، وكنا نسمع عن مغامراتهم، ويبدو أثرهم أيام الانتخابات، طبعا أثرهم فى الثورة سنة ١٩١٩ كان معروفا، قادوا المقاومة ضد الإنجليز، وفى الانتخابات كان تأثيرهم مماثلا، عرابى هو الذى ضيع فرصة نجاح سليم بك والد كمال سليم المخرج السينمائى، مع أن عرابى كان وفديا وسليم بك وفدى أيضًا، ولكن أسقطه لحساب وفدى آخر، وهو عبد الحميد البنان ابن الحسينية، كانت له سراى فى الحسينية نفسها، سليم بك رشحه الوفد، والبنان رشح نفسه على مبادئ الوفد، سليم شكا من حى الحسينية والجمالية لانحيازهما إلى البنان، سمعنا أن سعد زغلول قرر أن يذهب بنفسه إلى سرادق سليم بك لمساندته، جاء موكب سعد زغلول واخترق الحسينية، كان يوما لا مثيل له، عند رأس الحسينية كان عرابى وعصابته فى انتظار موكب سعد زغلول، بمجرد ظهور الموكب علت صيحاتهم، يحيا سعد، يحيا سعد، ومبالغة فى الإكرام، شالوا الأتوموبيل ودخلوا به سرادق البنان، الخبر مشى فى العباسية زى النار، سعد زغلول فى سرادق البنان. . سليم بك خسر تأمينه ولم تقم له قائمة . .

الأوتـــوبيـــس

. . فى العـشـرينات بدأت شـركـة الأوتوبيس فى تسـيـير خط يمر بالحسينية، ولكن سرعان ما حدثت متاعب، إذ إن صبية عرابى كانوا يتصدون للركاب والأوتوبيسات، كان من الممكن أن تكون جالسا فى العربة وتفاجأ بأحدهم قد صفعك على قفاك، حارت الشركة، ماذا تفعل؟ أخيراً لجأت إلى عرابى، وتم تعيين عدد من الصبية كمسارية فى الشركة، أو عمالاً يرتدون الزى الأصفر ويمسكون الصفارات، ويقفون فى الطريق لتأمين العربات والركاب.

أما نهاية الفتوات، فجاءت نتيجة لحادثة وقعت سنة ١٩٣٠، وسمعنا بها ونحن فى مصيف إسكندرية، إذ حدث أن عرابى ضرب ضابطا إنجليزيا، وجرده من ثيابه تماما، وذهب الضابط عاريًا كما ولدته أمه إلى الداخلية، وسرعان ما تم تجريد قوة قبضت على عرابى، وضربوه فى الداخلية ضربا مفزعا، كسر الرجل وأنهى سطوته، وتحول عرابى من رجل كان يحمى مأمور قسم الظاهر إلى رجل يمكن اعتقاله فى أى لحظة لو شكاه أى إنسان، مجرد شكوى صغيرة، ظل عرابى طول عمره تحت المراقبة، هل تذكر المقهى الذى كنا نلتقى فيه مساء كل خميس، كان اسمه مقهى أحمد عطية مع أن صاحبه فى الأصل عرابى، لأن عرابى لم يكن يستطيع أن يضع اسمه على أى شيء، أحيانا كانت تعاوده العنجهية فيهب فى الزبائن، وسرعان ما يمضى إليهم ويطلب الصفح، فى أيام انكساره تلك رأيته، أنت لم تره، لأنك بدأت تزورنى بعد وفاته، كان منظره جليلا، يشبه زعيم حزب، أو قائدًا كبيراً، شخصية! وكان شهمًا جداً، وشخصيته جذابة، فارس.

.. وفى الأدب، كتبت عن الفتوة الواقعى قصة قصيرة واحدة، لم أضمها إلى أى مجموعات قصصية، نشرت فى الثلاثينات، استخدامى للفتوة بعد ذلك يشبه استخدامى للحارة، يعنى فى أولاد حارتنا كان الفتوات رمز القوة الغاشمة، فى الحرافيش مثل الحكام، الظالمين، والصالحين استخدام رمزى، فى قصة «الرجل الثانى» يشبه الفتوة القدر، فى الحارة ستجد شخصيات تقليدية لها دلالة، مثل الفتوة، والمؤذن، وشيخ الحارة، وكما عرفت الفتوات من الرجال، فقد عرفت فتوات من النساء، شفت فتواية، أنا أول من قدم إحداهن فى الفيلم المصرى، كانت بائعة فراخ فى الحسينية، الفتواية التى شفتها كانت ذات قوة مهولة، بضربة ذراع تطيح برجل جامد، أنا شفت نساء يتشاجرن، أذكر خناقة نسائية فى محطة الرمل، ربطن الملاءة حول خصورهن، ودخلن ضرب لبعض، وقف الميدان على رجل، لكن هذا ليس من علامات الفتواية، الأخرى امرأة يرتعش أمامها أى رجل، المرأة المعلمة تعتبر درجة أقل، الظروف ربما دفعتها إلى السوق، ولكن الفتواية التى أذكرها كانت شيئا مهولا ..

المقاهى..

.. المقهى يلعب دوراً كبيراً فى رواياتى، وقبل ذلك فى حياتنا كلنا، لم يكن هناك نواد، المقهى هو محور الصداقة، البيوت لا تسمح بالزيطة، فى البداية اتسع لنا الشارع، حتى تجرأنا على المقهى، عرفت المقهى فى سن مبكرة، منذ أوائل الثانوى بفضل سيد الشماع صديقنا فى الغورية، كان لنا مقهى فى الدراسة، فى كل حتة،

لكن أشهر مقهى جلسنا فيه الفيشاوى ثم عرابى ومقهى زقاق المدق، والفردوس وركس، ولونا بارك، لونا بارك افتتحناها، أول ناس دخلوها أثناء الفتح، كان فيها شيشة معتبرة، كنا نشرب الشيشة، ونحتسى بعض كؤوس الويسكى، ونستمع إلى أم كلثوم، آه. . ذكرتنى بمقهى أحمد عبده الذى ذكرته فى الثلاثية، وكان كمال يلتقى فيه بصديقه فؤاد الحمزاوى، هذا المقهى كنت أحبه، كان تحت الأرض، تنزل سلم، تجد دائرة، فى الوسط فسقية، وتحيطها مقاصير صغيرة، ومشهورة بالشاى، أحسن شاى، الحقيقة أنا سميته قهوة أحمد عبده، لا أذكر اسمها الحقيقى، ألم يحدثك عنها أحد من أهالى الحسين؟ آه. . نسيها الناس إذن، هدمت منذ سنوات بعيدة، كان مقهى جميلا، وكان أحب المقاهى إلى نفسى. .

ملحوظـــة

.. أذكر فى مقهى عرابى، أن لفت نظرى فى أحد الأيام رجل أبيض الشعر، أبيض الوجه، عيناه جاحظتان، جاحظتان إلى الخارج، أصابعه نحيلة مدببة الأطراف، جاء، جلس، لاحظت أن الجرسون يناديه أهلا بحمزة باشا..

ثم جاء بشطرنج ونرجيلة موصى عليها، سألت عن الرجل، قيل لى إنه حمزة البسيونى، مدير السجن الشهير بفظاعته.. التفت يومها إلى نجيب محفوظ وقلت له: هل تعرف من يكون هذا الشخص؟ هز رأسه نفيا، قلت: إنه حمزة البسيونى..

ميلاد الكرنك

.. آه .. طبعا أذكر تلك اللحظة، فى هذه الجلسة ولدت رواية الكرنك، لم أر حمزة البسيونى إلا فى هذه المرة، ثم قتل فى حادث بعد ذلك بأسبوعين، كان جلوسى بمقهى الفيشاوى يوحى لى بالتفكير، كل نفَس شيشة كان يطلع بمنظر... كان خيالى يصبح نشيطا جداً أثناء تدخين الشيشة، كان معظم وقتى أقضيه فى الفيشاوى أيام العطلات، المقهى عالم من الأنس، ملتقى الأصحاب، أما ندوة مقهى الأوبرا فبدأت عام ١٩٤٣، بدأت مع تكوين لجنة التأليف والترجمة والنشر، كنا نجلس أولا بمقهى عرابى، لكن شلة الأدباء الجدد لم تنسجم مع شلة عرابى من أصدقاء العباسية، فانتقلنا إلى كازينو الأوبرا، استمررنا فيه حتى طاردنا البوليس فى بداية الستينات، أظن ١٩٦١، ١٩٦٢، التاريخ راح من ذهنى، فيها عرفت عدداً كبيراً من الأدباء، جاء سلامة موسى، ولويس عوض، جاء وكان يعرض فكرة إنشاء مجلة، كان يعتقد أن السحار بإمكانه أن يمول مجلة، وجاء إلينا شكرى عياد، وبدر الديب، وفتحى غانم، معظم أدباء الجيل التالى لنا، فى الآخر أصبح فيها عمل، كنا نقرأ فيها أعمالا أدبية، وعندما قررت إنهاءها، الضابط قال لى أرجوك أبق على الندوة.. إنها مفيدة لنا، طبعًا كانوا يكتبون منها التقارير، المهم أن الندوة اكتشفت صدفة، فى إحدى المرات كان موكب لعبد الناصر يمر فى الشارع، لاحظ رجال الأمن أن عدداً يصعدون إلى المقهى، صعد أحدهم، أطل، فوجئ بعددنا، عاد وأجرى تحقيقا سريعا، أنتم من؟ لماذا تجلسون هنا؟ وقال: إن هذا اجتماع، وطلب منا أن نأخذ إذنا من البوليس كل أسبوع، وبدأ أحد رجال البوليس يحضر إلى

الندوة، كان يتتبع المناقشات الأدبية بدهشة، ويصغى إلى أسماء مثل كافكا، وبروست، ومصطلحات كالواقعية والمودرنيزم وخلافه، طلب منى أن أساعده فى تلخيص ما يجرى، يعنى بالعربى أكتب أنا محضر الجلسة للبوليس، لكن ذلك كان أمراً لا يطاق. . وانتهت الندوة. . بعدها انتقلنا إلى مقهى سفينكس أمام سينما راديو، كنا فى البداية ثلاثة أصدقاء أو أربعة، ثم بدأ توافد الأدباء، فى هذا المقهى تعرفت إلى جيل الستينات، المقاهى بالنسبة لى ذكريات لا تنتهى، وكلها ذكريات غالية ترتبط بالأصحاب، والشباب، وأحلى أيام العمر. .

* * *

الإسكندرية أخيراً. .

الإسكندرية قطر الندى، نفثة السحابة البيضاء، مهبط الشعاع المغسول بماء السماء، وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع.

ميرامار

المكـــان..

.. إسكندرية.. وتوفيق الحكيم..

. . الإسكندرية هى المكان الوحيد الذى أسافر إليه بانتظام خارج القاهرة، بدأت علاقتى بالإسكندرية منذ انتقالنا إلى العباسية، أول مرة ذهبت مع شقيقتى فى الصيف، وفى مرحلة الدراسة الثانوية،

اعتدت الذهاب إلى الإسكندرية فى الإجازات الصيفية، كلما نجحت، يكافئنى والدى فيعطينى عشرة جنيهات، وكان هذا المبلغ يكفينى لمدة شهر كامل بالإضافة إلى ركوبى الدرجة الثانية فى القطار خلال الذهاب والإياب، كان عمى يقول لوالدى، أنت تفسده لأن نجيب عندما يتوظف لن يحصل على العشرة جنيهات، مما أذكره، أننا كنا نتناول الغداء، بالمناسبة كان زميلى فى السفر صديقى إبراهيم فهمى من شلة العباسية، أصبح فيما بعد من الضباط الأحرار، ثم رئيسا لشركة، كنا نتغدى عند حميدو، فى هذا الوقت لم يكن الكورنيش قد بنى، وكان فيه بلاجين فقط، إما الشاطبى أو الأنفوشى، كان حميدو عندما يجد مصيفين يترددون عليه يوميًا، يعتبرهم زبائنه، كنا نطلب مثلا خضاراً وأرزاً أو سمكًا، ولأننا زبائن دائمون يقدم لنا طبقًا هدية من المحل، هل تعرف هذا عبارة عن إية؟ عبارة عن سمكتى بورى من الحجم الكبير، أذكر أننى دخلت مطعمًا ألمانيًا فى الإسكندرية، مطعم فخم جداً، كان فسيحًا ومن طابقين، مكانه الآن معرض عمر أفندى فى شارع صلاح سالم، وكان المطعم فيه جرسونات يرتدون أزياء مهيبة، جلست، فوجئت بأربعة، واحد وضع أمامى الطبق، الثانى وضع الفوطة، الثالث قدم إلىَّ قائمة الطعام، الرابع . . . ، عندما وجدت هذا الاحتفاء، انتهزت فرصة ابتعادهم عنى وانسحبت، خرجت بسرعة إلى الشارع، كانت الأكلة ستكلفنى جنيهًا فى وقت كنت أقضى فيه شهرًا كاملاً بعشرة جنيهات، لهذا جريت.

بيتـــرو..

. . لم أنقطع عن الإسكندرية أبداً منذ ذلك الحين إلا فى أيام الحرب العالمية الثانية، لم يكن أحد يغامر بالذهاب، كان لنا فرع من عائلتنا فى أحد أحياء الإسكندرية، قصف الحى بالقنابل، ومات كل أفراد العائلة، أو بمعنى آخر أبيد هذا الفرع منا، عدت إلى الإسكندرية فى أول سنة بعد الحرب، وكان يصحبنى عادل كامل ومحمد عفيفى، وكنت خلال سنوات الحرب أقضى وقت الإجازة بمقاهى القاهرة، تسألنى عن بيترو، المقهى الجميل الذى كنت أرتاده فى الإسكندرية، للأسف هدم الآن، أزيل فى العام قبل الماضى، تعرفت بالأستاذ توفيق الحكيم سنة ١٩٤٧ بعد صدور زقاق المدق، الأستاذ محمد متولى الذى كان مديراً للأوبرا قال لى إن الأستاذ توفيق الحكيم يريد أن يلتقى بك، إنه يقعد فى المقهى المواجه للبنك الأهلى، ربما كان هذا سنة ١٩٤٨، رحت قابلته، سألنى. . أنت بتروح إسكندرية؟ قلت نعم، قال لى إنه يقعد بمقهى فى سيدى بشر، فى هذه الفترة كانت الحساسية فى عينى قد اشتدت، كان أصحابى ينزلون البحر وأنا أبقى على الشاطئ، أثناء اتجاهى إلى الأستاذ توفيق الحكيم شفت مقهى بيترو، كان المقهى الآخر مطلاً على الرصيف مباشرة، عرضة لإزعاج المارة، قلت له، أنا شفت مقهى هادئًا ومعزولاً، تستطيع أن تخلو فيه إلى نفسك أنت وأصحابك، والمقهى قريب، منذ ذلك الحين بدأ جلوسنا بمقهى بيترو، أنا الذى اكتشفت بيترو، وبعد أن قامت الثورة ظهر الباشوات فى المقهى وشفتهم فى حالة الخوف الشديد التى كانوا عليها، من الذكريات الطريفة أن أحدهم كان فى حاله، فيه شخص دمه خفيف كان يتكلم عن فيلم بينما الباشا سارح بنظره فى البحر،

قال هذا الشخص « . . دا حتى من رأى سعادة الباشا . . » الكلام عن الفيلم. لكن الباشا فزع فجأة وصاح «أنا ماليش رأى ولا بتكلم فى السياسة»، قال له «دا احنا بنتكلم فى الفيلم»، الباشا قال له «أنا عارف موضوعه إيه . . أنا ماليش دعوة» . . كان هناك باشا آخر، المرجوشى طول عمره تاجر، قبل الثورة بشهور صفى تجارته، وقال إنه اكتفى بالتجارة، وأن أولاده تخرجوا من الجامعات وأنه يحب الريف، باع كل شىء واشترى عزبة خمسمائة فدان، قامت الثورة، أممت العزبة بعد تحديد الملكية، طبعًا أنت تعرف أن الثورة لم تمس التجار . . حظ . . لم يكن المرجوشى زراعيًا ولا فلاحًا، طول عمره تاجر، لكنها مداعبة الحظ، بدأت علاقتى بتوفيق الحكيم من هنا، طبعًا هو حديثه ممتع جدًا، وكثيرًا ما أكون مستمعًا إليه . .

الخـــارج..

. . فيما عدا الإسكندرية التى أسافر إليها بانتظام، لم أسافر إلى الخارج إلا مرتين، مرة إلى يوغسلافيا، ومرة إلى اليمن، إننى أكره السفر بطبيعتى، ولكننى استمتعت بالرحلتين، وحتى الآن أحن إلى المناظر التى رأيتها سواء فى يوغسلافيا، أو اليمن، لم أكتئب هناك. بالعكس، استمتعت، علاقتى بالسفر غريبة، إذا قلت لى سافر، فكل شىء يضطرب، كأنك طربقت الدنيا فوق دماغى، ولكن إذا سافرت أستمتع حقيقة، لم أكن أضيق بالسفر فى صدر شبابى، والدليل على ذلك أننى رشحت لبعثتين، بعثة لدراسة الفلسفة، وأخرى لدراسة اللغة، قل إن بعثة الفلسفة ربما غيرت حياتى، لكن بعثة اللغة كانت

ستفيدنى بلا شك، كنت سأدرس اللغة الفرنسية بعمق، وكنت سأرجع مدرسًا بالجامعة بدلا من الوظيفة، وكنت سأنتهز فرصة وجودى فى باريس لأدرس الأدب والفن، لم أكن كارهًا للسفر، ربما كانت كراهيتى للسفر الآن جاءت من عدم المرونة نتيجة للنظام الذى أخذت به نفسى منذ تفرغت للأدب، السفر يكسر هذا النظام، كنت أتمنى أن أشوف هذه الدنيا، طبعًا أنت تعرف لماذا حرمت من البعثتين. . كان الفائز الأول والثالث قبطيين، وكان ترتيبى الثانى، ظنوا أننى قبطى أيضًا بسبب اسمى نجيب محفوظ، واستكثرت اللجنة سفر ثلاثة أقباط، وهكذا حرمت من رؤية الدنيا. . فى الإسكندرية كنا نسهر مع الشلة، فى الصباح يذهب أصدقائى إلى البحر، وأمشى أنا على الشاطئ، أبدأ رحلتى مشيًا على الأقدام حتى الشاطبى، وفى اليوم التالى أبدأ من الشاطبى إلى الإبراهيمية، وفى اليوم الثالث أمشى من الإبراهيمية إلى كليوباترة. . وهكذا، واستمر هذا حتى تعرفت بتوفيق الحكيم. .

ملحوظة

معظم روايات نجيب محفوظ تدور أحداثها فى القاهرة، لا يمتد المكان خارج القاهرة إلا فيما ندر، ولكن هناك مكان آخر يبدو قويًا، وبنفس درجة الحضور، إنه الإسكندرية، خاصة فى «ميرامار» و«السمان والخريف»، وبعض القصص القصيرة، وهناك قصة قصيرة واحدة تجرى أحداثها خارج مصر كتبها نجيب محفوظ بعد عودته من اليمن..

روض الفرج.. وأم كلثوم..

. . نعم، يظهر روض الفرج كمكان له ملامحه الخاصة فى عدد كبير من أعمالى، أذكر أن والدى صحبنى إليه، كان هناك عدد كبير من المسارح تعيد الموسم كله، يعنى تجد مسرحًا يقلد الكسار، وآخر يقلد الريحانى، كله مقلدين، كل روايات الريحانى القديمة شفناها بواسطة ناس آخرين، طبعًا كان هناك مسارح راقصة، وفرق فنية، أما أم كلثوم فلم أسمعها فى البداية هناك، سمعناها فى أسطوانات سنة ١٩٢٦، تصور أننى تشاجرت مرة مع واحد لأنه قال إن أم كلثوم أحسن من منيرة المهدية، كنت من عشاق منيرة المهدية.

ملحوظة

كتب نجيب محفوظ فى جريدة الأيام فى ٢١ ديسمبر ١٩٤٣ مقالا عن أم كلثوم قال فيه:

«وما من جمود مثل أن تقارن أى صوت من الأصوات المصرية بهذا الصوت المتعالى، فقل فى غناء أسمهان وليلى مراد ونور الهدى ما تشاء، إلا أن تقارنه بصوت أم كلثوم فتضره من حيث أردت أن تنفعه، وتهينه من حيث أردت أن تكرمه، وتمرغه فى التراب وقد أردت أن تسمو به للسماء».

وبمناسبة أم كلثوم فإننى أميل إلى الموسيقى الشرقية، تربيت عليها، وكان لدينا فونغراف فى بيتنا بالجمالية، حفظت وأنا صغير فى بيت القاضى أغانى سيد درويش من الشوارع، لم يكن هناك راديو أو

أسطوانات، لكننى حفظتها بدون أن أعرف صاحبها حتى تقدم بى العمر وسمعتها فى الإذاعة، كانت مفاجأة لى. . الله دا أنا كنت باغنى الحاجات دى، درست الموسيقى الكلاسيك من الكتب، وكنت أحضر السهرات التى تقيمها الفرق الزائرة، أما عن حبى لآلة القانون، فلأنه أحب الآلات إلى نفسى، كان التخت زمان محصوراً جداً، عواد، وكمنجاتى، ورقاق، وقانون، كنت أفضل هذه الآلة، ودخلت معهد الموسيقى، تعلمت لمدة سنة، كنت فى الجامعة، وكان لا يوجد امتحان بين السنة الثالثة والرابعة، فى هذه السنة دخلت المعهد، وكنت أدرس فلسفة الجمال، وظننت أن هذا المعهد يدرس الفلسفة الجمالية فى الموسيقى، الفن التشكيلى عرفته من الكتب، لكن الموسيقى كيف أعرف الجانب الجمالى فيها، قلت سأجده هنا. . فى المعهد. . وطبعًا لم أجده. .

السينما .. أثمرت فى سنوات اليأس الأدبى..

. . السينما دخلت حياتى من الخارج، لم أكن أعرف عنها شيئا، نعم كنت أحب أن أشوف سينما، لكن كيف يعد هذا الفيلم؟ لا أدرى . . كل ما أعرفه أن هذا الفيلم لرودلف فالنتينو، لمارى بيكفورد . . إلخ، لا أعرف أن هناك كاتب سيناريو أو غيره، فى سنة ١٩٤٧، صديقى فؤاد نويرة قال لى: صلاح أبو سيف المخرج عاوز يقابلك، فى هذه الفترة كانت لى عدة روايات آخرها زقاق المدق، رحت مع فؤاد، كنا فى الصيف، قابلنا صلاح أبو سيف فى شركة تلحمى السينمائية، قال لى: الواقع أنا قرأت لك عبث الأقدار وتبينت منها أنك من الممكن أن تكون كاتب سيناريو كويس، قال لى: إنه لديه قصة عنترة وعبلة، قلت له: أنا ليس لدىَّ أى فكرة عن الموضوع، قال: معلهش ستعرف السيناريو، فؤاد شجعنى على قبول العرض، بدأ أبو سيف يطلب منى حاجة، حاجة، مثلا، يقول لى: موضوع عنترة وعبلة كذا أو كذا، اكتبه لنا فى عشر صفحات، أكتب القصة، أذهب لتسليمها وأنا أظن أن مهمتى انتهت، يقرأها، يوافقون، وإذا به يقول لى: لا . . نحن لم نبدأ بعد. إن هذه هى فكرة الموضوع، نريد تحويله إلى سيناريو، تخيل الفيلم، أى نقطة سنبدأ

بها؟ ويبدأ يشرح لى الموضوع، وأنا أطبق ذلك عمليا، بعد المعالجة، علمنى تقسيم المناظر، وبعد أن قرأ نتيجة عملى أهدى لى كتبا فى فن السينما، واشتريت أنا بعض الكتب الأخرى. حقيقة، تعلمت السيناريو على يدى صلاح أبو سيف. . ، المهم أنه طلب منى أن أعمل معه باستمرار، لكننى اعتذرت لأننى متفرغ للأدب، قال لى: إنه يعمل فى الصيف فقط، وقال لى. . إذا كانت حساسية عينيك تعوقك، يمكنك أن تملى على كمال عطية، بدأت أكتب سيناريوهات، أما أن أكتب القصة والسيناريو، أو أعد السيناريو لقصة، أود أن أقول لك إن السيناريو كتبته فى الفترات التى كنت أتوقف خلالها عن الكتابة الأدبية، ولو أنه عطلنى لحظة واحدة لتركته بدون تردد، كثيرا ما طلب منى مخرجون آخرون أن أعمل معهم لكننى اعتذرت، صلاح أبو سيف كان مقلاً، كان يعمل فيلما فى السنة، كان مريحا معى، لم أعمل باندماج إلا فى سنوات اليأس الأدبى التى تلت كتابة الثلاثية، ذهبت وسجلت نفسى فى النقابة، وأصبحت أعمل مع أى مخرج، توقفت عن كتابة السيناريو مرة أخرى عندما عينت مديرا للرقابة، وكنت متعاقدا على سبعة سيناريوهات، كان ذلك فى ١٩٥٩ . الحقيقة أننى لم أكن سعيدا بكتابة السيناريو، أنت كروائى رب عملك، ولكن هذا نوع من الخلق الجماعى، تقول يمين، تجد من يقول لك شمال أحسن. بعض هذه الآراء تكون وجيهة فنيا، آخر يبدى آراء من وجهة نظر تجارية، واحد يبدى رأيا لأنه يحب الممثلة، لم أكن سعيدا بهذه العملية، ترْك السيناريو بعد النجاح فيه تضحية لا مثيل لها، تضحية مادية طبعا، مجموع ما أنتجته حوالى ثلاثين فيلما. .

السينما والتركيز..

. . الغريب أننى كتبت هذا العدد كله من الأفلام وقصصى لم تجد من ينتجها، كنت أجد من يقول لى إنها صعبة، حتى أعد أحمد عباس صالح رواية «بداية ونهاية» لإذاعة صوت العرب، وعندئذ التفت إليها أهل السينما وقالوا هاتوا الرواية دى. . الله، طيب ما الرواية موجودة من الأول. . ، ثم أنتجت كل الروايات ونجحت، أول فيلم أعد لى «بداية ونهاية». . ، نعم أوافقك على ما تقوله، بالفعل المسلسلات التليفزيونية تمثل اليوم بالنسبة للأديب إغراء كبيرا، المسلسل يساوى ثروة، وكانت السيناريوهات فى الخمسينات تمثل إغراء ضخما، لكننى لم أكتب سيناريو إلا فى الوقت الذى كنت غير مشغول فيه بالأدب، أو خلال فترة اليأس التى حدثتك عنها، كثيرا ما رفضت عروضا مغرية، ولو أن ظروفى فى العمل مع صلاح أبو سيف كانت ملائمة لى لما دخلت هذا المجال أبدا، ومما لا شك فيه، بالقطع، أننى لم أكتب أى شيء فى حياتى وعينى على السينما، لم يحدث هذا إطلاقا، الأدب أدب، والدليل أن الروايات التى تحولت إلى أفلام، تحولت بصعوبة ومعجزة، هل ممكن لمؤلف أن يكتب ثرثرة فوق النيل وعينه على السينما؟ لا بالقطع، لكن السينما تؤثر من ناحية أخرى، الإيقاع سريع، التركيز، وهذا تأثير عام للسينما فى الأدب، إننى أتساءل، لماذا اتجهت إلى التركيز بعد الإسهاب، هناك جملة أسباب، على رأسها الزمن وإيقاعه، يعنى لو أنا فى عمر مناسب، لا يمكننى كتابة الثلاثية الآن مع هذا الإيقاع، وتلك الظروف المحيطة بنا الآن، أضف إلى ذلك تأثير السينما والتليفزيون، وما يتميزان به من تركيز، وهذا يؤثر فى

أذواق الناس، وبالتالى فإن القراءة تتأثر أيضا. إن الجملة التى تغنى عن صفحة هى الأفضل الآن، فضلا عن ذلك فإن أدبى كان طبيعيا، وأصبح الآن فكريا، والفكر لا يحتاج إلى إسهاب، كل العوامل أدت إلى التركيز، أفادتنى السينما فى التركيز، فيه ناس يقولون إن المونتاج أخذه الأدب من السينما، لكن هذا غير صحيح، إنه فى الأدب قبل أن يكون فى السينما، كذلك الرجوع إلى الماضى، على أية حال فإن الفنون تؤثر فى بعضها.

.. لا .. لم تمثل السينما إغراء ماديا فى أى يوم من الأيام، سأقول لك ما هو أكثر، الأستاذ مصطفى أمين أهدانى آخر كتاب له وقد صدره بإهداء قال فيه «إلى الكاتب الذى أردته أن يكتب يوما فى أخبار اليوم فرفض»، ولهذا الإهداء قصة، إذ كنت موظفا فى الأوقاف سنة ١٩٤٤، كان مرتبى ثمانية جنيهات، أرسل إلىَّ مع إحدى قريباتى التى كانت تعمل فى أخبار اليوم، وطلب منى أن أكتب قصتين فى الشهر مقابل خمسة عشر جنيها، كنت فى أشد فترات حياتى إرهاقا من الناحية المادية، مرتبى ضئيل، مسؤول عن البيت بعد وفاة الوالدة، كان إغراء ماديا قويا، خاصة وأنهم لم يطلبوا قصة قصيرة ذات مواصفات معينة، رفضت. لماذا؟ لأننى لم أكتب القصة القصيرة بدافع كتابة القصة القصيرة إلا فى الستينات بعد «أولاد حارتنا»، وكنت فى هذه الفترة مشغولاً بكتابة الرواية. الأستاذ مصطفى أمين لم يصدق أننى رفضت العرض لرغبتى فى التفرغ إلى الرواية، ففسر الأمر على أننى وفدى، وأخبار اليوم كانت تهاجم النحاس وقتئذ.. لم أعرف بهذا التفسير إلا منذ شهر عن طريق صديقى محمد عفيفى..

ملحـوظـــة

الطريف أننى سـألت مصطفى أمين فى هـذه الواقعـة فذكر أنـه قرأ لنجيب محـفوظ عام ١٩٤٣، وأن رواياته لفتت نظره، فـأرسل إليه مع قـريبة له كـانت تعمـل بأخبـار اليوم يطلـب مـنه أن يكتب قصـتين فى الشهر، أن يكتب بالتـبادل مع توفيق الحكيم، وكان الحكيم اسمـا كبيرا فى هذا الوقت، ويتقـاضى أربعين جنيها فى الأسبـوع الواحد. وعندئذ اقترح مكافأة لنجـيب محفوظ عشرين جنيهـا فى القصة الواحدة، لأن اسم نجيب محفوظ لم يكن ذائع الصيت كتوفيق الحكيم، وهكذا يكون المبلغ الذى عرض عـلى نجيب محـفوظ أربعين جنيـها، وليس خمـسة عشر جنيها، أيهما نسى؟

هل نسى نجيب محفوظ الرقم مع الزمن؟

أم أن الوسيط لم يبلغ الرقم الحقيقى إلى نجيب محفوظ؟

* * *

. . رفضـت العرض لأنه كـان سيعطلنى عن الرواية ، أما القـصص القصـيرة التى نشرتهـا قبل ذلك فقد كـان معظمهـا قصصـا قصيرة عبارة عن ملخصـات لروايات قديمة لم تنشر ، أمـا القصة القصيرة فلم أكتبهـا نتيجة رغبة حقيقية إلا فى الستينات . . لم أضح بأى شىء يعطلنى عن الأدب ، ولهـذا فـإن السينمـا لم تجـرفنى أبدا بعـيدا عن الأدب ، ولـم أوقف كـتابة عـمل أدبى لأكـتب سيناريو أو أى شىء آخـر . . لـم يكـن هناك أى شىء يعطلنى عن الأدب ، عن الكتابة . .

توقف

. . حدث أن توقفت مرتين فى حياتى عن الكتابة، المرة الأولى سنة ١٩٥٢ ، بعد الثلاثية، كان لدىَّ موضوعات لا ينقصها إلا الكتابة، وماتت الرغبة، المرة الثانية بعد الخامس من يونيو ١٩٦٧ ، رغبة وانفعال شديد، ولا موضوعات، لهذا كنت أبدأ من الصفر ولا أدرى كيف سأنتهى . .

لماذا هذا الموت فى كلتا الحالتين؟

كنت دائما أقول تفسيرا لمن يسألنى عن الفترة الأولى، كنت أقول إن الثورة حققت الأهداف، وأن المجتمع لم يعد فيه القضايا التى تستفزنى، كان سببا يبعد عنى الشبهات، خاصة وأن السؤال حول أسباب التوقف له جانب سياسى، بدا لى أن إجابتى هذه سبب معقول، لكن هل هذا حقيقى؟ إنه مجرد تفسير الحقيقى. إننى توقفت أربع أو خمس سنوات، ما هى الأسباب، لا يمكن أن أقول وأنا فى راحة ضمير، ما هى الأسباب؟ لا أستطيع التفسير، مرة أخرى توقفت بعد أكتوبر ١٩٧٣ لمدة سنة، ولكننى أستأنف العمل. . بعد فترة توقفى الأولى لم أكتب أى أدب، ولا حتى قصة قصيرة، وعندما استأنفت الكتابة بدأت فى «أولاد حارتنا»، لكننى أعود فأتساءل عن سبب التوقف. ربما كانت الثلاثية هى السبب، إذ يمكن القول إننى أشبعت من خلالها رؤيتى، ولكننى لا أستطيع الجزم بذلك، خاصة وأنه كان لدىَّ سبعة موضوعات، أذكر أننى عرضتها مرة على عبد الرحمن الشرقاوى عندما كنت أعمل موظفا فى مصلحة الفنون، وأعجبه موضوع كان عن العتبة الخضراء، لقد ظننت أننى انتهيت

وقتئذ، وخاصة أن لكل كاتب عمرا فنيا، رامبو توقف وهو عنده اثنتان وعشرون سنة، قلت أشوف شيئا آخر، وكان السيناريو عزاء محدودا، وشغل الوقت مع السينمائيين، لكن هذا كله لم يغرنى عن الأدب، كنت فى أسوإ حالات عمرى، لدرجة أننى كنت أشتهى الموت!

أول قصص قصيرة أكتبها برغبة

«دنيا الله» تضم أول قصص قصيرة كتبتها فى حياتى برغبة، رغبة فى كتابة القصة القصيرة، كثير منها كان عن الموت، الحقيقة أننى لم أنتصر على فكرة الموت إلا بعد أن كتبت عنه، لا شىء يحررك من حاجة معينة مسيطرة عليك إلا الكتابة، أوافقك أيضا على أن الإنسان حين يفكر كثيرا فى الموت فإن هناك موضوعا آخر يكون مسيطرا عليه، أو أزمة كبرى يمر بها. .

النقــد

. . أول من كتب عنى سيد قطب، وأنور المعداوى، كان هذا أول ما يكتب عنى فى عام ١٩٤٨ و١٩٤٩، منذ أن بدأت الكتابة عام ١٩٢٩، بعد ذلك تعرضت لهجوم منتظم فى جريدة الجمهورية، الحقيقة لا أدرى سببه، بعد ذلك تغيرت الآراء، أصبحت أديبا اشتراكيا، الأدب البورجوازى أصبح اشتراكيا، وبعد رواية الكرنك أصبح أدبى رجعيا، على أية حال، أنا لى رأى فى النقد، كما يكون

الأديب حرا، فإن الناقد هو الآخر حر، الناقد يكتب طبقا لوجهة نظره، والكتاب لا تتم دراسته إلا إذا انعكست فيه جميع الآراء، لكن هناك أساس هو النقد الفنى، مثلا . . كأنى أقول لك هذه الساعة من الذهب، تقول لى، إن لبسها حرام . . قد يصح هذا، ولكن قبل ذلك : عيارها كم؟ جاءت فترة غلبت عليها السياسة، والسياسيون محرومون من التعبير عن رأيهم السياسى، فالشىء الذى كان لا يقال مباشرة كان يقال عن طريق النقد، كذلك النقد الفنى صعب، يحتاج إلى دراسة، وذوق، وجهد، ولا يقدر عليه أى كاتب، لكن النقد ذا المضمون السياسى سهل .

. . كان انفعالى بأول مقالة كتبت عنى كبيرا، جاءت بعد صمت طويل، أذكر أنها كانت لسيد قطب، طبعا الصمت مؤلم، لكن إذا حصرت نفسك فى حب العمل فإن فى ذلك عزاء كبيرا، يمكن القول إن النقد أفادنى، لكنه يربك فى البداية، على سبيل المثال كتبت زقاق المدق ببراءة تامة، جاء أحد النقاد وكتب أن حميدة تعنى مصر، كنت فى دهشة، أحيانا يفتح النقد أبعادا كبيرة، لكن كل اهتمامى كان فى البداية، اليوم قد أجد مقالة فى مجلة أقرأها بسرعة، فى البداية كان النقد ممكنا أن يفيد، لكن الآن هل تنتظر من النقد أن يغيرنى، أعتقد أنك غدا ستجرب ما أقوله .

ما تبقـــى..

. . الآن، أصبحت أعمالى الأدبية مستقلة عنى، لم أقرأ رواية مرة أخرى، ما هو إحساسى بالروايات الأولى؟ لا أدرى، الطبعات

الجديدة تصحح فى المطبعة ولا أعرف بصدورها إلا آخر العام، لكن إذا فكرت فى أعمالى الآن فسيقفز إلى ذهنى - كما قلت لك - الثلاثية، الحرافيش، أولاد حارتنا وحكايات حارتنا، نعم. . حكايات حارتنا، تقول إن السبب ارتباطها بالطفولة، ربما كان هذا صحيحا، ولكن معظمها خلق بحت، فيها حاجات بدأت فيها كأنه واحد سبور فى طياته ثم أفلتت منه، أتفق معك، ربما كانت تمهيدا للحرافيش، «المرايا» بدأتها عدة بدايات، خطر لى أن أكتب عن الناس الذين مروا بحياتى ولم يلحوا علىّ فنيا، ثم جاءت فكرة أخرى، أن أكتب عن الناس الذين عرفتهم بشكل واقعى، كلا المشروعين لم يتما، إذا التزمت بالحقيقة وجدت أن المحصول محدود جدا، تحولت فى الكتابة إلى رواية، مع أننى بدأتها بنية الكتابة عن أشخاص محدودين بشكل واقعى، أحيانا يخيل إليك أنك تعرف كل شىء عن شخص معين، وإذا قررت الكتابة عنه تجد أنك لا تعرف عنه شيئا، لكن عندما يتعلق الأمر بالخلق توجد شخصيات مختلفة. . وجديدة !

الوظيفة..

. . دخلت الوظيفة سنة ١٩٣٤، وجدت انقساما حادا فى حياتى، الوظيفة شىء، والأدب شىء، أحببت الوظيفة، وكنت أنوى عند بلوغى السنة التى أستحق فيها معاشا كاملا أن أحيل نفسى إلى التقاعد، لكننى عندما وصلت إلى هذا اليوم كانت المتطلبات المادية أكثر، فبقيت فى الوظيفة حتى بلوغى السن القانونية، منذ سنة ١٩٥٥ وحتى سنة ١٩٦٥، كان الأدب ممكنا أن يفى بحاجاتى المادية،

ولكن بعد انتشار ظاهرة تزوير الكتب فى الخارج أصبح ذلك مستحيلا، رفضت دائما أن أتفرغ للعمل فى الصحافة خوفا من الضياع، لأنه مجال مختلف عني ولم أعد نفسى له، لم تكن الوظيفة مملة، كنت أتعامل يوميا مع العديد من الناس، ونماذج لا حصر لها، من أخصب فترات الوظيفة المرحلة التى عملت خلالها فى وزارة الأوقاف، الأوقاف عدة وزارات فى بعض، صحة، زراعة، دين، كنت ترى المستحقين، ونوعيات مختلفة بدءا من حفيد السلطان عبد الحميد إلى فلاح فقير له حصة فى وقف، كان فيها حاجات عجيبة، عاصرت الوظيفة فى أطوار مختلفة، لم تكن هناك قوانين تحمى الموظف، أول قانون عمله أمين عثمان فى وزارة النحاس سنة ١٩٤٢، عدا ذلك لم يكن يتقدم فى الحكومة إلا أوباشها، كان هناك من يبيعون أعراضهم، كنا نعرف أن مدير مكتب أحد الوزراء أعد شقة خاصة للوزير، أضف إلى ذلك انتشار الشواذ، يعنى نموذج محجوب عبد الدايم، ورضوان ابن ياسين فى الثلاثية كان منتشرا جدا، كانت أياما شبيهة بأيام المماليك، جهاز إدارى فاسد، لكن بالنسبة لمسألة الرشاوى كان الحال أفضل من الآن، كان فيه انضباط وإدارة قوية، فى إدارة الجامعة مثلا كان فيه موظف واحد مرتشى، وكان معروفا، طبعا مصادر الرشوة كانت اختصار الإجراءات، نفس الإجراءات يمكن أن تستغرق شهرا أو تستغرق يوما، والسبب صياغة معينة فى المذكرة، مثل «أفيدونا عن الشىء الفلانى» . . إلخ . .، تعاقب الوزارات المختلفة كان يصبح له انعكاسا على الوزارات، الكبار يذهبون، عامة الموظفين متفرجون، كان هناك ترحيب دائما بوزارات الوفد، لأنه جرت العادة على أن ينال صغار العاملين بعض

الفائدة، عندما نقلت إلى مكتبة الغورى كان ذلك بسبب تغيير وزارى، كنت على صلة بأحد الوزراء، لم تكن صلة عميقة، وعندما حدث تغيير طلبوا منى أن أختار مكانا آخر، طلبت النقل إلى قبة الغورى، ظنوا أننى أحتج، ولكننى قلت لهم إننى سأكون سعيدا جدا، طبعا أنت تعرف أن القبة تضم مكتبة ضخمة، فى هذه الفترة قرأت مارسيل بروست، عملت أيضا فترة فى مشروع القرض الحسن، فترة ممتعة، كانت النساء يجئن لِيَرْهَنَّ الحلى والمصاغ، طوال النهار أتحدث وأرغى مع النساء القادمات من الحوارى، والأحياء الشعبية.

استثناءات..

.. عندما التحقت بوزارة الأوقاف، كان يزاملنى المرحوم كامل كيلانى، حذرنى من إظهار أى نشاط أدبى، طلب منى أن أخفى هويتى كمؤلف، قال لى إنهم لو عرفوا سيضطهدونك، لأننى عانيت من ذلك معاناة شديدة، أخفيت الأمر، السبب أن بعض الوزراء كانوا يتولون الوزارة فيكرمون كامل الكيلانى، عندئذ تحدث ضجة فى الوزارة، يقولون «إيه ده. هو كل واحد كتب كلمتين إنشاء يأخذ علاوة أو ترقية، أمال فين المذكرات القانونية..»، لم يعترفوا إلا بهذا، لكن تأليف الكتب لم يكن له مجال، لهذا أرهقوا كامل الكيلانى، كان معى محمد مصطفى الماحى الشاعر، ومن قبلنا عمل العقاد فى وزارة الأوقاف. استوحيت الكثير من الموظفين، وعدد كبير منهم دخل فى رواية المرايا..

ملحـوظـــة

راجع الفصول الخـاصة بـ «ثريا رأفت»، «شرارة النحـال»، «صبرى جاد»، «صقر المنوفى» و«طنطاوى إسماعيل»، «عباس فوزى»، «عدلى المؤذن»، «عـبد الرحمـن شعبـان»، «عبـده سليمـان»، «فتـحى أنيس»، «كاميليا زهران»، «وداد رشدى».

رواية «المرايا»...

الحب الأول.. والكبير...

«عايدة يا قضائى وقدرى..»

«ولو لم أعرف عايدة لكنت إنسانا

غير الإنسان، ولكان الكون غير الكون»

كمال عبد الجواد ـ قصر الشوق

.. خبا حبى الأول منذ زمن بعيد، لا أستطيع تتبع أخبارها الآن، لأنها ابنة عائلة اندثرت منذ مدة، قصرهم أصبح عمارة، كانت سراياهم فى شارع بالعباسية اسمه حسن عيد يصل بين شارع العباسية وشارع الملكة نازلى، أصبح مكان السراى الآن عمارتين حديثتين، لا أعرف مصيرها، أو أين هى الآن، فى مصر، خارج مصر، حتى إخوتها انقطعت أخبارهم عنى، فيه حاجات غريبة، أحيانا يقولون إن الدنيا تلف وتدور ثم تشوف، لكن هذه انقطعت أخبارها كلها عنى بالمرة، الغريب أن البيت الصغير الذى أسكن فيه بالإسكندرية تعيش به قريبتها، فى الطابق الذى يقع تحتى، ابن عمها دكتور قابلنى وتذكرنى، لكن ليس من المعقول أن أسأله عنها، معقول أن تكون ماتت، معقول جدا، لو أنها تعيش فهى الآن فوق الثمانين، أظن أنها

تزوجت مهندسا، قيل هذا فى الزمن البعيد، لا أذكر، بعد زواجها لم أرها إلا مرة واحدة فى ميدان الإسماعيلية، واسمه الآن ميدان التحرير، تمكن منى هذا الحب فى شبابى إلى حد كبير، الغريب أنك تجد أحيانا وجها ما يخيل إليك أنك على موعد معه، لماذا هذا الوجه بالذات؟ لا أدرى، لماذا هذا التكوين بهذا الشكل بالذات يؤثر فى الإنسان هذا التأثير بالذات؟ أيضا لا أدرى، هذا شىء غامض لا تفسير له عندى . .

ملحوظة

نستعيد هنا فصل «صفاء الكاتب» من المرايا:

كان بيت الكاتب من أعرق البيوت فى العباسية القديمة، وكان يقع فى الحى الشرقى بمبناه الشامخ وحديقته المترامية ما بين محطتى ترام. وكثيرا ما سرنا بحذاء سوره ونحن فى طريقنا إلى الصحراء للعب الكرة فلم أر منه إلا رؤوس الأشجار وخمائل الياسمين والستائر المسدلة. وذات يوم وكنت ماضيا نحو الصحراء رأيت حنطورا ينحدر من الطريق الشرقى نحو الشارع العمومى. فى صدره جلست عجوز تلوح من وجهها عينان ناعستان فوق حافة اليشمك. وإلى جانبها فتاة تتألق بنور الشباب. وبمجرد أن وقعت عيناى على وجه الفتاة عانقت سرا من أسرار الحياة المتفجرة، تفتحت بها أبواب السماء فأغدقت علىَّ فيضا من بركان الحب. وقال شعراوى الفحام وكان أكثرنا خبرة بالحى الشرقى:

هى صفاء ابنة صاحب القصر.

وقال خليل زكى وكان يسطو على حدائق الحى الشرقى كلما وجد غفلة ليخطف عنقود عنب أو ثمرة من المانجو:

ـ وهى فى العشرين من عمرها.

وعند ذلك همس جعفر خليل فى أذنى وقد لحظ تغيرى:

ـ أما أنت ففى الخامسة عشرة !

ومن عجب أن صورتها ـ رغم العاطفة التى ابتعثتها ـ اختفت تماما وراء سحب الماضى، بل تعذرت على الوضوح حتى وأنا فريسة لسحرها. لا أعرف لون شعرها ولا تسريحته ولا لون عينيها أو رسمها ولا طول قامتها أو درجة امتلائها. ذاب ذلك فى سائل سحرى، وكنت إذا تذكرته ـ أو خيل إلىَّ ذلك ـ فعن طريق غير مباشر وبإيحاء عفوى كشذا الورد الذى يباغتك من وراء سور وأنت ماض غارق فى أفكارك. وكأن قلبى لم يكن يحركه شىء إلا إذا انتمى إليها بسبب خفى. ولذلك همت فى أزمنة متأخرة نسبيا بقسمات وملامح وسمات ولفتات لنجوم توهمت أنها تذكرنى بما غاب عنى منها، بل ما أحببت صفة فى وجه إنسانى إلا وكانت هى وراءه حقيقة أم وهما. وبسبب ذلك الحب الخاطف عانت حياتى العاطفية من أزمات متواصلة معقدة كأنها السحر الأسود. والعجيب أنه كان حبا بلا مواقع ولا مواقف ولا تاريخ يذكر. رأيتها فى الحنطور ثوانى ليس إلا ففقدت إرادتى وألقى بى فى طور جديد من أطوار الخلق.. وكنت قريب عهد بحب حنان مصطفى، فأدركت خطئى وآمنت بأننى أحب لأول مرة. وعرفت كيف

يغيب الإنسان وهـو حاضر ويصحو وهو نائم، كـيف يفنى فى الوحدة وسط الزحـام ويصادق الألم، ويـنفذ إلى جـذور النبـاتات وموجـات الضوء. وجـعلت أحوم حول سـراى الكاتب وهو قصر مـغلق النوافذ مسدل الستائر لا يرى به إنسى سوى البواب والبستان وبعض الخدم. وسمـعت مرة صـوتا ناعمـا ينادى البواب فـاهتز قلبى وافـترضت فى الحال أنه صوتها ثم آمنت بذلك. ورأيتها للمرة الثانية فى مناسبة حزينة جدا. فى نافذة بيت أثرى بشارع محمد على احـتشد فيه نفر من النساء لمشاهدة جنازة سعد زغلول. ولـم أنتبـه إليها عقب مرور النعش فرأيت من خلال دموعى وجـهها المشرق وهى تجـفف عينيها مـادة عنقها وراء النعش المبـارك. خـفق قلبى خـفـقة مـبـاغـتة ولكننى لم أنعم بالرؤية وفقدت النشوة فى قلب كـسير محزون، واجتاحتنى عـواطف متناقضة كما اجـتاحنى تيار الخلق المتلاطم الباكى. لم أرها بعـد ذلك إلا ساعة هبطت أدراج السـلاملك فى ثوب العـرس لتـستقل سـيـارة إلى بيت العريس وكنت ضمن حشد وقف على الطوار المواجه للقصر للفرجة. وكانت مـدة ذلك التاريخ الذى مر بـلا أحداث عامـا إلا قليلا، ولكنه كان أعجب عام فى حياتى.

وانكشف أمرى لأصـدقائى جـميعـا، أما المهرجـون فسـخروا منى وأطلقوا علىّ «مجنون صـفاء»، وأما الآخرون فحـذرونى من التمادى فى عاطفـة لا جدوى منها البـتة. وكنا صـغارا وكانت أفكارنا سـاذجة مسـتعارة من الروايات ومـا عرفناه من تاريخ الأدب العربى، فـقال لى سرور عبد الباقى:

ـ لا تستسلم وإلا جننت كمجنون ليلى..

وقال لى رضا حمادة:

ـ إن حبك هذا يقطع بأنك أحببتها فى تاريخ سحيق مضى، ربما فى عصر الفراعنة، كما يقول ريدر هجارد..

وتمثل ذلك الحب فى صورة قوة طاغية متسلطة لا تقنع بأقل من التهام الروح والجسد. قذف بى فى جحيم الألم، وصهرنى، وخلق منى معدنا جديدا تواقا إلى الوجود، ينجذب إلى كل جميل وحقيقى فيه. وبقى الحب ـ بعد اختفاء خالقه ـ ما لا يقل عن عشرة أعوام مشتعلا كجنون لا علاج له، ثم استكن على مدى العمر فى أعماقى كقوة خامدة ـ ربما حركتها نغمة أو منظر أو ذكرى فتدب فيها حياة هادئة مؤقتة تقطع بأنه لم يدركه الفناء بعد. وكلما تذكرت تلك الأيام أذهلنى العجب، وتساءلت بدهشة عن سر الحياة التى عشتها، وهل كان أصابنى مس من الجنون، وأسفت غاية الأسف أنه لم يقدر لحبى أن يخوض تجربته الواقعية، وأن تتلاقى فى دوامته العنيفة السماء والأرض، وأن أمتحن قدراتى الحقيقية فى معاناته ومواجهة أسراره على ضوء الواقع بكل خشونته وقوته. وما أحكم رضا حمادة حين قال لى يوما وقد بلغنا درجة من النضج والتجربة:

ـ صفاء ألقيت فى حياتك كمثير.. لم تكن إلا «شفرة» تشير إلى شىء، تعين عليك أن تحل رموزها للوصول إليه. قلت له:

ـ لقد تحللت حياتنا إلى سخريات ولكنى أكره أن أذكر تلك الأيام باستخفاف..

ـ استخفاف؟!. كيف يستخف إنسان بأروع سنى العمر؟!

ومررت بقصر آل الكاتب فى الستينات فوجدته قد هدم ورفعت أنقاضه، مخلفا أرضا فضاء تحفر تمهيدا لإقامة أربع عمارات سكنية. ابتسمت وأنا أنظر إلى الأرض الفضاء، وعبرنى إحساس بالأسى، فتذكرت صفاء التى لم أرها منذ هبوطها فى ثوب العرس، التى لم أدر عنها شيئا، حية كانت أم ميتة، سعيدة أم شقية، وكيف غيرها الكبر بعد بلوغ السنين؟. وأيا كان خبرها، ورأى الآخرين فيها، ألم يكن من حقها أن تعرف أنها عبدت فى محراب كإله، وأنها فجرت فى قلب حياة ما زالت تنبض بين الحين والحين بذكراها؟.

* * *

. . كتبت الكثير من أعمالى تحت تأثير حالة حب، ليس من الضرورى وأنا أعيش التجربة، لكن بعد مرورها، وأعتقد أن الأديب يبدع أفضل ما عنده وهو يحب، ولما كان حب المرأة غير متاح دائما، فقد كان حب أى شىء محل حب المرأة، إن التعبير عن تجربة حب بعد الانتهاء منها يظهر كل أبعادها ويبرئها من التحيز، ويساعد على خلق عمل جديد.

. . نعم، عبرت فى قصصى عن كثير من المنحرفات، البعض يستبشع هذا، لكن ما هو موجود فى الواقع أفظع بكثير، أعتبر رواياتى حشمة بالنسبة للواقع، أعرف عن الواقع الإحصائى حقائق مخيفة، ما عرفته بالمشاهدة بسيط لأنه لا يؤدى إلى الحقيقة بالضبط، فى أحد الأيام تعرفت إلى ضابط بوليس بمكتب حماية الآداب، كان شقيقه موزع أفلام، جاء إلىّ فى ريش، وبدأ يحكى عما يشاهده، أشياء فظيعة، الحياة الاجتماعية التحتية مرعبة، لماذا نتجاهلها، إن

سبب معظم حالات الانحراف الحاجة، معظمهن انحرفن نتيجة ظروف ساحقة، إن حياة الانحراف كريهة، إن لم تكن المرأة مصابة بانحراف فى عقلها فإنها لا ترضى بهذه الحياة، إن الرجال مسؤولون فى معظم الأحيان عن انحراف المرأة، إن المنحرفة فى القاهرة الجديدة عندما تضعها بجانب المسؤول الكبير، الوزير، فإن المسؤولية تقع على عاتق الوزير.

. . عرفت النساء فى الأحياء الشعبية من المعايشة المباشرة، يكفى جلوسى أمام بيتنا فى الجمالية، كن يجئن إلى أمى، إحداهن تبيع الفراخ، أخرى تكشف البخت، دلالات، منهن نساء واظبن على زيارتنا فى العباسية، كنت أصغى إليهن فى أحاديثهن مع الوالدة، وهن يروين لها الأخبار، وعرفت نماذج عديدة منهن فى رواياتى فيما بعد.

. . بالنسبة لإشراك زوجتى فى قراءة أعمالى، فإن المبدأ أوسع من ذلك، يوجد كتاب تعودوا اشتراك الآخرين فى عملية الإبداع الفنى بمعنى أنه يعرض أعماله على زوجته أو شقيقه، أو صديقه، وإذا وجد مثل هذا المبدأ، تصبح الزوجة لها الأولوية بالطبع، خاصة إذا كانت لها اهتمامات أدبية. وهناك كاتب يعتبر عمله سرا حتى يرى النور، وأنا أنتمى إلى هذا النوع، إذ إنه فى رأيى لا يوجد اثنان يمكن أن يتفقا فى الرأى حول عمل أدبى أو فنى.

. . أرقب ابنتى ربما بدهشة، أم كلثوم كان لديها استعداد للفن التشكيلى، ظننت أنها ستتجه إلى دراسة الرسم، ولكن هذا لم يحدث، لماذا لم تتخصص فى هوايتها الوحيدة، بدلا من ذلك

التحقت بالجامعة الأمريكية، أم كلثوم تبدو عصرية المظهر، متدينة، قبل أن تنام تقرأ في القرآن، عرفت صدفة أنها تصلى، إلى جانب ذلك تحب الغناء الإفرنجي، مرة دفعت ابنتي سنتين من عمرها بعد حصولها على الثانوية العامة نتيجة تدخلي، كنت أود أن تلتحق بكلية الآداب، قسم اللغة الإنجليزية، وكانت تريد أن تدخل الجامعة الأمريكية، أصررت على الآداب، لكنها لم تستطع الاستمرار بعد أن التحقت بها لمدة عام بالفعل، قدمت في الجامعة الأمريكية، وكانت شروط الالتحاق قد أصبحت أصعب، ثم اشترطوا عليها سنة لدراسة اللغة، ابنتي الصغرى فاطمة تدرس السكرتارية في الجامعة الأمريكية أيضا، طبعا مزاجهما يختلف عني، هما تحبان الموسيقى الغربية، أنا أحب الموسيقى الشرقية، الغريب أنهما لمدة قريبة كانتا منطويتين، من المدرسة إلى البيت، ودائما معنا، كان من المفروض أن يتشبعا بروحي، لكنهما نقيضي في كثير من الأشياء، أتساءل من أين جاءتهما هذه المؤثرات على الرغم من انطوائيتهما، وعدم الاختلاط بالخارج لمدة كبيرة، فيهما نفس سمات الجيل، الذوق الغنائي، الاهتمام بالعالم، وليس بالواقع المحلي، ولكنني سرعان ما أتذكر أنني نشأت في بيت لا أحد يقرأ فيه، ومع ذلك قرأت وعشقت الأدب، هن أمامهن مكتبة ضخمة، وأسطوانات لا حصر لها لأم كلثوم، لكن لا المكتبة تعنيهما، ولا أم كلثوم، حقا.. ولى زماننا، وهذا زمان مختلف، زمان غيرنا !!.

* * *

.. الزواج .. والأسرة ..

. . الحقيقة أن المرأة فى حياتى وأدبى شىء واحد، لعبت المرأة فى حياتى دورا كبيرا إن لم يكن مثل السياسة فهو يفوقها، أثر الوالدة فى التربية، ونوع الثقافة التى منحتها لى على الرغم من أنها لم تكن مثقفة، ثم تجربة الحب الأولى الذى سيطر على حياتى إلى درجة كبيرة، وبعد ذلك تجارب حب، يمكن أن تسميه، حبا طياريا، لكن كان له أثره الكبير فى تعرفى إلى عدد كبير من النساء والفتيات، نماذج عجيبة وغريبة، ظهرت فيما بعد فى أعمالى كلها، ثم تجىء قصة زواجى الغريبة، إذ إننى تزوجت بدون أى تخطيط، وبعد فترة من الصراع، هل أتزوج أم لا أتزوج؟ تماما كالأزمة التى مررت بها فى الثلاثينات، الأدب أم الفلسفة؟ ثم حسمت الصراع بقرارى، ألا أتزوج، وكانت أمى تلح علىّ فى الزواج، رتبت لى مشاريع زواج عديدة، زيجات معقولة ولا بأس بها، وأرفض. . كيف تزوجت إذن؟ كنت أعرف صديقا كما أعرفك، وفى أحد الأيام يعرفنى بزوجته، وأخت زوجته، وأجد نفسى أتزوج شقيقة امرأته . . هكذا!، هكذا تم الزواج، على الرغم من تعقيدات عديدة فى الأسرة، حتى أن خبر زواجى لم يعرف به إلا عدد قليل من الأسرة،

أشفقت على الوالدة لأنها كانت تجهز لى ترتيبا مختلفا، نفس أخى وأختى نصحانى بتكتم الخبر، وكانا على علم بزواجى، لقد أفضيت بزواجى إلى أمى على درجات حتى لا أحدث لها صدمة، وهناك شيء على جانب كبير من الغرابة . .

فترة اليأس

. . تزوجت فى عام ١٩٥٤، خلال توقفى عن كتابة الرواية فى فترة اليأس الأدبى، تزوجت وأنا سينارست أكتب للسينما، من الممكن أن يكون الفراغ الذى كنت أعانيه قد لعب دورا كبيرا فى دفعى إلى الزواج، وإلا . . ما الذى كان يخيفنى من الزواج قبل ذلك؟ إنه الأدب، وهذا تصور خاطئ، وتفاصيله مكتوبة فى يومياتى التى كنت أدونها يوما بيوم، ثم توقفت عن الاستمرار فى كتابتها، وعندما أعود إلى قراءتها الآن، أجد ما يدهشنى، لم يكن تصورى صحيحا، كنت أناقش نفسى فى يومياتى، هل أتزوج أم لا؟ وكنت أقول إن الزواج سيحطم حياتى الأدبية، وأنتهى إلى قرار برفض الزواج، فيما بعد، بعد أن استعدت حياتى الأدبية واستأنفت الكتابة، أعتقد أن حياتى الزوجية قد ساعدتنى، وليس العكس.

الواجبات الاجتماعية

معروف أن الزواج يفرض نوعا من الواجبات الاجتماعية، وهذا يؤدى إلى تبديد الوقت، لكن زيجتى كان لها ظروف خاصة، كانت

أسرة زوجتى محدودة، حتى شقيقتها وزوجها سافرا إلى ليبيا، كان لها خال عجوز يعيش دائما فى البلدة، ولا يجىء إلى مصر إلا نادرا، كان ذلك بخلاف مشاريع الزواج الأخرى المعدة لى، إذ إنها كانت تقع فى بؤرة علاقات اجتماعية متشابكة، وكنت مضطرا فى حالة ارتباطى بعلاقة منها إلى تبديد وقتى فى المجاملات والزيارات، أو أن أصبح مثيرا للاستنكار كأن يقال مثلا «هذا زوج لا يزور . . ولا يحب الزيارة» إلى آخر هذه الأمثلة، وكنت عندما أزور شقيقى إبراهيم، أو أخى محمد، أشوف إلى أى حد الحياة الزوجية حياة اجتماعية، لا تسأل عن أحدهما يوما إلا وتجده فى حفلة شاى هنا، أو عيد ميلاد هناك، ومثل هذه الأمثلة كانت تخيفنى من الزواج . . بالطبع طرأ تغيير على حياتى بعد الزواج بالنسبة لنظام عملى، يوم الجمعة صباحا خصصته بأكمله للعائلة، نخرج فيه إلى الحدائق، فى الإجازات الصيفية كنا نقضى معظم الوقت معا، أما عن فترة الطفولة الأولى بالنسبة للأولاد فلم تكن معطلة بالنسبة لى، العبء الأكبر حملته عنى زوجتى . . ، عرفت مع الوقت مزاجى، ونظام حياتى، وكانت متفهمة دائما ومعاونة لى، يجوز لو زوجة أخرى كانت قرفتنى، لكن هذا لم يحدث، إن التجربة بالنسبة لهذه الناحية موفقة، كذلك من ناحية العلاقات الاجتماعية، حتى عندما كانت شقيقتها تجىء إلى مصر، كنت أذهب إليها نادرا، ليس هذا فقط، ولكن عندما يجىء أشقائى لزيارتى لم أكن أجلس معهم معظم الوقت، كانوا يصافحوننى، ويخرجون مع زوجاتهم ليجلسوا مع العائلة. اعتاد أشقائى ذلك، كانوا يعرفوننى، أذكر أن أخى محمد الله يرحمه عندما كان يجىء إلى زيارتنا، بعد الغداء، أجلس إليه قليلاً، لكنه يقول

لى، قم إلى شغلك، أنا أعرفك . . إنما جئت لأقعد مع الأولاد . . ، أعترف أننى لم أكن موفقا فى حياتى الاجتماعية، العلاقات والزيارات وما إلى ذلك، لكننى كنت حريصا ألا أبدد وقتى أبدا . .

البدائل

كيف كانت ستمضى حياتى لو ارتبطت بإحدى الزيجات التى كانت تعد لها الوالدة؟ سؤال قد يبدو صعبا، ومما يساعدنى على الإجابة أننى تتبعت بعض النماذج التى كان من الممكن أن أرتبط بها، تتبعت الأخبار بالطبع، كانت والدتى تركز على إحدى قريباتى، كانت ثرية، وكانت أمى تتصور أنها ستسعدنى، أم قريبتنا رحبت بى لسبب غريب جدا، البنت عادية الشكل، ليست قبيحة، وليست جميلة جدا، لكنها تصورت أن من سيتزوج ابنتها سوف يسرق ثروتها، ثروة تقدر بربع مليون جنيه، تصور . . أيام الرخص، أبوها رجل جمع ثروته بمختلف الطرق، كان مشهورا بخراب الذمة، مات وترك العائلة هكذا، البنت وشقيق مستشار، وأخ طيار، الأولاد على خلق عظيم، لكن الأب حرامى كبير، وطبعا كان محترما جدا فى المجتمع، رأيته فى بعض المآتم، إذ يدخل كل الناس تقف له، كان متزوجا من إحدى قريباتى، إذا حوسب على عمله فالبصق عليه قلة، ولكن تجاه المال والثراء تضعف النفوس، لن أقول لك إننى رفضت البنت بسبب أبيها، أمها كانت سيدة على خلق، وحريصة علىّ جدا، لأن إحساسها أننى الوحيد الذى لن يمد يده إلى ثروة ابنتها، لن يسرقها، يعنى كنت مجرد موظف صغير فى وزارة الأوقاف، ولو

أرادت أن تزوج ابنتها إلى وزير لاستطاعت، لكنها كانت تريد زوجا لا يطمع فى أموال ابنتها، ووجدت فىَّ ضالتها، زوجها ملاها بفكرة سيئة عن الرجال، وتحولت الفكرة إلى خوف على البنت، لم أتزوج الابنة، ومع الأيام تزوجت شابا على خلق، أعرفه، ظل يتردد علىَّ فى نادى القصة، وكان دائم الشكوى، لأن مرتبه صغير، وأمها تريده هو أن يصرف، انظر إلى الخوف على الثروة، كان يقول لى . . يا فلان، يعنى حالى يرضيك، مرتبى لا يكفى، وزوجتى لديها كل هذا المال؟ كلامه معقول، لكن عقدة الثراء فظيعة، وسطت أحد أقاربى ليتحدث إلى الوالدة.

ليس من المعقول أن يكون لابنتك كل هذا المال، وتعيش مع زوجها فى ضنك، حرام . . وابنتك ليست فى مستوى مرتب قدره أربعون أو خمسون جنيها فقط . .

أمى.. وأبى

. . أوافقك على أن أمينة فيها ملامح كثيرة من الأمهات المصريات، لكنها ليست أمينة الأم فى الثلاثية، أمينة فيها من أمى القليل، والدتى برغم جيلها كانت منطلقة، يعنى، من تتصور أنها قادرة على الخروج من منطقة الحسين لتزور الأهرام، والمتحف المصرى، وقسم المومياءات، حتى الآن لا أعرف كيف، ولم أكن فى سن يسمح لى بتوجيه أسئلة الاستفسار، كنت أمشى فى يدها . . وخلاص، كانت والدتى رحمها الله عصبية إلى حد ما، والدى كان «دقة قديمة» لكن لطيف ومحبوب، معظم أيامه فى البيت، لا يسهر

فى الخارج إلا مرة كل أسبوع ، سواء فى أيام وظيفته ، أو عندما أصبح ناجرا ، نعم . . كان والدى موظفا ، وعندما وصل إلى مدة الخدمة التى يستحق عنها معاشا كاملاً ، أحال نفسه إلى التقاعد . له أحد الأصدقاء ، صاحب متجر كبير ، وفابريكة ، كان يذهب دائما إلى بور سعيد ، قال له ، لماذا لا تأتى وتعمل معى ، إننى فى حاجة إلى من أثق به ، وهكذا تجمع بين المعاش والمرتب ، وأطمئن أنا إلى تجارتى فى يد صاحبى وأعرف أن أسافر وأتفرغ لشغلى ، والدى ضربها فى دماغه ، كان موظف حسابات ، والعمل عند صاحبه أقل تعقيدا . . قبل . . ، لم يكن هناك شبه بين أمى وأمينة فى الثلاثية ، كذلك بين أحمد عبد الجواد ووالدى . . رحمهم الله أجمعين ! !

* * *

الأماكن الحميمة
بين القاهرة والإسكندرية

في السبعينات، بالتحديد عام ثمانية وسبعين، صحبت محفوظا في جولة جسنا معًا خلال أماكنه الحميمة في القاهرة القديمة، إنها إحدى المرات القليلة التي قام فيها بهذه الجولة الواسعة في ذلك العمر المتقدم. ومنذ حادث عام أربعة وتسعين لم يطأ أرض الجمالية ومواقع صباه.

المكـــان..

لم أر إنسانا ارتبط بمكان نشأته الأولى مثل نجيب محفوظ، عاش فى الجمالية اثنى عشر عاما، هى الأعوام الأولى من عمره، ثم انتقل إلى العباسية، لكنه ظل مشدودا إلى الحوارى والأزقة والأقبية. . إلى الحسين، إلى الجمالية، إلى الناس الذين عرفهم وعرفوه، ثم كان المكان محورا لأهم وأعظم أعماله الأدبية، ومع بداية الصيف يتوقف نجيب محفوظ عن الكتابة طوال العطلة وحتى بداية الخريف، وذلك بسبب مرض عينيه بالحساسية. وفى الأسبوع الأول لعطلته، ذهب إلى الحسين، إلى الجمالية وكنت معه، لقد صحبته كثيرا إلى الحسين، وهناك راقبت انفعالاته، وتجولت معه فى الحوارى والشوارع التى عشت فيها ثلاثين عاما. .

البداية من ميدان الحسين. . فى قلب الميدان توقفنا للحظات. . بدا وجه نجيب محفوظ هادئا، مستكينا لتأثير الذكريات التى كانت تتوالى عليه، تطلع إلى مبنى إدارة جامع الأزهر، قال:

ـ هنا كانت مدرسة خليل أغا الثانوية. .

قلت له: إن معالم الميدان تغيرت عدة مرات خلال السنوات القريبة، منذ أن أقدم أحد المحافظين على استصدار قرار بهدم

الفيشاوى ومجموعة المبانى القديمة التى كانت تجاوره، فى وسط الميدان كانت ساعة الميدان، ثم أقيمت نافورة، عدلت، ثم أحيطت بحديقة، وفى نفس هذا المكان منذ حوالى ثلاثين عاما، كان موقف عربات سوارس التى تجرها الخيول، وتتجه إلى الدرب الأحمر، إلى الحسينية.

أشار نجيب محفوظ إلى عمارات الأوقاف القائمة فى الجهة الغربية من المسجد، قال:

- كان هنا الباب الأخضر، فهو قبو كبير يؤدى إلى حارة ضيقة وكانت هذه الحارة مقرا للدراويش، ومجاذيب الحسين، على الصفين كنت تجدهم جالسين. .

وتذكرت بدورى، المارشال على، هذا المجذوب الذى كان يرتدى بزة عسكرية، وعلى كتفه العديد من الرتب العسكرية، أما صدره فقد كان محلى بالأوسمة القديمة، تتخللها بعض أغطية البيبسى كولا، ويمسك بعصا، ومن حين إلى حين ينحى بها الناس، ضحك نجيب محفوظ، إنه يذكره جيدا. .

من ميدان الحسين نمضى إلى واحد من الأمكنة التى استوحى منها نجيب محفوظ رواية من أجمل رواياته «زقاق المدق». .

لكى نصل إلى زقاق المدق من جهة الأزهر. . لا بد من المرور أولا بشارع الصناديقية، القذارة تغطى الأرض، مخلفات الدكاكين، والبيوت.

قال نجيب محفوظ متأسفا:

ـ كانت هذه الشوارع والحوارى تكنس مرتين فى اليوم الواحد وترش بالماء . ما زلت أذكر بغل البلدية الشهير ، ومخزن العربات ، وإسطبل البغال ، كان قريبا من بيت القاضى . .

ويشير نجيب محفوظ إلى بعض المبانى التى شيدت فى الثلاثينيات ، تحدث عن بيوت قديمة ، كانت تحيطها الحدائق ، تصل إلى زقاق المدق ، الزقاق ضيق جدا ، لا يتجاوز طوله اثنى عشر مترا ، وعرضه خمسة أمتار ، المقهى مغلق ، فاليوم يوم أحد ، وثلاثة دكاكين إلى الجانب المقابل ، يقول :

ـ أذكر أنه لم يكن بالزقاق إلا المقهى ، لا أذكر ذلك البيت ، فى صدر الزقاق دكان عطارة ، يجلس أمامه ثلاثة من العجائز المسنين ، سأل نجيب محفوظ :

ـ ما زال الفرن فى الداخل؟

قال الرجل الأكبر سنا :

ـ نعم . . يبدو أنت واع على الزمن البعيد . .

يرتقى نجيب محفوظ السلالم المؤدية إلى الفرن ، هذه السلالم حديثة أقيمت على المدق الترابى الذى وصفه فى روايته ، يتأمل الفرن حيث عاش زيطة صانع العاهات ، أهمس فى أذن أحد الرجال الثلاثة المسنين :

ـ إنه نجيب محفوظ الكاتب الكبير .

يقول بعد لحظة :

ـ أهو الذى أظهر الزقاق فى السينما؟

أومئ مجيبا . . يقول :

ـ أهلا وسهلا . .

ثم يعود إلى صمته . .

نفارق الزقاق، والمقهى، حيث كان نجيب محفوظ يأتى ويجلس إلى أصحابه فى الزمن القديم، وفى لحظة ما ولدت فكرة «زقاق المدق» وفى أيام بعينها، فى نفس هذا المكان تكونت الرواية، منظرا فى إثر منظر، وحدثا إثر حدث، حتى اكتملت، ومنحت هذا المكان الضيق، المنسى، الشهرة والصيت. أذكر أننى صحبت مستشرقا ذات يوم أراد أن يرى زقاق المدق، جاء إلى المكان، وقف ينظر إليه، ثم قال ضاحكا :

ـ إذا كان نجيب محفوظ قد كتب هذه الرواية الرائعة الضخمة عن هذا المكان المحدود الضيق، فماذا كان سيفعل لو أنه كتب عن شارع بأكمله مثل شارع الأزهر؟

الأســـــواق...

إلى الحمزاوى، سوق الحمزاوى . . حيث الدكاكين الصغيرة . دكاكين العطارين والعطور، حيث السوق لا يزال محتفظا بمكانه القديم، وبهيئته الأولى، وبشكل المتجر المصرى فى القرن التاسع عشر، حيث لم يكن هناك حاجز بين البائع والمشترى، لو أن هذا

السـوق فى أى بلد أوروبى لبـذل الكثـيـر من أجل الحـفـاظ عليـه، وترميمه، وجلب السائحين إليه، نمضى إلى الصاغة، يتوقف نجيب محفوظ عند مدخل حارة الصالحية، فوق البوابة القديمة تنتصب مئذنة الصالح نجم الدين أيوب، واحدة من أقدم مآذن القاهرة، وأكثرها تفردا، إذ تتوجها مبخرة، وهى تعد بذلك أول أشكال المئذنة المصرية عندما بدأت تكتسب خصوصيتها . .

يتوقف نجيب محفوظ لحظات، أمام باب مغلق، يسأل :

- ألا يزال هذا المكان مقهى؟

يجيبه أحد المارة :

- نعم . . ولكن اليوم أحد . .

يقول :

- إنه أغرب مقهى، ممر ضيق طويل، وعلى جانبيه تصطف المقاعد بحـيث أن من يجلس يلامس المواجـه له، هكذا كـان الحـال على أيامنا . .

نعود إلى شارع المعز لدين الله، يشير ضاحكا إلى بيت متهدم، قديم، يقول ضاحكا :

- فى هذا البيت كان يسكن عدد من الفتيات الجميلات جدا، وكان بعض الرجال من الأعيان يجيئون ويجلسون، ويرفعون عيونهم، ويلعبون حواجبهم للبنات ويبرمون شواربهم . . وهكذا كان الغزل فى العشرينيات والثلاثينيات . .

ونمضى عبر «سوق النحاسين» حيث تخيل نجيب محفوظ موقع دكان أحمد عبد الجواد فى الثلاثية، لاحظت أنه يطيل النظر أحيانا إلى بعض المواضع، ويتمهل عند أماكن أخرى، ويرفع رأسه فى معظم الأحيان ليتأمل ويرى، ولم أشأ أن أزعج ذكرياته بالسؤال والاستفسار . .

مررنا أمام مجموعة قلاوون الأثرية، والبيمارستان، والحمام، والمسجد، والقبة، ومسجد الناصر قلاوون، ومسجد برقوق، المآذن تنتصب سامقة، مرتفعة، خاصة مئذنتى قلاوون وبرقوق، قلت لنجيب محفوظ :

ـ لقد وصفت موقع بيت أسرة أحمد عبد الجواد فى الثلاثية، وطبقا لوصفك فإن المكان الذى وصفته لا يوجد فيه بيت، إنما قصر الأمير بشتاك . .

وافقنى نجيب محفوظ، مررنا أمام حمام السلطان الشهير . قال :

ـ ألا يزال موجودا؟

قلت :

ـ ويعمل أيضا . . معظم حمامات الجمالية لا تزال تعمل . .

وصلنا إلى «سبيل عبد الرحمن كتخدا»، توقف نجيب محفوظ لحظات، أشار إلى «حارة التمباكشية» . .

ـ كان هذا الجانب كله سوقا للتجار الشوام، كانوا يجلسون أمام متاجرهم، يرتدون عمامات صفراء عالية، ويدخنون النرجيلة، ويعرضون «النقل» أى قمر الدين والبندق واللوز والجوز . .

ثم أشار إلى بقايا بناء فسيح قديم، قال :

ـ كان ذلك بيت المهيلمى، أسرة كبيرة، واشترك عدد من أفرادها فى ثورة ٢٣ يوليو . .

قلت لنجيب محفوظ :

ـ سنتجه الآن إلى ميدان بيت القاضى، يمكننا أن نمر بقبو قرمز، أو قبو حارة بيت القاضى . .

قال :

ـ سنتجه الآن إلى ميدان بيت القاضى، يمكننا أن نمر بقبو قرمز، أو قبو حارة بيت القاضى . .

قال :

ـ لقد جئت إلى هنا منذ أسبوع ومررت . .

قلت :

ـ إذن إلى القبو الآخر . .

الكُتّاب..

بدأنا السير فى «حارة بيت القاضى»، قال نجيب محفوظ :

ـ كنا نسميها حارة الكبابجى . .

مررنا بالقبو الأثرى القديم، حيث اختبأت أسرة «أحمد

عبد الجواد» أثناء غارة جوية فى الحرب العالمية الثانية، وعلى أثرها لفظ بطل الثلاثية أنفاسه، تتعرج الحارة. . أشار نجيب محفوظ إلى بعض البيوت المرتفعة، قال إنها كما هى لم تتغير، وفجأة أسرعت خطاه، سبقنى عند المنحنى، حيث يقوم سبيل أثرى قديم، لحقت به، بدا عليه النشاط . .

قال :

ـ هذا هو الكُتاب الذى تعلمت فيه . . السبيل باق، لكن الكتاب أزيل للأسف . .

كان فى الطابق العلوى . . إنه رقم (٩) . .

أشار إلى الطابق العلوى المتهدم، دخل من الباب، عاد ليقول إن السلم باق كما هو لكنه يؤدى إلى لا شىء، فى هذه اللحظة اقترب منا رجل عجوز ردد :

ـ أنتم مين؟ . . عاوزين مين؟

قلت له :

ـ نحن زوار . .

ولكنه راح يردد :

ـ أنتم مين . . عاوزين مين؟

فأدركت أنه لا يسمع، وتذكرت «الشيخ عبد الصمد» فى ثلاثية نجيب محفوظ، فارقنا الكُتاب، واقتربت خطانا من حارة بيت القاضى، ومن المكان الذى ولد فيه نجيب محفوظ . .

البيت القديم..

. . اتسعت خطا نجيب محفوظ، اتجه إلى الناحية المؤدية إلى درب قرمز . .

قال :

ـ أذكر أن بيتنا كان رقم (٨) . .

نظرت إلى البيت القائم عند الناحية، قلت :

ـ إنه يحمل رقم (٨) أيضا . .

قال محمد عبد الرحمن :

ـ أرقام البيوت لا تتغير . .

لكن البيت نفسه تغير، لقد أزيل البيت الذى ولد فيه نجيب محفوظ، كان يتكون من ثلاثة طوابق، بيت رأسى وليس أفقيا، وتحوى «حكايات حارتنا» وصفا دقيقا له، ولكن البيت الموجود الآن يتكون من طابقين، الأول مسكون، أما الثانى فمن طوب أحمر، لم يكتمل بعد، البيت قبيح، أبدى نجيب محفوظ أسفا وحزنا، قال :

ـ كانت شبابيك بيتنا من خشب الخرط، وكان البيت يطل على درب قرمز من ناحية، وعلى ميدان بيت القاضى من ناحية أخرى، كان الميدان مليئا بالأشجار، كنت أمد يدى فأمسك بأوراق الشجر، كان شجرا نسميه، شجر دقن الباشا . .

دار حول الشجرة الوحيدة المتبقية بجوار دورة المياه التى تتوسط

الميدان، والتى بنيت منذ زمن ليس ببعيد، وكان إلى جوارها حوض مستطيل تشرب منه الحمير والبغال، أزيل الآن. قال:

ـ لا أعرف نوع هذه الشجرة، ولكنها بالتأكيد ليست «دقن الباشا». كان إلى جوار بيتنا فى الميدان منزل الدكتور عبد العزيز، كان مدخله فخما، به عيادة، ثم يليها حديقة كبيرة، وفى الداخل المنزل نفسه، أما من ناحية درب قرمز، فكان بيت السكرى يحتل كل هذه المساحة، لم تكن هناك هذه البيوت، وإلى جوار بيت السكرى، كان فيه تكية للدراويش، كانت الحارة فى زمنى القديم يوجد بها البيت الضخم كالسراى وإلى جواره بيت يسكن فيه الفقراء..

سكت لحظات، ثم قال:

ـ كنت أتفرج على الفتوات الذين يجيئون بعد معاركهم فى الخلاء إلى قسم الجمالية، ومن حجرة صغيرة فى السطح، كنت أرى مظاهرات ثورة ١٩١٩، ومظاهرات النساء من بنات البلد فوق العربات الكارو، وضرب الرصاص، وكانت المشاكل تبدأ بينى وبين أمى، كانت تشدنى بعيدا عن النافذة، وكنت أريد الفرجة، خاصة على ضرب الرصاص.

أشار إلى بوابة «بيت القاضى» وقال:

ـ كثيرا ما رأيت المظاهرات والجنود الإنجليز يتصدون لها هنا.. ما أكثر ما رأيت..

استدار ليلقى نظرة على الميدان، على مقعد القاضى ماماى الأثرى القائم فى صدر الميدان، أشار إلى عمارتين مرتفعتين.. قال:

ـ بنيت هاتان العمارتان ونحن هنا، كان لهما زيطة وضجة، لأنهما عاليتان بمقاييس زماننا . .

أثناء مرورنا تحت بوابة بيت القاضى، قال:

ـ كان يقعد هنا واحد بتاع كراملة، اسمه الشابخورلى . .

ضحك نجيب ضحكته العالية المجلجلة:

ـ هل تستطيع أن تدلنى على معنى لهذا الاسم . . الشابخورلى . . وغادرنا بيت القاضى، حيث ولد نجيب محفوظ فى المنزل رقم (٨) . .

مررنا بمدرسة خان جعفر الابتدائية، وفندق الكلوب المصرى الذى شهد فيه نجيب محفوظ أول عروض السينما فى مصر، أصبحنا فى شوارع المشهد الحسينى، حيث مسجد مولانا الحسين، فى مواجهته سبيل عثمانى أثرى، وفوقه مدرسة بين القصرين الابتدائية:

ـ درست هنا لعدة سنوات . .

تأمل نجيب محفوظ واجهة المدرسة لفترة طويلة، ثم مضينا إلى مقهى الفيشاوى القديم، والذى هدم فى عام ١٩٦٩، ولم يعد منه إلا بقايا، فى المقهى أمضى نجيب محفوظ سهرات طويلة، وقضى ساعات أطول يدخن النرجيلة، ويستوحى أحداث وأبطال رواياته عندما كان موظفا فى قبة الغورى، وفى القرض الحسن التابع لوزارة الأوقاف، وهنا دخن النرجيلة، لكن نرجيلة زمان كانت فاخرة، وكان التنباك أنواعا وأصنافا . يقول نجيب محفوظ بلهجة أسيانة تعكس حنينه إلى الزمن القديم:

ـ يا سلام . . زمن . .

ولا أدرى ماذا يجول فى عقل كاتبنا الكبير ، وأى صور بعيدة يستدعيها . أعرف أن هذا المكان يوحى إليه بالكثير ، وأنه ما من مكان ارتبط به فى حياته ، مثل الجمالية ، والحسين ، وهذه المنطقة ، وعلى الرغم من سكنه فى مناطق أخرى من القاهرة ، العباسية ، وشارع النيل ، إلا أنه لم يعكس هذه المناطق بنفس القوة التى صور بها الجمالية ، وما تزال الحارة محور عالمه .

الحــــارة...

. . . فى عام ١٩٢٤ ونجيب محفوظ يبلغ من العمر اثنى عشر عاما ، انتقلت أسرته من البيت القديم بميدان بيت القاضى ، إلى بيت العباسية الذى اشتراه والده بألف جنيه .

وظل نجيب محفوظ مشدودا إلى الجمالية ، يتردد على مقهى زقاق المدق ، ومقهى الفيشاوى ، وأحد أصدقائه وكان تاجرا بالغورية .

وفى منتصف الخمسينيات تزوج ، وانتقل إلى شارع النيل بالعجوزة ، شقة صغيرة بالطابق الأرضى ، مطلة على النيل ، ولم ينقطع عن الجمالية ، ظل حنينه إلى القاهرة القديمة قويا ، جارفا ، وأصبح هذا العالم القديم ، وتلك الحوارى العتيقة بمثابة القلب لكل أعماله ، واستطاع أن يعكس روحها بقوة ، وصدق ، وأن يكسبها الخلود . أذكر أننى كنت مسافرا إلى المغرب منذ عامين ، وفى الطائرة جلست بجوار مدرس مغربى بجامعة محمد الخامس ، كان يرتدى الزى المغربى الشهير ، العباءة البيضاء ذات القلنسوة ، وكان إنسانا

ودودا خفف عنى بحديثه طول الرحلة التى تستغرق حوالى خمس ساعات، وكان عائدا من زيارة للقاهرة قضى خلالها إجازته، كان الباعث الأول على الزيارة، التوجه إلى القاهرة المعزية، حيث يمكنه أن يرى الأماكن التى كتب عنها نجيب محفوظ، وأن يرى المنابع الأولى للشخصيات التى قرأها فى الثلاثية، ولكم كان سعيدا بزيارته تلك. ومنذ أسابيع دعانى المستشار الثقافى الفرنسى إلى حفل عشاء مع عدد من زملائى بمناسبة ترجمة بعض أعمالنا إلى الفرنسية، وهناك التقينا بعدد من المثقفين الفرنسيين القائمين على هذه الترجمة، والعاملين بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية الفرنسى الذى أنشىء مؤخرا بالقاهرة، أخبرنى أحدهم، وهو روائى، يتقن اللغة العربية، أنه استأجر غرفة فى فندق الحسين المطل على الميدان والمجاور لحى خان الخليلى الشهير، وقضى شهرين فى المنطقة، درسها حجرا حجرا، وعاشها من خلال شخصيات عديدة تعرف بها هناك، وكانت أعمال نجيب محفوظ فى خلفية ذهنه باستمرار..

حتى الأعماق..

غاصت الأعوام الاثنا عشر التى قضاها نجيب محفوظ فى الجمالية إلى أعماقه، وانعكست بقوة فى عالمه الروائى، ولم تظهر ضاحية العباسية التى عاش فيها شبابه كله وصدر رجولته إلا كمكان ثانوى، يكون الذهاب إليه انطلاقا من الجمالية، كما نجد فى الثلاثية عندما كان يسعى كمال أحد أبطال الثلاثية لزيارة قصر آل شداد، أما منطقة العجوزة، أو شارع النيل، فلم تنعكسا فى أعماله قط، لم تشده

الشوارع الحديثة والمبانى الشاهقة، وأعتقد أنه مجرد مكان للإقامة، للنوم، وللعمل، ونفس الأمر بالنسبة لى، فقد عشت فى حوارى الجمالية لمدة ثلاثين عاما متصلة، وعندما تزوجت، اضطرتنى ظروف أزمة الإسكان إلى السكن فى حلوان، وابتعدت عن الجمالية جسدا، لكننى لم ابتعد عنها روحا وقلبا، وأعترف أننى ما زلت عاجزاً عن التواصل مع ضاحية حلوان، فلا أنا قادر على إقامة علاقات بها، ولا أنا قادر على الشعور بها، ولا أكلف نفسى عناء استكشافها، ويخاطبنى إحساس دائم أن إقامتى فيها مؤقتة، وأننى يوما ما سأعود مع أسرتى إلى الجمالية . .

والحارة التى عاشها نجيب محفوظ فى عشرينيات هذا القرن، تختلف عن الحارة التى عشتها حتى منتصف السبعينات، كانت القاهرة القديمة فى زمن نجيب محفوظ مركزا لسكنى الطبقة المتوسطة والتجار الكبار، وكبار الموظفين، وكانت حوارى الجمالية ذات تركيبة اجتماعية غريبة، فى الحارة الواحدة نجد قصرا به حديقة غناء، وإلى جواره نجد بيتا متوسطا تسكنه أسرة تاجر، وإلى جواره نجد ربعا ضخما، تسكنه عشرات الأسر الفقيرة. كانت الحارة تضم مختلف المستويات الاجتماعية، ولا تزال هناك بقايا هذا النظام فى حارة درب الطبلاوى بقصر الشوق التى كنت أسكنها، يوجد قصر المسافر خانة الشهير، أو قصر الضيافة الخاص بأسرة محمد على باشا والذى ولد فى إحدى حجراته الخديو إسماعيل، ما زال هذا القصر باقيا حتى الآن، ولكن كمتحف، ومقر لبعض الفنانين التشكيليين، ومن الدور الكبيرة الباقية حتى الآن فى الحارة، منزل آل شمس الدين، وفيهم شيخ الطريقة الأحمدية المرزوقية، ويقع إلى جوار سيدى مرزوق،

وفى نفس الحارة توجد عمارات حديثة يسكنها بعض أبناء الطبقة المتوسطة، وتوجد بيوت قديمة تسكنها عائلات فقيرة، فى حارة الدرب الأصفر، كان يوجد حتى مطلع الخمسينات عدد من الدور الكبيرة التى تحيطها الحدائق، أقدمها بيت السحيمى القائم حتى الآن باعتباره متحفا، وبيت مصطفى جعفر، الذى تتخذه هيئة الآثار كمقر لمكاتبها، أما بقية البيوت فقد اندثرت، منذ الثلاثينات بدأت البيوت ذات الحدائق فى الاندثار، وبدأت هجرة العائلات الكبيرة من الجمالية إلى الأحياء المستحدثة فى القاهرة، تحولت بعض الحوارى الآن إلى وعاء للحضيض الاجتماعى، كما أن يد الإهمال بسطت أصابعها فوق المكان كله، وأذكر أن حارتنا «درب الطبلاوى» كانت تكنس وترش فى اليوم الواحد مرتين، كان الكناس يأتى فى الصباح، وعند الظهيرة يجمع البقايا إلى جوار الجدران، ثم تأتى عربة الزبالة فتزيلها، ثم تجىء عربة الرش، أما الآن فلكم أشعر بالحزن والأسى عندما أرى مياه المجارى طافحة، بحيث تجعل دخول المساجد القديمة والبيوت الأثرية، والتجول أمرا صعبا، ومعظم حوارى الجمالية كانت مبلطة بالحجارة، تماما كشوارع باريس القديمة، والآن قصر النظر الحضارى أصاب موظفى محافظة القاهرة، فقد استبدلوا بهذه الحجارة الأسفلت، وسرعان ما دبت الحفر، والمطبات، هذا ما حدث فى حارة درب الطبلاوى على سبيل المثال، ناهيك عن تغيير بعض معالم المنطقة، وكان من أبرزها هدم مقهى الفيشاوى القديم، هذا القرار الغبى الذى أجهز على واحد من أرق وأعرق مقاهى القاهرة القديمة، ولم يتبق منه إلا شظايا مكان.

ونعود إلى حوار نجيب محفوظ . .

الواقـع والرمـز...

في أعمال نجيب محفوظ الأدبية نجد الحارة على مستويين . . الأول واقعي والثاني رمزي، نجد المستوى الأول في أعمال نجيب محفوظ الواقعية، في زقاق المدق وخان الخليلي ثم الثلاثية، بين القصرين، قصر الشوق، والسكرية، في هذه الأعمال نلتقي بحارة محدودة الملامح والسمات، خاصة إذا طابقناها بالواقع، في هذه الروايات تتحرك الشخصيات في حارات محدودة، التزم نجيب محفوظ بتضاريس الواقع في منطقة الجمالية، والمتتبع لحركة الشخصيات في الروايات إذا طابقها بالمكان الواقعي سيجد أنه التزام مدهش بطوبغرافية المكان، ومعالمه، حتى يمكن بحق اعتبار الثلاثية وخان الخليلي وزقاق المدق، مراجع دقيقة لمعالم المكان خلال الزمن الذي دارت فيه الأحداث، بعكس هذه المعالم المندثرة مثل مقهى سي عبده الذي كان يقع تحت الأرض، وكانت تتوسطه نافورة مياة تحيط بها المقاصير، وكان يجتمع فيه بطل الثلاثية كمال عبد الجواد بصديقه فؤاد الحمزاوي، لقد تتبعت على الواقع حركة الشخصيات التي رسمها نجيب محفوظ فوجدت تطابقا دقيقا بين الوصف وبين معالم المكان، وإذا ذهبنا اليوم إلى زقاق المدق فسنجد المقهى ودكان الحلاق، ودكانا آخر مغلقا. ويقول أبناء الزقاق إنه كان هناك رجل بدين يبيع البسبوسة بالزقاق وهو الذي ظهر في الرواية باسم عم كامل. أما المدق نفسه فما زال موجودا، كذلك الفرن.

في هذه المرحلة الواقعية كانت الحارة انعكاسا أمينا للمكان كما عايشه نجيب محفوظ . .

أما المستوى الثانى الذى نجده فى أعمال كاتبنا الكبير للحارة، فيمكن اعتباره المستوى الرمزى، ونجده فى أولاد حارتنا والحرافيش وحكايات حارتنا والعديد من قصصه القصيرة. هنا تصبح الحارة مزيجا من الواقع والحلم، واقع مقطر، كما نجد فى «حكايات حارتنا» وهذه الحارة الخاصة لها وجود مستقل، ولها مفرداتها، ورموزها، التى تتكرر من حين إلى آخر، نجد البيوت، وشجر اللبلاب، والمقهى، والقبو والخلاء، والسكينة، حيث رجال الله القابعون، المتفرغون لذكره دائمًا لا يسفرون، ولا يظهرون، ولكن تتردد أصداء أدعيتهم الغامضة، حينا بالتركية، وحينا بالفارسية، أما الخلاء فهو نهاية هذا كله، منطلق وفسيح حدود الدنيا، يوحى بالعدم، وعند الأفق تبدو القباب والمآذن، وفى الزوايا يقوم شجر التوت.

فى حوارى نجيب محفوظ تتوالى الأيام معبقة بأسرارها وتظهر شخصيات، وترحل شخصيات، ويختفى البعض إلى الأبد، وتنشب خناقات، وتشج رؤوس، وينصب فتوات، ويهزم فتوات، ويحل الجيل مكان الجيل، وتنقضى الأعمار، وتبقى أسوار التكية عالية تتردد من خلفها أصوات الدراويش، تبدو حوارى نجيب محفوظ هنا شفافة تلخص كل ما فى الحياة وتعكس ملامح الإنسان فى أطواره المختلفة، إنها باختصار صورة مقطرة لعالمنا ودنيانا، صاغها أديبنا الكبير فى شاعرية وحساسية مرهفة، وحب هائل لقلب قاهرتنا القديمة، يدعو إلى الإعجاب.

اتسعت العباسية، وتغيرت عما كانت عليه فى عشرينيات وثلاثينيات هذا القرن، كانت الصحراء تبدأ عند نهاية شارع السرايات وكانت تنقسم إلى قسمين، العباسية الشرقية حيث القصور التى تحيطها الحدائق الوارفة، وبرغم تغير معالم المنطقة، إلا أن الصورة التى رسمها قلم نجيب محفوظ للمنطقة فى الجزء الثانى من الثلاثية، لا تزال بالنسبة لى مسيطرة على العباسية، لا أمضى إليها إلا وتهب علىّ نسمات هذا الزمن البعيد، عندما كان كمال عبد الجواد يمضى من بيته بين القصرين إلى سراى آل شداد، حيث يخفق قلبه، وتثور عواطفه، لأنه ماض إلى بيت المحبوبة عايدة شداد، فى شارع السرايات عاشت، وهلت عليه فى الحديقة، واضطربت عواطفه، وتحت شجرة فى هذا الشارع وقف كمال يرقب النافذة المضيئة فى سراى آل شداد ليلة زفاف عايدة، كان يرتجف بردا وألما، وكان هذا الحب تجربة امتزج فيها الألم بالعشق، لقد أثرت فىّ هذه التجربة تأثيراً كبيراً، وحاورت نجيب محفوظ مرات عديدة، أسأله عن ملامح عايدة فى الواقع، وشخصيتها، كانت تكبره سنا، أى أنها لو كانت تعيش الآن فهى فى حدود الثمانين، والغريب أن إحدى قريباتها تسكن الآن فى شقة تقع بنفس البيت الذى يسكنه نجيب محفوظ فى الإسكندرية، يقول نجيب محفوظ فى الثلاثية:

- عايدة يا قضائى وقدرى. .

ولو لم أعرف عايدة لكنت إنسانا غير الإنسان. .

ولكان الكون غير الكون. . .

وعندما أسأله عن عايدة التى أحبها فى الواقع، فإن وجهه يرق، وتبدو ملامحه غارقة فى الذكريات، الذكريات التى أصبحت بعيدة ونائية. فقد مضى ما يقرب من خمسين عاما على هذا الحب الذى عصف بنجيب محفوظ فى بداية شبابه، كان هذا الحب هو التجربة العظمى فى حياته حتى الآن، لقد أثرت فىَّ هذه العلاقة تأثيراً عميقًا، إلى الحد الذى دفعنى فى مطلع عشرينيات عمرى أن أحب نموذجا مماثلا، وأن أعيش تجربة مشابهة، حيث الحب من أجل الحب، لا أمل فى وصال، أو حياة مشتركة . .

فى العباسية عاش نجيب محفوظ شبابه، حيث انتقلت الأسرة من الجمالية فى سنة ١٩٢٤، ولم ينتقل منها إلا بعد زواجه، وكان ذلك فى الخمسينيات، واستمر يتردد على العباسية يومًا واحداً فى الأسبوع، يوم الخميس، هناك يتناول الغداء، ويقضى يومه كله مع والدته، وفى الساعة السادسة مساء، يتجه إلى مقهى عرابى القديم حيث أصدقاء الطفولة، وفى هذا المقهى كنت أرى نجيب محفوظ منذ نهاية الستينيات . .

المقهى القديم...

كان مقهى عرابى من أشهر مقاهى القاهرة فى النصف الأول من هذا القرن، كان صاحبه من أشهر الفتوات فى القاهرة، ويصفه نجيب محفوظ بأنه كان مهيب الطلعة، وكأنه خلق ليكون زعيما، وبلغ من سطوته أن مأمور قسم الظاهر لجأ إليه يوما يطلب حمايته، ولكن عرابى أقصى عن عرش الفتونة بعد أن ضرب كونستابل إنجليزيًا

وجرده من ثيابه تماما، وذهب الكونستابل الإنجليزى إلى قادته عاريا كما ولدته أمه، عندئذ قبضوا على عرابى، وخرج الرجل من السجن وقد اعتزل الفتونة تماما، وأصبحت حياته كلها مقصورة على المقهى، لم أعرف عرابى إلا من خلال نجيب محفوظ، وعندما بدأت أتردد على المقهى لمقابلة نجيب محفوظ، كان عرابى قد مات منذ عدة سنوات، وكان بالمقهى آثار من العز القديم، وقد اختصرت مساحته الآن بحيث أصبح مستطيلا ضيقا يطل على شارع الجيش، فى هذا المقهى عرفت أصدقاء نجيب محفوظ القدامى، ورأيت معهم شخصا مختلفا تماما عن الذى أعرفه فى الندوة الأسبوعية التى كانت تعقد فى مقهى «ريش» مساء كل جمعة.

فى «ريش» كان نجيب يبدو مستمعا أكثر منه متكلما، يشارك فى الحديث بقدر، ويبدو مهتما بالتعرف على الشبان الجدد، يتحاور أحيانا، ولكنه يستمع فى معظم الوقت، وقد انتهت ندوة «ريش» نهاية غريبة، عندما قام صاحب المقهى بتجديده، واختار يوما للإجازة الأسبوعية هو يوم الجمعة، وهو اليوم الذى كانت تعقد فيه ندوة نجيب محفوظ، ويبدو أن الرجل آثر الراحة، والبعد عن وجع الدماغ، فكثير من المناقشات التى كانت تدور فى المقهى تتطرق إلى موضوعات سياسية، انتقلت ندوة محفوظ إلى أحد الكازينوهات المطلة على النيل.

غير أن لقاء الخميس فى مقهى عرابى كان يتميز بالحيوية، تعلو فيه ضحكات أديبنا الكبير، ويتبادل مع أصدقاء الطفولة الدعابات الساخرة والتعليقات اللاذعة. بسرعة أصبحت جزءا من هذه الجلسة

الحميمة، وكان نجيب محفوظ ينصرف فى الثامنة والنصف مساء، ويصر الأصدقاء القدامى على استبقائى، والسهر معهم فى المقهى، أو فى منزل أحدهم بالعباسية، ولم يكن عسيرا علىَّ أن أتعرف على العديد من شخصيات الأديب الكبير التى قرأتها فى رواياته . .

مولد الكرنك: هنا....

رأيت مولد رواية الكرنك فى مقهى عرابى بالعباسية . . ذات يوم، رأينا شخصا أبيض البشرة، أبيض الشعر، متوسط القامة، عيناه غريبتان، كأنهما مقلوبتان إلى الخارج، وأصابع يده نحيلة، مدببة المقدمة، كأنها مخالب الطيور، عندما دخل المقهى ساد صمت غريب . . . وأسرع الجرسون بإحضار نرجيلة وضعها بجواره، وفرد أمامه الشطرنج، وبدأ أحد الجالسين يلاعبه.

وكان من الطبيعى أن يلفت الغريب نظرنا، مال علىَّ نجيب محفوظ وسألنى:

ـ من هذا؟

لم أكن أعرفه، غير أنى أشرت إلى الجرسون، همست . . .

ـ من هذا . . ؟

ـ إنه حمزة البسيونى مدير السجن الحربى سابقا . . .

واتسعت عينا نجيب محفوظ، وراح يتأمل الرجل خفية، وما زلت أذكر هيئة حمزة البسيونى، وطريقة إمساكه للنرجيلة، وانحناءه على

رقعة الشطرنج، وهذا الجو الثقيل الذى أحدثه وجوده فى المقهى، كان خارجا من السجن لتوه، بعد أن قضى مدة عقوبته عقب اعتقاله بعد ١٩٦٧، وفى الأسبوع التالى لم يظهر، وحكى أصدقاء نجيب محفوظ قصصا عديدة سمعوها عنه، وعن السجن الحربى، وبعد أيام قرأت فى الصحف خبر مقتل حمزة البسيونى خلال حادث سيارة على طريق مصر-إسكندرية الزراعى . .

عصر هذا الخميس الذى رأى فيه نجيب محفوظ جلاد السجن الحربى، ولدت رواية الكرنك التى ظهرت بعد ذلك بسنوات .

الذكريات...

منذ حوالى سبع سنوات انقطع نجيب محفوظ عن مقهى عرابى، واندثر لقاء الخميس الأسبوعى، السبب هو صعوبة المواصلات، فنجيب محفوظ لا يمتلك سيارة خاصة به، وهو يستخدم التاكسى، وأصبح من الصعب حصوله على تاكسى ينقله من شارع النيل إلى العباسية، كما أن والدته توفيت فى مطلع السبعينات، وأصدقاء العباسية أنفسهم لا يترددون على المقهى، منهم من رحل عن عالمنا، ومنهم من أقعده المرض. يقول كاتبنا الكبير فى يأس :

- تصور أننى لا أستطيع القيام بواجبات العزاء بسبب المواصلات . . كثيرا ما أضطر إلى إرسال برقية . . .

كان نجيب محفوظ - ولا يزال - وفيا لمعارف العمر. أصدقاؤه الأعزاء حتى الآن هم الذين عرفهم وعرفوه فى مطلع صباه، كان أعز

أصحابه، مختار نويرة وفؤاد نويرة شقيقى الفنان عبد الحليم نويرة، وعبد الحى الألفى، والدكتور أدهم رجب، وكنت أراهم فى مقهى عرابى. وعندما أذهب إلى مقهى ريش فى الصباح الباكر أجد كاتبنا الكبير يقرأ صفحة الوفيات بدقة، ويخط علامات على أسماء بعض المتوفين، ثم يكتب برقيات العزاء.

فى نجيب محفوظ تتجسد القيم المصرية الأصيلة، من الوفاء، والمجاملة، والحرص على العشرة القديمة، ولا شك أن انقطاعه عن لقاء الخميس الأسبوعى بأصدقاء العمر يؤلمه، ولكن العمل، والزمن قوة لا تقهر، ذلك الزمن الذى أعدم البطل الحقيقى، الكامن، وراء أعظم أعماله الأدبية وأخلدها !!

الحرافيش....

. . قبل أن يسافر نجيب محفوظ إلى الإسكندرية فى الخميس السابق على سفره اتصل بصديقه الفنان بهجت عثمان، فى مثل هذا اليوم من كل أسبوع، وفى تمام الساعة الثامنة يتجهان معا إلى سهرة «الحرافيش» التى لم تنقطع جلساتها منذ أوائل الأربعينات. وأذكر أن نجيب محفوظ كان يغادر مقهى عرابى بالعباسية بعد جلسة الخميس مع أصدقائه القدامى، يتجه إلى كبابجى قريب، يشترى منه كيلو كباب واحدا، هو ما يحمله معه إلى أصدقائه الحرافيش فى الهرم عندما كانت جلسات الجماعة تعقد فى بيت الأديب الراحل محمد عفيفى، كيلو كباب شهير لم يتغير لمدة ثلاثين عاما، ومن قبل كان يحضر معه كيلو بسبوسة، ولكنه منذ أن أصيب بالسكر فى بداية

الستينيات انقطع عن شراء كيلو البسبوسة، واحتج الحرافيش قائلين:

ـ وما ذنبنا نحن؟

ولكن نجيب محفوظ هجر عادة البسبوسة تماما، ومع صعوبة الذهاب إلى سهرة أصدقاء الطفولة فى العباسية، انقطعت عادة الكباب أيضا، فى نفس الوقت كان الزمن يداهم شلة «الحرافيش» أما أن يسافر أحدهم، أو يرحل رحيلا أبديا، حتى كان رحيل محمد عفيفى، وهنا فقدت الحرافيش المكان القديم حيث كانت تعقد، انتقلت الجلسة إلى بيت الفنان أحمد مظهر عضو الحرافيش القديم، ولكن مظهر يسافر أحيانا، فى مساء هذا الخميس بدا نجيب محفوظ وبهجت حائرين، إلى أين؟ وكيف يمضيان السهرة معا، وكانا فى هذه الليلة هما الحرفوشين الوحيدين، والباقى إما فى سفر، أو فى عمل، فكر نجيب محفوظ قليلا، ثم قال لبهجت:

ـ ما رأيك فى الذهاب إلى حلوان، ومفاجأة جمال الغيطانى فى البيت.. يمكننا أن نصحبه ونجلس فى حلوان.. فمنذ سنوات لم أذهب إليها...

تحمس بهجت عثمان صديقى، وأدار محرك سيارته، إلى طريق الكورنيش الطويل، والهواء العليل، ولكن نجيب محفوظ قال بعد لحظات:

ـ ولكن ربما ضايقنا جمال بهذه المفاجأة، ربما كان غير متأهب لاستقبالنا..

وقال بهجت:

ـ هنا تكمن حلاوة الموقف . . .

بسط نجيب محفوظ شفتيه :

ـ لا . . أخشى أن نزعجه ، تعال نذهب إلى المقطم . . .

واستجاب بهجت عثمان ، لقد تغلب تحفظ كاتبنا الكبير على الموقف ، واتجهت السيارة إلى المقطم ، فى الطريق قال محفوظ :

ـ منذ سنوات لم أذهب إلى حلوان ، أذكر أننى زرت المرحوم سيد قطب بعد خروجه من السجن سنة ١٩٦٤ ، سيد قطب كان ناقدا لامعا ، وهو أول من كتب عنى ، وعندما ذهبت إليه فى حلوان ، وجدته يجلس فى البيت ومعه عدد من أصحاب الذقون ، كانوا يجلسون صامتين ويحملقون فى الأمام فقط ، والرهبة فوق المكان ، ولم يكن سيد قطب يشبه صديقى القديم الذى عرفته فيه ، وأردت أن أكسر حدة هذا الصمت الثقيل ، فقلت دعابة عابرة ، وافترضت أن أساريرهم ستنفرج ، سيضحكون ، لكنهم نظروا إلىّ شذرا ، ولم يبتسم أحد ، حتى سيد نفسه ، عندئذ غادرت البيت صامتا ، وشعرت بمدى التحول الذى طرأ على سيد قطب «رحمه الله» . .

واصلت السيارة طريقها إلى ذروة المقطم ، فكر كل منهما فى المرحوم محمد عفيفى ، الذى كانت تلتئم الجماعة فى بيته ، وقفا عند حافة الجبل ، غرق نجيب محفوظ فى التأمل وكانت السيارات حولهما واقفة فى الظلام ، وبداخلها العشاق . . .

يقول نجيب محفوظ :

ـ وبين الحين والحين يمر بعض الشبان المعاكسين ، والذين يستهدفون

إزعاج العشاق فى خلواتهم، كانوا يقتربون من سيارتنا ويصيحون «بطلوا بقى». . ويضيئون الأنوار، وعندئذ يفاجأون أنهم أمام رجلين، فتصيبهم دهشة. . .

فى هذه الليلة شعر نجيب محفوظ بالحزن، وشعر بمرور الزمن، ولابد أنه فكر فى أصدقاء العمر الراحلين. .

ونحن نجلس فى مواجهة بحر إسكندرية، فى حديقة المنتزه، سألته:

- لكن ما هى حكاية الحرافيش؟

عمر طويل

عام ١٩٤٢، تكونت مجموعة من الأصدقاء الذين حصلوا على الجوائز الأدبية لمجمع اللغة العربية، كانت تضم الروائى القدير عادل كامل، صديق عمر نجيب محفوظ، والذى هجر الأدب بعد أن قدم أعمالا أدبية ناجحة، مثل «مليم الأكبر» ورواية «ملك من شعاع» والمرحوم على أحمد باكثير، ويوسف جوهر، وحسين عفيف، ونجيب محفوظ، وبحكم أنهم حصلوا على جائزة واحدة، وكانوا قد اجتمعوا لاستلامها، وارتبطوا بعلاقة صداقة وتعارف، عرف نجيب محفوظ عادل كامل لأول مرة، ويوسف جوهر ثم مرت الأيام، واستمرت علاقة نجيب محفوظ بزميله الروائى عادل كامل، أما الآخرون فقد ذهب كل منهم إلى حاله، واقترح عليه نجيب محفوظ أن يلتقيا فى مقهى عرابى بالعباسية صباح كل جمعة، ورد عادل كامل

قائلا أنه يعرف جماعة منهم بعض معارف نجيب محفوظ ، مثل أحمد زكى مخلوف وأمين الذهبى ، واقترح عادل كامل أن يسهر نجيب محفوظ معهم كل يوم خميس ، وبدأ بالفعل يتردد على هذه الجماعة للسهر ولكن لم يكن مواظبا على كل خميس .

فى سنة ١٩٤٣ تكونت ندوة مقهى الأوبرا ، وكان يحضرها عادل كامل ، وقد استمرت ندوة الأوبرا حتى عام ١٩٦٢ ، وكنت أتردد عليها صباح كل جمعة ، حيث نلتقى بالأديب الكبير ، وأكرر أنها كانت ندوة حية . وربما كانت آخر الندوات الأدبية الكبيرة فى القاهرة ، هى وندوة المرحوم الشيخ أمين الخولى التى كنت أتردد عليها أيضا مساء كل أحد ، وكانت تعرف باسم ندوة الأمناء ، فى هاتين الندوتين عرفت العديد من الأدباء ، وناقشنا العديد من القضايا ، وارتبطت بعديد من العلاقات التى استمر بعضها حتى الآن ، كان المناخ الأدبى حيا ، يتسم بالحيوية ، وقد اندثرت الندوات الأدبية من حياتنا ، ولكم كانت مفيدة خاصة لمن يخطو أولى خطواته فى عالم الأدب ، كما أنها كانت تمثل التواصل بين الأجيال .

أذكر ذات يوم جمعة ، أننى ذهبت مبكرًا ، وجلست فى مواجهة نجيب محفوظ ، كنت أجلس دائما صامتا ، وكنت صغير السن ، إلى درجة أننى لو تكلمت كنت أرفع أصبعى مستأذنا وكأنى فى الفصل أمام أستاذ أرهبه ، وفجأة سألنى نجيب محفوظ :

ـ لماذا تكتب يا جمال؟

والحقيقة أننى لم أدر كيف أجيبه ، ولو سألنى أى إنسان نفس السؤال الآن فلن أجد الإجابة التى تعبر حقيقة عما أشعر به ، كل

ما يمكنني قوله إنني أكتب لأنني وجدت نفسي هكذا، ولأن هذا هو العمل الوحيد الذي أعيش من أجله، وأقنعته.

في سنة ١٩٦٢ انتهت ندوة الأوبرا، عندما تدخل رجال الأمن، ووضعوا حدا لها...

بداية الحرافيش...

كانت جماعة عادل كامل التي تجتمع وتسهر مساء كل خميس، تضم أحمد زكي مخلوف، وأمين الذهبي، وأحمد مظهر، كان أحمد مظهر ضابطا في الجيش وقتئذ، وكان صديقا للروائي عادل كامل، وكان هناك أيضا موظف اسمه محمود شبانه، كان في وزارة المالية...

وانتظم نجيب محفوظ في هذه السهرة.

يقول كاتبنا الكبير:

- سمينا هذه السهرة الحرافيش، انضم إليها البعض ومات البعض، من الذين انضموا في فترة مبكرة بعد أن تكونت، المرحوم محمد عفيفي، وأصبح بيته في الهرم مقرا للسهرة، ثم انضم إلينا توفيق صالح المخرج، ومعه صلاح جاهين، ومصطفى محمود، وكان أحمد بهاء الدين يزورنا من وقت إلى آخر، وطبعا كان هناك بهجت عثمان الرسام، ازدهرت السهرة، وكان شعارها الفن والضحك، مرت علينا حرب فلسطين ولم نتغير، علقنا على الحرب، وناقشناها، قامت ثورة ٢٣ يوليو، ولم تتغير، استمرت السهرة أيضا، واستمر

شعارنا مرفوعا، الفن والضحك، لم يتغير، كان التاريخ الذى نعيشه ينعكس على أحاديثنا وتعليقاتنا، لم يتغير أى شيء، حتى جاء يوم الاثنين الخامس من يونيو.

الهزيمة كاملة...

يذكر نجيب محفوظ أن يوم الخميس من يونيو كان يوافق يوم الاثنين، وكان الحرافيش كلهم مدعوين يوم الخميس التالى فى حفل زفاف صلاح چاهين الذى دعاهم قائلا «فرحى يوم الخميس القادم يا إخوانى، وأنتم وحظكم بالنسبة للحرب، إذا قامت أو لم تقم» وحدث أن نشبت الحرب، ولم نذهب إلى فرح صلاح چاهين. . .

وتغيرت سهرة الحرافيش تماما. . .

يقول نجيب محفوظ:

ـ كان موضوع السهرة، الفن، والضحك، والسياسة، تغيرت وأصبحت السياسة هى المحور الأول والأخير، كنا أحيانا نسهر ونضحك حتى تؤلمنا عظام صدورنا، بعد الخامس من يونيو لم نكن قادرين أبدا على الضحك. . .

الإسكندرية...

. . فى مقهى ديليبس بالإسكندرية حيث اعتاد نجيب محفوظ التردد يوميا لقراءة صحف الصباح، والتأمل فى الضوء المقطر

المغموس بمياه البحر المتمدد على مرمى النظر، أمسك الكاتب الكبير بعلبة دواء، الدواء اسمه «نيكوتيك أسيد». . قال:

- تصور أننى منذ أسبوع أبحث عن هذا الدواء فى الصيدليات ولا أجده. . مع أنه دواء مهم جداً لمرضى السكر، يقيهم المضاعفات الجانبية. . الدواء رخيص، ثم العلبة سبعة عشر قرشا وهذا هو سبب ندرته، بل واختفائه. .

تمهل قليلا ثم قال إن أحد الصيادلة أخبره بأن الشركة المنتجة للدواء طلبت رفع سعره ولكن وزير الصحة رفض، ومن ثم توقفت الشركة عن إنتاجه، لأن تكلفة العلبة تتجاوز الثمن الفعلى، اضطر إلى استخدام دواء أجنبى اسمه «أترومیدان»، برغم ما يقال عن آثاره الجانبية. .

منذ حوالى خمسة وعشرين عاما ونجيب محفوظ مريض بالسكر، اكتشفه مصادفة، عندما ذهب ليعد وثيقة تأمين على الحياة وكان من شروط إعداد الوثيقة أن يكشف كشفا طبيا، وأثناء إجراء التحليلات تبين أنه مريض بالسكر، ومنذ ذلك الحين، يطبق على نفسه نظاما صارما، فى العمل، فى الطعام الذى لا يتناوله إلا مسلوقا وبكميات محدودة، والمشى اليومى، وعندما يأتى الصيف يسافر إلى الإسكندرية، ونجيب محفوظ يكره السفر، لأنه يخل بنظام حياته الذى اعتاد عليه، ويسبب له اضطرابا، فى حياته، لم يسافر إلى الخارج إلا مرتين فقط، المرة الأولى سافر إلى اليمن ضمن وفد أدباء مصريين توجهوا إلى البلد العربى أثناء الحرب التى خاضها الجيش المصرى هناك، تجول نجيب محفوظ فى اليمن، وبهر بطبيعة البلد

العربى الجميلة التى لا نظير لها فى أوربا، حيث الجبال المكسوة بالخضرة، والطبيعة بكر لم تعبث بها يد الإنسان، وكتب قصة عن تجربة جندى مصرى حارب فى اليمن، أما المرة الثانية فقد سافر ضمن وفد رسمى أثناء عمله فى وزارة الثقافة إلى يوغوسلافيا، وهناك حدثوه عن مصيف دوبروفتك، وعن جماله، وعن روعته، وكيف أن برنارد شو كتب عنه ما يشبه الغزل، ويعلق نجيب محفوظ قائلا :

ـ تصور . . لم تبهرنى دوبروفتك، لأن الإسكندرية أجمل منها، لا مثيل لجمال هذه المدينة . .

فضلة الشقة...

يتردد نجيب محفوظ على الإسكندرية فى شهور الصيف بانتظام، إنها المدينة الوحيدة التى يسافر إليها خارج القاهرة، وفى شهور الصيف يتوقف عن العمل نتيجة لإصابته بمرض الحساسية، ويخلو إلى البحر فى الثغر، وإلى التأمل، عرف ندوة توفيق الحكيم منذ الأربعينات، كان يتردد عليها فى كازينو بترو الذى هدم فى السنوات الأخيرة، كان الكازينو يحتل موقعا جميلا بجوار كابينة سيدى بشر، وفى ساحته الخارجية كان توفيق الحكيم يعقد جلساته التى يحضرها عدد من أدباء الإسكندرية، والأدباء القاهريين، ورجال السياسة .

يقول نجيب محفوظ :

ـ لم أعرف الباشوات إلا فى ندوة توفيق الحكيم بعد ثورة يوليو، كنت أجلس عند حافة القعدة، أنظر إليهم من بعيد، وكانوا ينظرون

إليّ بريبة أحيانا، ويصمتون كأنما يظنونني واحدا من جيل يوليو، وكلهم تعرضوا لتطبيق قانون الإصلاح الزراعى، أو فرضت عليهم الحراسة، ومنهم من اعتقل أو سجن . . وكان من رواد ندوة الحكيم فى الإسكندرية إبراهيم باشا فرج أمده الله بالصحة . .

وحتى بداية السبعينات، لم يكن لنجيب محفوظ شقة فى الإسكندرية، بل كان ينزل بأحد البنسيونات، ثم اعتاد على استئجار شقة مفروشة فى عمارة قريبة من سان استيفانو، كان إيجار الشقة ثلاثين جنيها فقط فى الشهر، ثم حدث أن صاحب العمارة بنى طابقا إضافيا، وتبقت مساحة من المكان بنى فوقها شقة صغيرة مكونة من حجرتين وصالة ضيقة، وأراد الرجل أن يؤجرها بشكل دائم لأنه رجل متدين، وأب لفتيات، فقد كره أن يؤجرها إلى أسر من بين أفرادها شبان، فكر فى نجيب محفوظ باعتباره أبا لفتاتين، يقول :

ـ وفوجئت ذات يوم بالرجل يطلبنى فى وزارة الثقافة، كان يحدثنى من الإسكندرية وحدثنى عن الشقة، التى بناها فوق المساحة المتبقية، فوق (فضلة) المكان . . ويسألنى عما إذا كنت راغبا فى استئجارها . . ؟ رحت نازل جرى من المكتب، ومسافر إلى الإسكندرية، وعلى الفور وقعت عقد الإيجار . . بالطبع فلولا هذه الشقة لكان مجيئنا إلى الإسكندرية أمرًا صعبًا، فالإيجارات خلال شهور الصيف الآن خيالية ويكفى أن تعرف أن الشقة التى كنا نستأجرها بثلاثين جنيها، تؤجر الآن مثيلتها بأكثر من خمسمائة جنيه . . .

اتفقنا أن نصحب نجيب محفوظ فى رحلة سيره اليومى على شاطئ الإسكندرية، اتفقنا على أن نلتقى صباح اليوم التالى أمام كازينو سان استيفانو، قال إنه قد يتأخر دقيقة، أو دقيقتين، فانضباطه يختل فى الإسكندرية، لأنه لا يرتبط بعمل محدد، وفى اليوم التالى انتظرنا، كان الموعد فى السابعة والنصف، وفى السابعة والنصف تماما رأيناه قادما من الطريق المنحدر تجاه البحر، قلت ضاحكا:

- فعلا.. النظام يختل...

كان يرتدى قبعة من القش لتقيه الشمس، ويمسك بصحف الصباح، الجرائد الثلاث اليومية، والمجلات التى صدرت فى نفس اليوم، إنه يؤجل قراءتها إلى المقهى، من هذه النقطة يبدأ مشيه اليومى على كورنيش الإسكندرية، أشار إلى كازينو سان استيفانو، قال ضاحكا:

- زمان فى العشرينات كنا نأتى إلى هذا الكازينو، وكان يضم قسمين للسباحة، القسم الذى يقع إلى اليسار مخصص للرجال، والشبان، أما القسم الذى يقع إلى اليمين فكان مخصصا للنساء والأطفال، ولأننى كنت صغير السن، كنت أسبح مع السيدات، كانت المرأة فى هذا الوقت فى حجم الكازينو نفسه، حيث السمنة هى الموضة، وكانت المايوهات طويلة، مليئة بالكرانيش.. كان منظرا عجيبا..!

يمشى نجيب محفوظ لمدة نصف ساعة، المارة قلائل، والعربات

تندفع بسرعة كبيرة، وزبد الموج الأبيض يتخلل البحر الأزرق فى هيئة خطوط طولية هنا وهناك، ثم يبدأ البحث عن تاكسى، يتجه إلى مقهى ديليبس فى ركن هادئ، ثمة رجل وامرأة، يجلسان فى ركن قصى، موعد غرامى مبكر، فى نفس المقعد يجلس نجيب محفوظ، يبدأ قراءة الصحف بعمق، كذا المجلات، وفى التاسعة والنصف يغادر المقهى، نفس العادات الدقيقة، والساعة الداخلية التى لا تخطىء التوقيت، بعد أن انتهينا من قراءة الصحف، قال نجيب محفوظ:

- هل رأيت مسلسل عصر الحب؟

قلت:

- لم أستطع متابعته، لكننى رأيت منه ثلاث حلقات..

بدت عليه علامات الإعجاب:

- فى الواقع أننى سررت جدا برؤيته، الإخراج متمكن، والتمثيل، خاصة سميحة أيوب التى قامت بدور السيدة «عين» وصلاح السعدنى، وبقية الممثلين، غير أن ما أعجبنى هو الاحتفاظ بروح النص الأدبى...

قلت:

- ولكن المسلسل ظلم بسبب مباريات كأس العالم..

وكأى حديث تلقائى، ينتقل من موضوع إلى آخر، قال:

- لقد شاهدت هذه المباريات، إنه مستوى رفيع من الكرة، لقد

اندمجت فى الفرجة لدرجة أننى كنت أصيح من الحماس، وأقوم مهللا . . لقد حركت فىّ هذه المباريات الشوق القديم للكرة . .

وربما لا يعلم كثيرون أن نجيب محفوظ كان من لاعبى الكرة المعروفين فى حى العباسية وكان مشهورا فى الجرى، وكانت هذه ميزة كبيرة فى وقت كان عقل اللاعب يكمن فى قوة ساقيه وقدرتهما على الجرى، ساد بيننا صمت . . ثم سألته :

ـ هل رأيت الترجمة العربية لرواية (يوليسيز) .

تساءل :

ـ هل صدرت؟

قلت :

ـ منذ أسبوع فى القاهرة، ترجمها الدكتور طه محمود طه، أنجز الترجمة فى ثمانية عشر عاما، إنه حدث ثقافى هام . .

قال :

ـ بالفعل . .

قلت :

ـ خاصة أن العصر فيه مغريات عديدة، تجعل إنجاز عمل جاد كهذا أمرا يثير الإعجاب . .

. . متى قرأت يوليسيز؟

قال :

ـ فى أوائل الأربعينات . . قرأتها فى الإنجليزية . . كان الحصول على أى رواية أجنبية أمرا سهلا فى القاهرة وقتئذ . . الآن لا أجد كتبا جديدة فى المكتبات عندما أمر بالمكتبات كل يوم جمعة . .

قلت :

ـ ربما يرجع هذا إلى قوانين الاستيراد التى تعامل الكتاب كأى سلعة أخرى . .

ضم شفتيه أسفا ، عندما استعد للانصراف ، سألته عن رقم تليفونه فى الإسكندرية . .

قال :

ـ لقد كان هذا التليفون بمثابة الهم بالنسبة لى ، تصور أنه متعطل طوال العام ، ومنذ أسبوع عرفنى أحد أقاربى بعامل فى مصلحة التليفونات ، جاء واتفقت معه أن يأخذ ما يريده فى مقابل إعادة الحرارة ، لكنه بعد المعاينة وجد أن الخط لا يقع فى منطقة اختصاصه ، فامتنع عن إصلاحه ، يبدو أن العمال قسموا المناطق إلى اختصاصات ، فلا يعتدى أحدهم على اختصاص الآخر . . وانصرف العامل بدون أن يدلنى على زميله الذى يقع تليفونى فى دائرة اختصاصه . .

سهم قليلا ، ثم قال :

ـ شر البلية ما يضحك ، لقد قرأت فى الصحف أن الملك فهد اتصل بريجان وضغط عليه ليعيد المياه إلى بيروت الغربية المحاصرة ، وقطع

المياه هذا عمل وحشى وغير إنسانى . . فكرت أن يتصل الملك فهد بريجان ليوسطه فى إعادة الحرارة إلى تليفونى . .

وننصرف من ديليبس إلى شوارع الإسكندرية المغموسة فى الضوء حيث الحركة، والنهار يتصاعد مقتربا من منتصفه . .

فى العاشرة والنصف يدخل نجيب محفوظ إلى ندوة توفيق الحكيم فى كازينو الشانزليزيه، تدور مناقشات شتى، ثقافية، وسياسية، وفى الواحدة تماما ينصرف، لقد اعتاد أن يتناول غداءه فى مطعم بسترونس القريب من جليم، هناك يعدون له وجبة خاصة، الخضار المسلوق، واللحم المسلوق طعام مرضى السكر، يقول:

ـ لاقيت عناية لم يحظ بها أى زبون، وفى أحد الأيام قال لى مدير المحل، إن فايق القصبجى يسلم عليك ويوصى بك خيرا . . وعلى الفور تذكرت فايق القصبجى، لقد كان زميلى فى مدرسة الحسينية الثانوية بالعباسية، خلال العشرينات، وهو الآن صاحب محلات بسترونس بعد أن تركها صاحبها الأجنبى . . .

يصمت نجيب محفوظ قليلا، يحملق إلى بحر إسكندرية المترامى إلى الأفق . . ثم يعلق بكلمة واحدة:

دنيـــا!

مع مصطفى أمين لأول مرة...

تسببت ماسورة مياه فى إحداث تحول هام فى حياة نجيب محفوظ! . . لقد رشحت ماسورة فى بيته، وكان لابد من تغييرها،

وكان ذلك يعنى مجىء العمال، وضجة الحفر، والخلع، والتبديل، مما يجعل البقاء فى البيت أمرا مزعجا، بعد عودة كاتبنا الكبير من رحلته اليومية التى يخترق فيها القاهرة من شارع النيل عبر كوبرى أكتوبر، ثم الجزيرة فكوبرى قصر النيل، ثم ميدان التحرير، وفى الثامنة تماما يصل إلى مقهى بوسط المدينة، يمكنك أن تضبط الساعة عند دخول نجيب محفوظ إلى المقهى، ويمكنك أن تضبطها أيضا عندما يطلب فنجان القهوة، ولعلاقة نجيب محفوظ بالساعة حديث آخر، ولكن عرف عنه انضباطه الشديد، فكل شىء فى حياته يتم بحساب زمنى دقيق، بدءا من الثامنة وحتى التاسعة صباحا يتصفح الصحف والمجلات، ثم يدفع الحساب، ويفارق المقهى ليستقل عربة تاكسى عائدا إلى البيت، هذا هو البرنامج الصباحى الذى لم يتغير منذ أن أحيل نجيب محفوظ إلى المعاش فى عام ١٩٧٢، منهيا خدمته الحكومية وعلاقته بدنيا الوظيفة . .

فى هذا اليوم الحار جلست إلى كاتبنا الكبير فى مقهى ريش ولاحظت أنه مضطرب قليلا، ولما اقتربت الساعة من التاسعة تأهبت للقيام، ولكنه أخبرنى أنه سيبقى قليلا، ثم حكى لى بهم كبير ما جرى من تلف الماسورة، وكيف أن البيت مقلوب رأسا على عقب الآن، ودار حديثنا حول ندرة الحرفيين، وارتفاع أجورهم، قال ضاحكا :

ـ تصور أن هذه الماسورة كلفتنى مبلغا يفوق المبلغ الذى دفعه أبى ثمنا لبيت العباسية، أى أكثر من ألف جنيه . .

دارت عقارب الساعة، وتجاوزت التاسعة بنصف ساعة، عندئذ قلت مقترحا :

ـ ما رأيك فى أن نمشى معا إلى مكتبى فى أخبار اليوم؟

فكر قليلا ، وأزاح نظارته إلى أعلى ، ثم قال :

ـ إننى لم أذهب إلى أخبار اليوم أبدا . .

قلت :

ـ وهذا أدعى . . تعال نقض وقتا نزور خلاله الدار ، ثم يصحبه أحد زملائى إلى البيت فى سيارته . .

أطرق لحظات ثم قال :

ـ والله فكرة . .

وهكذا غادرنا مقهى ريش إلى دار أخبار اليوم . .

صحافة زمان...

نجيب محفوظ ابن نكتة ، خفيف الظل ، يجيد فن توليد النكتة من الحوار العادى ، وعندما يطلق تعليقا ساخرا ، تجلجل ضحكته مرتفعة صافية وكأنها لن تنتهى . .

وفى الأربعينات كان يسهر فى الحسين إلى ساعة متأخرة مع أصحاب زمان ، وكان باستطاعته أن يدخل «قافية» مع العديدين ويهزمهم ، شخص واحد فقط كان بإمكانه أن يهزمه ، إنه (عم إبراهيم) بائع الكتب المتجول ، يعرفه أبناء حى الحسين القدامى ، كان قصيرا ، بدينا ، يرتدى جلبابا ، ويمشى يهز رأسه باستمرار ، حاملا مجموعة من الكتب الدينية وكتب التراث الشعبى ، وكان يرى فى

أوقـات مـختلفـة من الليل والنهـار فى مـقـاهى الحـسين، خـاصـة الفيـشاوى، كـان (عم إبراهيم) يجلس فى مواجـهـة نجيب مـحـفـوظ وصحبه، ويدخل معهم قافية، ويهزمهم جميعا، يقول الدكتور أدهم رجب صديق عمر نجيب محفوظ :

ـ كان نجيب محفوظ ابن نكتة!

كـان فى رمـضـان يصـحـبنا إلى الفـيـشـاوى القـديم فى أواخـر العشرينات وأوائل الثلاثينات حيث كان هناك أولاد نكتة محترفون، يتصايحون بالنكتة الجنسية، السافرة، وياويل من يستلمون قافيته، فكان نجيب مـحفـوظ يتـصـدى لهم بمقدرة غـريبة على توليـد الأفكار وتخليقـها بنكت تجعلهم أضحوكة الجميع، وكـان صوته جهـوريا، وخـارقـا فى سـرعـة ابتـداع الفكرة، حتى أنه كـان يتـصـدى لعشـرين شـخصـا دفعة واحدة بالنكتة تلو النكتة حتى يسكتهم جميعا، وكذا نحن رفاق صباه ننقلب إلى (مطيباتية) له. كان رجلا جبارا فى النكتة إلى حد أنه كان يضحك خصومه على أنفسهم . .

ما لـم يقله الدكتور أدهم رجب، أن عم إبراهيم بائع الكتب كان الوحيد الذى يمكنه أن يقهر نكتة نجيب محفوظ، وقد ظلا أصدقاء، كلما ذهب إلى الفيشاوى يجىء عم إبراهيم ويجلس إليه، حتى توفاه الله فى الستينات، إن هذا الجانب الخـفى من شخصية نجيب محفوظ لا يعرفه الكثيرون، خاصة الذين جلسوا إليه فى ندواته الأدبية، حيث يجيـد إقـامـة حـاجـز وهمى بينه وبين الآخـرين، ولكن هذا الجـانب انعكس فى أدبه، ويكفى أن ترجع إلى صـفـحـات الثـلاثيـة حـيث سهرات أحمد عبد الجواد، ومجالسه . .

فى الطريق إلى أخبار اليوم تحدثنا عن الصحافة أيام زمان، وذكرت له صفحات من كتاب الصحفى الكبير مصطفى أمين «من عشرة إلى عشرين»، عن صحف العشرينات، عندما كان الردح فى مانشيتات الصحف، وكانت إحدى الصحف تكتب عن أحد كبار كُتاب حزب الوفد. كانت والدته فقيرة لم يكن لها مرتزق غير المعونة والعطف.. وكان يسكن فى الفجالة، فى حجرة مظلمة أجرتها فى الشهر ستون قرشا، وكانت هذه المعلومات كلها كاذبة، كذلك كان التحدث بوقاحة عن زوجات وأمهات، وأخوات وعمات زعماء الوفد، وذات يوم خرجت جريدة الكشكول، وهى إحدى صحف الحكومة، تنشر بعنوان «النحاس يطرطر»، ويضحك نجيب محفوظ:

ـ لقد ذكرتنى بمجلة اسمها «المطرقة» كانت تطبع على ورق لحمة، وكان صاحبها يمتلك دكانا صغيرا فى شارع الخليج، كان وفديا، وضد حزب الأحرار الدستوريين، كان ينشر خبرا فى الصفحة الأولى يقول: «ضبط فلان الحر الدستورى وهو يمشى فى ميدان المحطة»..

يضحك نجيب محفوظ..

ـ وكأن انتماء الإنسان إلى الحزب تهمة، أو يكتب فى صفحة الوفيات، الحمد لله.. مات فلان الفلانى وهو حر دستورى...

نضحك معا، وأتذكر ما رواه لى صديقى الكبير عن عروض كثيرة قدمت إليه للعمل فى الصحافة، ولكنه رفضها، إخلاصا منه للأدب...

ونصل إلى دار أخبار اليوم..

اللقـــاء الأول...

. . . لأول مرة يدخل نجيب محفوظ دار أخبار اليوم، اقترحت على صـديقى محـمـد عبـد الرحـمن أن ينتـهـز الفـرصـة ويلتـقط مجمـوعة من الصـور للكـاتب الكبير، ولأن محمـد عبـد الرحمن يعد أستـاذا فى تصـوير البورتريه، فقد دعا نجيب محفوظ بلباقة إلى الاستديو الخاص والملحق بقسم التصوير، همست فى أذنه أن الرجل مصاب بحساسية ضد الضوء خاصة فى الصيف، وبالفعل أنجز محمـد عبد الرحمن عمله بسرعة، وفى مكتبه وضع أمامنا سـتة أفـلام تحتـوى على حوالى مائة صورة لنجيب محفوظ، قلت له:

-لقد التقط لك أكثر من مائة صورة. .

أبدى دهشته. . .

-إنه لم يستغرق إلا دقائق. . هو كان بيصور من ورايا؟ ولم يكن من المعقول أن يوجد نجيب محفوظ فى الطابق الثانى، ومصطفى أمين فى الطابق التاسع، ولا يلتقيان فكل منهما يمثل قمة الفن الذى يعمل فى مجاله، كما أنهما ينتميان إلى جيل واحد، بل إنهما ولدا فى سنة واحدة، وعاشا أحداثا واحدة، من هنا كان اهتمام نجيب محفوظ بأن يتابع مذكرات مصطفى أمين التى تنشر تحت عنوان «من واحد إلى عشرة»، و«من عشرة إلى عشرين». ومعا صعدنا إلى الطابق التاسع. . .

قال مصطفى أمين :

ـ كـان يجب أن يتم هذا اللقـاء منذ ثمـانيـة وثلاثين سنة . . هل تذكر؟ . . لقد أرسلت إليك مع صحفية كانت تعمل فى أخبار اليوم لننشر لك قصتين فى الشهر . . .

هز نجيب محفوظ رأسه وقال :

ـ لو أن ذلك حدث ، ربما كان تغير مسار حياتى . . .

لقد حدث عندما صدرت أخبار اليوم ، أن التحق توفيق الحكيم كـاتبـا بهـا ، وقـرأ مـصطفى أمين إحـدى روايات نجيب مـحـفـوظ ، وأعجب بهـا ، كـان مـحفـوظ وقـتئذ شابا وكـاتبـا مجهـولا ، غيـر أن مـصطفى أمين استـشعـر الموهبة الكامنة فى كتاباته ، واستـفسـر عنه ، وعلم أنه يمت بصلة إلى إحـدى المحـررات العـاملات بأخـبـار اليـوم ، وأرسل معها عرضا إليه ، أن يكتب قصتين قصيرتين فى الشهر مقابل أربعين جنيـهـا ، كـان مـرتب نجيب مـحـفـوظ فى هذه الفـتـرة ثمـانيـة جنيـهـات فقط من وظيفـته بوزارة الأوقـاف ، وكـان المبلغ يمثل إغـراء كبيرا ، إنه يعـادل الآن ما قيمته أكثر من أربعمائة جنيه شهريا ، ولكن نجيب محفوظ لم يقبل . . .

ـ كنت مـشـغـولا فى هذا الوقت بكتـابة روايتى «زقـاق المدق» . . وكان معنى كتابة قصتين كل شهر أن أخرج من الجو العام للرواية . . .

ويقول مصطفى أمين :

ـ لقد فسرت الأمر وقتئذ على أنك رفضت لأن موقف أخبار اليوم كان ضد مصطفى النحاس وأنت معروف بوفديتك . .

ويضحك نجيب محفوظ .

ويقول مصطفى أمين :

ـ على أية حال كان من الممكن نشر الرواية مسلسلة . .

ويقول نجيب محفوظ :

ـ لو تم ذلك لتغير مجرى حياتى كما قلت . .

ثم يسأل :

ـ متى ستنتهى من كتابة من عشرين إلى ثلاثين؟

يجيب مصطفى أمين :

ـ إننى أكتب فى المذكرات الآن وآمل أن أنتهى منها إذا عشنا ، وكان لنا أجل . . وبعدها أكتب من أربعين إلى خمسين ، ثم من خمسين إلى ستين . . ولكن هل يسمح لنا العمر بذلك . .

وألاحظ هذه النبرة المزعجة فى حديث مصطفى أمين «إذا عشت» وإذا سمح لنا العمر . .

قال لنجيب محفوظ :

ـ لقد قرأت قصتك ، الشيطان يعظ ، ورأيت الفيلم ، إنها قصة سياسية من الدرجة الأولى ، لكنها لم تأخذ حقها من النقد . .

ويصمت نجيب محفوظ شأنه عندما يسمع من يتحدث عن إحدى

قصصه واقترح أن يرى مجموعة الصور النادرة التى يحتفظ بها الأستاذ مصطفى أمين عن ثورة ١٩١٩ ، ونتنقل إلى نهاية الحجرة، حيث مجموعة الصور النادرة . .

مظاهرات بالملاية اللف...

يمكننى القول إنه متحف حى ونادر لأحداث ثورة ١٩١٩ ، كنا واقفين، بينما الأستاذ مصطفى أمين يقدم إلينا الصور واحدة إثر الأخرى، واستغرق كاتبنا الكبير فى الرؤية، صور المظاهرات، أصحاب الجلاليب، حفاة الأقدام . . مظاهرات النساء، نساء يرتدين الملاءات اللف، والحبرات، والرجال يحفون بهن .

يقول مصطفى أمين :

ـ انظر . . ما من رجل يعاكس سيدة، ما من تصرف خارج . . ويسأل نجيب محفوظ :

ـ هل رأيت مظاهرات النساء الشعبيات بالملاءات اللف؟

يومئ مصطفى أمين :

ـ نعم . . نعم . .

وتتتابع الصور، مظاهرات أمام فندق شبرد القديم، بيت الأمة محاصر بالبوليس، جندى إنجليزى يحرس تراما، عربة تاكسى قديمة، شهيد فقير فى أحد الأحياء البلدية يرقد قتيلا فوق أرض الشارع . .

* * *



القاهرة القديمة بين الواقع
والإبداع فى عالم محفوظ



يقول الروائى العربى الكبير نجيب محفوظ . .

. . حبى وارتباطى بالقاهرة القديمة لا مثيل لهما، أحيانا يشكو الإنسان بعض جفاف فى النفس، تعرف هذه اللحظات التى تمر بالمؤلفين، عندما أمر فى المنطقة تنسال علىّ الخيالات، وأغلب رواياتى كانت تدور فى عقلى كخواطر حية أثناء جلوسى فى هذه المنطقة، يخيل لى أنه لابد من الارتباط بمكان معين، أو شىء معين يكون نقطة انطلاق للمشاعر والأحاسيس . . والجمالية بالنسبة لى هى تلك المنطقة.

. . إن المنطقة التى تعلق بها نجيب محفوظ هى القاهرة القديمة، التى تعتبر أساس المدنية قبل أن تتسع وتتشعب فى القرون التالية على إنشائها (٩٦٩م)، ولد نجيب محفوظ فى ميدان بيت القاضى، فى نفس منطقة بين القصرين التى أصبحت مسرحا لأعظم أعماله الأدبية، الثلاثية، وعاش حتى سن الثانية عشرة، ثم انتقل إلى السكنى فى حى العباسية القريب، ولم تنقطع صلته بالقاهرة القديمة حتى يومنا هذا، أعطى أسماء الشوارع والحوارى لخمس من أهم رواياته، خان الخليلى، وروايته زقاق المدق، ثم الثلاثية التى تتكون من ثلاثة أجزاء: بين القصرين، وقصر الشوق، والسكرية، وتلك أسماء باقية حتى يومنا هذا، فيها دارت أحداث هذه الروايات، فإلى

أى حد استطاع تجسيد القاهرة القديمة فى أعماله؟ وهل تتطابق القاهرة الحقيقية فى الواقع مع القاهرة كما تبدو فى الروايات؟ سأركز على الثلاثية أكبر أعمال نجيب محفوظ وأهمها، وسوف أستند إلى خبرتى بالمكان، حيث إننى عشت فى القاهرة القديمة لمدة تتجاوز الثلاثين عاما، وعرفت نفس الشوارع والحوارى التى عاشها نجيب محفوظ.

بين القصرين

.. تطالعنا القاهرة القديمة فى «بين القصرين» الجزء الأول من الثلاثية، فى الصفحات الأولى، ومن خلال عينى أمينة زوجة أحمد عبدالجواد، أثناء وقوفها خلف النافذة تتطلع إلى الطريق فى انتظار زوجها.

.. كانت المشربية تقع أمام سبيل بين القصرين، ويلتقى تحتها شارعا النحاسين الذى ينحدر إلى الجنوب وبين القصرين الذى يصعد إلى الشمال، فبدا الطريق إلى يسارها ضيقا ملتويا متلفعا بظلمة تكثف فى أعاليه حيث تطل نوافذ البيوت الدائمة وتخف فى أسافله بما يلقى إليه من أضواء مصابيح عربات اليد وكلوبات المقاهى وبعض الحوانيت التى تواصل السهر حتى مطلع الفجر، وإلى يمينها التف الطريق بالظلام حيث يخلو من المقاهى، وحيث توجد المتاجر الكبيرة التى تغلق أبوابها مبكرا، فلا يلفت النظر به إلا مآذن قلاوون وبرقوق لاحت كأطياف من المردة ساهرة تحت ضوء النجوم الزاهرة.

تلك صورة الطريق كما تبدو فى أول مقطوعة وصفية للطريق،

كيف يبدو المكان فى الواقع؟ يمكن تحديد الموقع بسهولة من خلال وصف نجيب محفوظ، إنه هذا الجزء من شارع بين القصرين (واسمه حاليا شارع المعز لدين الله نسبة إلى مؤسس القاهرة) حيث توجد مجموعة من الآثار الهامة. وإذا نظرنا إلى الطريق أثناء مشينا فيه من الشمال إلى الجنوب، فسوف نجد مجموعة الآثار الإسلامية التالية، والترتيب طبقا لموقع كل منها . .

* مسجد برقوق.

* مسجد الناصر قلاوون.

* قبة المنصور قلاوون.

* حمام السلطان قلاوون.

* مستشفى قلاوون.

إلى الناحية اليسرى، وفى المواجهة تماما . . سنجد:

* قصر الأمير بشتاك.

* سبيل بين القصرين العثمانى الطراز.

* بداية الشارع المؤدى إلى ميدان بيت القاضى.

* قبر الصالح نجم الدين أيوب.

* شارع النحاسين.

والملاحظة الأولى التى تستوقفنا هنا أن المكان يخلو تماما من البيوت السكنية، وأقرب المبانى السكنية تقع فى الخرنفش إلى

الشمال، وفى حارة الصالحية إلى الجنوب، لقد حدد نجيب محفوظ مكان البيت الذى ستدور فيه معظم أحداث الثلاثية، حدد مكانه فى مواجهة سبيل بين القصرين، والسبيل موجود بالفعل، لكن فى مواجهته يقوم مسجد برقوق الضخم، أى أن المنزل فى الرواية يحتل مكان المسجد، ويقوم فى مكان لا توجد به أى بيوت مسكونة، كما أنه يصف مآذن برقوق وقلاوون من خلال عينى أمينة، وحتى يمكن لها أن ترى المئذنتين فلابد أن يكون موقع البيت على الناحية الأخرى، وإذا صح موقع البيت على الناحية الأخرى فإن النافذة لن تواجه أبدا سبيل بين القصرين، فى نفس الوقت نجد أن وصف المؤلف للطريق يطابق الواقع بالنسبة لازدحامه إلى جهة اليسار، وخلوه من الحركة فى الجزء الجنوبى، ولكن يعود الوصف ليصبح بعيدا عن واقع المكان، عندما تنظر أمينة إلى سبيل بين القصرين، ثم إلى منعطف حارة الخرنفش، وإلى بوابة حمام السلطان، ثم إلى المآذن، إن من ينظر إلى هذه الأشياء لابد أن يكون موقعه فى منتصف الطريق تماما، وليس خلف نافذة تقع فى مواجهة سبيل بين القصرين.

فى الفصل السابع، يقول المؤلف:

عندما بلغ السيد أحمد عبدالجواد دكانه الذى يقع أمام جامع برقوق بالنحاسين..

وفى الواقع نجد سبيل بين القصرين أمام مسجد برقوق، وبجواره قصر الأمير بشتاك ولا توجد متاجر فى هذا الجزء، بل إن الدكاكين تقع إلى الجنوب، على مسافة حوالى ثلاثمائة متر فى النحاسين، فى الفصل الثانى عشر يصف نجيب محفوظ حركة ياسين عبد الجواد:

. . ثم اتجه صوب الصاغة، ومنها إلى الغورية، ومال إلى قهوة سى على على ناحية الصناديقية، وكانت شبه دكان متوسط الحجم يفتح بابها على الصناديقية وتطل بكوة ذات قضبان على الغورية وقد اصطفت بأركانها الأرائك . .

فى الواقع نجد أن ترتيب الشوارع التى تحرك فيها كالآتى :

(الصاغة ـ الغورية ـ الصناديقية) . .

أما مقهى سى على فلا يوجد على ناحية الصناديقية أى مقهى يحمل هذا الاسم حاليا أو خلال المائة سنة الأخيرة، وإذا أخذنا بالمقهى فى الرواية فإن الجالس فيه لا يمكن أن يرى الغورية من حارة الصناديقية، إذ إنها بعيدة عن الغورية ويفصلها عنها شارع الأزهر الذى كان ممرا ضيقا فى وقت أحداث الرواية ١٩١٨ ، ثم اتسع منذ عام ١٩٣٠ .

وفى الفصل الحادى والعشرين يصف نجيب محفوظ منزل أم مريم . .

. . النافذة التى تطل على حمام السلطان مباشرة . . وفى الواقع، نجد أن حمام السلطان لا يقوم أمامه أى بيت، بل ما نجده هو قبر الصالح نجم الدين أيوب، إن حمام السلطان يواجهنا مرة أخرى عندما تنظر إليه عائشة .

وهكذا وقفت ذاك الصباح فظل طرفها حائرا ما بين حمام السلطان وسبيل بين القصرين وفؤادها الفنى يواصل خفقاته حتى تراءى عن بعد «المنتظر» وهو ينعطف قادما من الخرنفش . .

وإذا اعتبرنا - كما فى الرواية وليس كما فى الواقع - المنزل فى مواجهة سبيل بين القصرين، فمن الصعب للواقع فيه، الناظر من خلف النافذة أن يرى حمام السلطان والسبيل معا، إن دائرة الرؤية لا تتسع لهما معا.

نلاحظ من خلال رصد حركة الشخصيات فى واقع الرواية المتخيلة، أن المؤلف لا يلتزم الدقة عند وصف التفاصيل، ولا يتقيد بمعالم المكان الواقعى، على العكس من ذلك، فإنه عندما يرسم الملامح العامة يصبح أكثر دقة ففى الفصل الثامن عشر، يمضى ياسين عبر شارع الجمالية، ثم يرى عطفة قصر الشوق، إن الوصف عام ودقيق إلى حد ما، لأن قصر الشوق اسم يطلق على شارع يتفرع من طريق الجمالية وهو الذى اعتبره المؤلف عطفة (أى منحنى) أما عطفة قصر الشوق فى المكان الواقعى، فتقع عند نهاية شارع قصر الشوق، وتبدأ من مدرسة عبدالرحمن كتخدا الابتدائية، وعندما تذهب أمينة لتزور مسجد سيدنا الحسين مع كمال، فإن الوصف العام للمكان يبدو صحيحا إذا قورن بالمكان الواقعى، إنهما يغادران البيت إلى درب قرمز، ثم ميدان بيت القاضى يتصدره مبنى قسم الجمالية ثم مدرسة خان جعفر الابتدائية، ثم طريق خان جعفر حيث يلوح جانب من مسجد الحسين، إن الوصف هنا دقيق والمكان المتخيل يطابق المكان الواقعى تماما، والمعالم التى ذكرها نجيب محفوظ موجودة حتى يومنا هذا، قسم البوليس ومدرسة خان جعفر، وميدان بيت القاضى، كذلك نجد أن الوصف العام يطابق الواقع فى الفصل الأربعين عندما تنتقل الأسرة من بين القصرين إلى السكرية المجاورة لبوابة المتولى

ونلاحظ أن نجيب محفوظ يستخدم الاسم الشعبى لهذه البوابة الضخمة التى لا تزال متبقية إلى يومنا هذا، وتعتبر واحدة من أربع بوابات قديمة وصلت إلى عصرنا من بوابات القاهرة القديمة والتى كان عددها ثمانى بوابات، وعندما يذهب أحمد عبدالجواد مع أولاده لصلاة الجمعة فى مسجد الحسين يسلكون نفس الطريق الذى مشت فيه أمينة وكمال من قبل، لا يذكر نجيب محفوظ التفاصيل، إنما يعبرون ميدان بيت القاضى ثم نراهم داخل المسجد، وفى نهاية «بين القصرين» تتحرك المظاهرة التى اشترك فيها فهمى من ميدان المحطة حيث محطة السكك الحديدية الرئيسية وتتجه إلى مدخل شارع نوبار، ثم تقترب من حديقة الأزبكية، ويلوح ميدان الأوبرا، وهنا ينطلق الرصاص، ويقتل فهمى، إن القارئ الذى لم يعاصر القاهرة خلال العشرينيات يدهش، إذ كيف تتحرك المظاهرة من ميدان المحطة إلى شارع نوبار؟ وهو شارع يقع حاليا فى منطقة السيدة زينب إلى الجنوب، بينما يقع ميدان الأوبرا فى وسط المدينة، سيتساءل القارئ، كيف تمر المظاهرة بشارع نوبار قبل أن تعبر ميدان الأوبرا؟ ويبدو نجيب محفوظ هنا كأنه لا يعرف ترتيب الشوارع فى القاهرة، ولكن الحقيقة عكس ذلك، إذ إن اسم نوبار كان يطلق على شارع إبراهيم باشا، (ثم شارع الجمهورية فيما بعد) وفى بداية عهد الملك فاروق أطلق اسم جده إبراهيم باشا على شارع نوبار، وأطلق اسم نوبار باشا على شارع آخر صغير يبدأ من ميدان لاظوغلى وينتهى فى شارع المبتديان، وكان اسمه شارع الدواوين.

ونلاحظ فى الجزء الأول من الثلاثية أن حركة الشخصيات تتم

داخل منطقة القاهرة القديمة، تمتد الحركة مرة واحدة عندما يذهب ياسين مع زوجته إلى المسرح فى الأزبكية، لا نرى أى وصف للمسرح، إنما نرى ياسين فى البيت بعد عودته، ثم تمتد الحركة إلى ميدان بيت المحطة حيث تبدأ المظاهرة ويبلغ عدد فصول الرواية واحدا وسبعين فصلا، تدور الأحداث فيها كالآتى:

(٤٠) فصلا فى منزل أحمد عبد الجواد.

(١٢) فصلا فى دكان أحمد عبد الجواد الذى يبعد نصف كيلو متر عن البيت.

(٨) فصول فى الطرق بمنطقة الجمالية، وأبعد نقطة تبعد عن المنزل وصلها أحد شخصيات الرواية ٣ كيلو مترات. (فهمى فى ميدان المحطة).

(٣) فصول فى بيت زبيدة العالمة، يبعد كيلو واحد عن بيت أحمد عبدالجواد.

(٣) فصول فى بيت أم أمينة بالخرنفش، يبعد نصف كيلو عن بيت أحمد عبد الجواد.

(٣) فصول فى بيت السكرية ويبعد حوالى اثنين كيلو.

(١) فصل فى بيت محمد رضوان المجاور لبيت أحمد عبد الجواد.

(١) فصل فى مسجد الحسين الذى يبعد حوالى كيلو متر واحد فقط.

وفى الجزء الأول يسافر أحمد عبد الجواد إلى مدينة بورسعيد، وهى المرة الوحيدة التى سيسافر فيها خلال أحداث الثلاثية كلها.

لكننا لا نرى الطريق إلى بورسعيد، ولا يذكر المؤلف أى تفاصيل فيما عدا خروج أحمد عبد الجواد من البيت ثم عودته.

قصر الشوق

.. تنتهى أحداث الجزء الأول فى أبريل ١٩١٩. وتبدأ أحداث الجزء الثانى «قصر الشوق» فى يوليو ١٩٢٤، أى تمرست سنوات، أصبح للشخصيات حركة مختلفة داخل مدينة القاهرة، تقدم بهم العمر، وأصبح لكل منهم علاقاته، لهذا ستشمل حركتهم مناطق من المدينة لم تذكر فى الجزء الأول، فى بداية الفصل السادس يمشى كمال الذى أصبح فى سن المراهقة مع صديقه فؤاد. يمرون بقبو قرمز، وهذا القبو يتردد ذكره فى الثلاثية عدة مرات والقبو حقيقى.

ويمتد تحت أحد المساجد المملوكية القديمة، وتحيط به الأساطير، ولكن نجيب محفوظ يخلط بينه وبين قبو آخر يقع تحت قصر الأمير بشتاك، وهذا القبو يتكون من عدة منحنيات بعكس القبو الأول، وإذا أخذنا موقع بيت أحمد عبدالجواد فى الاعتبار، فإن نجيب محفوظ يقصد القبو الثانى، لكنه يطلق عليه اسم القبو الأول البعيد عن مكان البيت.

يصل كمال وصديقه إلى مقهى أحمد عبده الذى يقع تحت الأرض، هذا المقهى كان موجودا حتى الثلاثينيات، ويبدو من وصف نجيب محفوظ له، ومن ذكريات الرجال المعمرين فى المنطقة أنه وصف دقيق، أزيل هذا المقهى ومكانه الآن مجموعة مبانى الأميرة شويكار القائمة حتى الآن.

فى نفس الفصل يرد ذكر الكلوب المصرى عندما يقول كمال لصديقه . . «سنذهب يوم الخميس القادم إلى الكلوب المصرى لمشاهدة شارلى شابلن ، فنلعب الآن عشرة دومينو . . » .

والكلوب المصرى فندق قديم لا زال موجودا حتى الآن بالقرب من مسجد الحسين ، ويضم الفندق فناء مكشوفا كانت تعرض به أفلام سينمائية فى الثلث الأول من هذا القرن ، وأول عرض سينمائى قدم فى مصر شاهده المتفرجون فى هذا الفندق عام ١٩١٠ .

فى الفصل السابع يتجه أحمد عبد الجواد إلى :

«عوامة فى نهاية المثلث الأول من طريق إمبابة . . »

وتوجد بالفعل عوامات فى هذه المنطقة كان بعضها يستخدم للهو وقضاء أوقات المتعة ، وسوف يتردد أحمد عبد الجواد على هذه العوامة عدة مرات ، فى الفصل الثامن يرى أحمد عبد الجواد فى حارة الوطاويط زنوبة حبيبته العالمة ، والحارة موجودة حتى اليوم بجوار مسجد الحسين وتؤدى إلى شارع الجمالية ، وفى القرن الماضى كانت مسقوفة بأغصان الشجر ، ولهذا استقرت بها بعض الوطاويط ، ومن ثم سميت بحارة الوطاويط .

فى الفصل الرابع عشر ، يذهب كمال إلى العباسية ، يصف نجيب محفوظ الطريق بشكل عام ، شارع الحسينية ، ثم شارع العباسية ، ثم الوايلية ، ثم شارع السرايات ، وهذه الشوارع كلها موجودة بنفس الأسماء حتى الآن ، ولكن المعالم التى وصفها المؤلف تغيرت ، كانت العباسية فى زمن الرواية ضاحية هادئة ، مليئة بالحدائق والأشجار ،

والقصور الكبيرة كانت مقرا لسكن الأثرياء والطبقة الراقية، لقد تغير الوضع الآن، فالعباسية حاليا منطقة شعبية، مزدحمة، أما القصور فقد زالت تماما، وقصر آل شداد الذى يصفه نجيب محفوظ كان قصرا حقيقيا ولكن اسم الأسرة فى الواقع يختلف عن الرواية، أزيل القصر ومكانه الآن عمارتان حديثتان، فى الفصل السابع عشر يخرج كمال مع حسين شداد وشقيقته عايدة، ويتجهون إلى الهرم للنزهة، تنطلق السيارة من العباسية، إلى السكاكينى، ثم إلى شارع الملكة نازلى (أصبح اسمه الآن شارع رمسيس) إلى الزمالك، ثم طريق الجيزة، إلى سفح الهرم الأكبر، ثم أبو الهول، والطريق من العباسية إلى الهرم مطابق للواقع، ولا يصفه نجيب محفوظ بالتفصيل، إنما يذكر الملامح العامة فقط. ثم يذهب كمال إلى وجه البركة فى الفصل الخامس والثلاثين، والمكان حقيقى كان اسمه بالعامية (وش البركة)، وكله مخصص للدعارة التى كانت مباحة فى العشرينيات، حتى عام ١٩٤٩، ويرتبط بوجه البركة شارع آخر اسمه درب طيب، والمكانان حقيقيان، ولا يظهران فى الرواية إلا بعد مرور كمال بأزمة عاطفية حادة، تؤدى به إلى الخمر، والتعرف على المرأة كجسد فى هذا المكان الذى يقع بالقرب من حديقة الأزبكية فى وسط المدينة، يتكون الجزء الثانى «قصر الشوق» من (٤٤) فصلا.

(١٣) فصلا فى بيت أحمد عبد الجواد بين القصرين.

(٨) فصول فى ضاحية العباسية قصر آل شداد.

(٤) فصول فى دكان أحمد عبد الجواد بالنحاسين.

(٧) فصول فى العوامة أو الطريق المحاذى لنهر النيل.

(٢) فصلان فى السكرية .

(٢) فصلان فى وجه البركة .

(٣) فصول فى بيت ياسين بقصر الشوق .

(١) فى مقهى أحمد عبده .

(١) فى بيت محمد رضوان .

(١) الهـــــرم .

(١) فى مسجد الحسين .

(١) فى بيت زبيدة العالمة .

ونلاحـظ أن منطقة قصـر الشـوق التى يحمل الجزء الثانى اسمها لا تحتل من أحداث الرواية إلا ثلاثة فصول، ويرجع ذلك إلى سبب طريف، وهو أن الثـلاثيـة كـانت فى الأصـل رواية واحـدة ضـخمـة عنوانها بين القصرين، وكـان مستحيلا من الناحية العملية أن تصدر فى كـتـاب واحـد، وطلب النـاشـر من المؤلف أن يقسمـهـا إلى ثلاثة أجزاء، وبالفعل قسمها المؤلف إلى ثلاثة أجزاء وأعطى كل جزء اسما منفصلا .

السكرية

تبـدأ أحـداث الجزء الثـالث فى يناير ١٩٣٥ ، وتنتـهى فى صـيف ١٩٤٤ ، يمر الزمن وتتقدم الشخصيات فى العمر ، وتتسع حركتهم فى مدينة القاهرة، وتظهر أماكن لأول مرة .

فى بداية الفصل الرابع، كمال يركب الترام، متجها إلى بيت الأمة، بيت سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩، والبيت موجود حتى الآن، يغادر كمال سرادق الاحتفال، إلى شارع القصر العينى، ويمر أمام مبنى الجامعة الأمريكية بميدان الإسماعيلية (أصبح اسم الميدان الآن ميدان التحرير)، ويظهر مقهى أحمد عبده مرة أخرى فى الفصل السادس حيث يجلس كمال مع صديقه إسماعيل لطيف، وفى الفصل السابع يجلس ياسين فى مقهى..

«من هذا الموضوع الدافئ ترى الغادى والرائح من شارع فاروق وإليه، ومن الموسكى وإليه.. ومن العتبة وإليها..».

ويبدو أن موقع المقهى بميدان العتبة لم يذكره المؤلف بالاسم، أما شارع فاروق فلازال موجودا حتى الآن (أصبح اسمه شارع الجيش) وشارع الموسكى لم يتغير اسمه حتى الآن.

فى الفصل الثامن يمشى رضوان بن ياسين فى الغورية، يمر بالسكرية، يجتاز بوابة المتولى، ثم يميل إلى الدرب الأحمر، والمكان الأخير يذكر لأول مرة فى الثلاثية آخر مرتبطا بحركة رضوان يذكر أيضا لأول مرة، إنه ضاحية حلوان التى تقع جنوب القاهرة على بعد ثلاثين كيلو مترا، حيث يتردد رضوان على بيت عبد الرحيم باشا، وقد بحثت طويلا عن اسم هذا الشارع فلم أجده الآن، ولم يكن هناك شارع بهذا الاسم فى زمن الرواية.

فى الفصل الخامس عشر يذهب كمال إلى مجلة «الفكر» ويحدد نجيب محفوظ بدقة شديدة:

«كانت مجلة الفكر تشغل الدور الأرضى بالعمارة رقم ٢١ بشارع عبد العزيز . . »

يتفرع شارع عبد العزيز من ميدان العتبة ولا زال يحمل نفس الاسم، لكن المبنى الذى حدده نجيب محفوظ - وتلك المرة الوحيدة التى يذكر فيها عنوانا بهذه الدقة - لا توجد ولم توجد به أى مجلة .

إن كمال يذهب إلى بيت للدعارة فى عطفة الجوهرى المتفرعة من شارع الموسكى، وهذه العطفة لا وجود لها فى الواقع، وفى الفصل العشرين نجد أحمد شوكت وشقيقه عبدالمنعم فى جامعة القاهرة بالجيزة، ثم نجد أحمد شوكت فى مكتبه بالجامعة مرة أخرى فى الفصل الخامس والعشرين، حيث يتعرف إلى زميلته علوية صبرى، وسوف تؤدى علاقتهما إلى زيارة بيتها فى ضاحية المعادى، والمعادى تقع إلى جنوب القاهرة بحوالى خمسة عشر كيلو مترا، نجد كمال فى جامعة القاهرة التى تذكر للمرة الثالثة والأخيرة فى الثلاثية كلها، فى الفصل الثلاثين يمشى كمال فى شارع فؤاد المظلم بسبب الحرب، ويصف نجيب محفوظ الزحام، وجنود الاحتلال البريطانى، أصبح اسم شارع فؤاد الآن شارع ٢٦ يوليو، ويضطر كمال أثناء مشيه للاختباء فى مقهى رقص كان موجودا فى الواقع وأزيل فى أواخر الخمسينيات، فى الفصل السادس والثلاثين تلجأ الأسرة إلى قبو قرمز ويضطر كمال إلى حمل والده، وقد سبق أن أشرت إلى أن القبو الذى يذكره نجيب محفوظ فى الرواية هو قبو آخر يقع تحت قصر الأمير بشتاك الأثرى، ولجوء الأسرة إليه أثناء الغارة الجوية يؤكد هذه الملاحظة إذ إن منزل الأسرة كما يصفه المؤلف أقرب إلى قبو الثانى من

قبو قرمز، فى بداية الفصل الأربعين نجد كمال مع صديقه رياض فى مقهى خان الخليلى، الذى شيد مكان مقهى أحمد عبده فوق سطح الأرض.

«كانت قهوة صغيرة بابها يفتح على حى الحسين، ثم تمتد طولا فى شبه ممر تصف على جانبيه الموائد، وينتهى بشرفة خشبية تطل على خان الخليلى الجديد..».

يرصد نجيب محفوظ أحد معالم التغيير التى حدثت بالمنطقة، والمقهى الذى يصفه مقهى حقيقى كان موجودا بنفس الوصف الذى ذكره المؤلف حتى عام ١٩٦٩، عندما هدم، وشيد بناء حديث، احتل فيه نفس المقهى مكانا جديدا، ولكن تصميمه اختلف بالطبع، غير أن نجيب محفوظ ذكر المقهى باسم «خان الخليلى» بينما كان اسمه فى الواقع ولا يزال «مقهى درويش»، وهو قائم حتى الآن فى مقره الجديد.

يذهب كمال إلى قاعة إيوارت الملحقة بالجامعة الأمريكية، وهناك يرى بدور شقيقة عايدة التى أحبها فى صدر شبابه، تذكر القاعة مرة واحدة، وهى قاعة موجودة فى الواقع ولا تزال، ومدخلها يطل على شارع الشيخ ريحان، ثمة مكان آخر يذكر مرة واحدة هو حديقة الشاى بحديقة الحيوانات، حيث يلتقى أحمد شوكت بصديقته سوسن حماد، والجبلاية مكان حقيقى يوجد حتى الآن.

يلتقى كمال مرة أخرى ببدور فى شارع ابن زيدون، ثم يمشى معها إلى شارع الجلال، ثم إلى شارع الملكة نازلى، الشارعان الأول والثانى لا وجود لهما فى الواقع، أما شارع الملكة نازلى فاسمه الآن

شارع رمسيس، عند تقاطع شارعى شريف وقصر النيل يلتقى كمال فجأة بصديقه حسين شداد، ثم يجلسان بمقهى ريتز، لا يزال الشارعان يحتفظان باسميهما حتى الآن، أما مقهى ريتز فكان مقهى حقيقيا يقع فى مواجهة البنك الأهلى المصرى، ثم أزيل فى أواخر الأربعينيات.

وهكذا نلاحظ أن الأماكن التى تظهر من مدينة القاهرة فى الجزء الثالث أكثر تعدداً، ويرجع ذلك إلى حركة الشخصيات داخل المدينة، ونلاحظ أن أسرة أحمد عبد الجواد محور الرواية عندما كانت متماسكة، كانت الأماكن فى الجزء الأول محدودة لا تتجاوز منطقة القاهرة القديمة، ثم اتسعت الحركة فى الجزء الثانى مع نمو الشخصيات وتقدمها فى العمر، وفى الجزء الثالث يصبح إيقاع الزمن أسرع، وحركة الشخصيات، ويستتبع هذا العديد من التنقلات فى المدينة، وبالتالى تظهر أماكن جديدة، تتكون السكرية من أربعة وخمسين فصلا:

بيت بين القصرين	١٢ فصلا
بيت السكرية	١٢ فصلا
الطريق	٨ فصول
المقاهى	٤ فصول
الجامعة	٣ فصول
حلوان	٣ فصول

مجلة الفكر بشارع عبد العزيز	٢ فصلان
دكان أحمد عبد الجواد	١ فصل
مجلة الإنسان الجديد بغمرة	١ فصل
الوزارة حيث يعمل ياسين	١ فصل
ضاحية المعادى	١ فصل
بيت الدعارة	١ فصل
قبو قرمز	١ فصل
قاعة إيوارت	١ فصل
حديقة الشاى	١ فصل
حانة النجمة	١ فصل
قسم الجمالية	١ فصل

يتقدم الزمن داخل الرواية، وتتسع المساحة التى تظهر من المدينة ومن خلال وصف نجيب محفوظ، تسجل الرواية ملامح القاهرة التى تغير الكثير منها الآن، بدءا من بيت أسرة أحمد عبد الجواد، الذى كان يعد نموذجا لسكن الأسر المتوسطة فى القاهرة القديمة، اختفى ذلك تماما الآن، وحلت المبانى ذات الطوابق المتعددة، وحتى المقاهى التى أزيل بعضها، وأسماء الشوارع التى تغيرت ثم وصف وسائل مواصلات انقرضت مثل «سوارس» التى يتردد ذكرها عدة مرات، و«سوارس» كانت عربات تجرها الخيول يمتلكها يونانى وقد ظلت

حتى بداية الخمسينيات، كما يذكر بعض معالم التطور بالمدينة، مثل إدخال مواسير المياه، لقد وصف نجيب محفوظ الخطوط العريضة لمدينة القاهرة بدقة، ولكنه لم يلتزم هذه الدقة عند التطرق إلى التفاصيل، ولكن الذى لاشك فيه أنه استطاع من خلال تركيزه على الحياة الداخلية للشخصيات أن يجسد أسلوب الحياة القاهرى والذى ساد فترة طويلة، ولا تزال بقاياه فى حياتنا.

أسماء الشوارع التى ورد ذكرها فى الثلاثية وأسماؤها الآن:

(الاسم القديم)	(الاسم الحالى)
* شارع بين القصرين.	* شارع المعز لدين الله.
* ميدان المحطة.	* ميدان رمسيس.
* شارع نوبار.	* شارع الجمهورية.
* ميدان الإسماعيلية.	* ميدان التحرير.
* شارع فؤاد الأول.	* شارع ٢٦ يوليو.
* شارع الملكة نازلى.	* شارع رمسيس.

الجزء الثالث
مجالس متفرقة

مجلس السيرة

الثلاثاء:

فرح بوت

أى إبداع جميل هذا؟

أى أدب رفيع؟

أى خلاصة، أى رحيق؟ أى شهد نقى، رائع، منعش، دافع، باعث لكافة نوازع الجمال؟

إعجاب، وانبهار، وإصغاء عميق إلى الدروس التى يقدمها إلينا نجيب محفوظ، بتواضع جم، يخفى أستاذية نادرة.

أسئلة عديدة تتوالى، وانطباعات شتى يثيرها هذا العمل الأدبى الواقع الذى فاجأ به محفوظ القراء والمحبين لأدبه وفنه. ولأول مرة منذ سنوات عديدة يصبح العمل الأدبى المنشور محوراً لأحاديث الناس، وتعليقاتهم، وانطباعاتهم. تعود إلى الذاكرة تلك الأيام الخصبة من الستينات التى كانت تنشر فيها روايات محفوظ صباح الجمعة فتصبح كل حلقة محوراً للنقاش، وموضوعًا للإعجاب والتأملات. فى «أصداء السيرة الذاتية» يتحول البناء العظيم إلى

جواهرجى ماهر، يصوغ من الألفاظ والحروف وعلامات الترقيم قطعًا من النثر النادر وكأنها الياقوت والزمرد والمرجان، فيها الألق، فيها الشعر، فيها الموسيقى، بعض منها يحتوى على خبرة البشرية بأكملها، بعض منها يحوى مواجهة شجاعة إنسانية للأبدية، للحياة وللموت.

وهو فى اللقاء الأسبوعى بالأديب العظيم، والذى يضم صفوة الأصدقاء المقربين، طرحنا عليه عددًا من الاستفسارات، لإضاءة الظروف التى احاطت بهذا العمل الفريد فى الأدب العربى الحديث. وهنا يجب الإشارة إلى أن أولئك الصحب عايشوا كتابة هذا العمل، وكان نجيب محفوظ الذى لا يتحدث عادة عما يكتبه، يلقى بعض الإشارات من أسبوع إلى آخر، يقول إنه يكتب بعض التأملات فى قصاصات ورقية، لا يدرى ماذا يطلق عليها؟، كانت إشاراته متواضعة، غامضة، واعتدنا ألا نلقى عليه المزيد من الأسئلة، فهو لا يقول إلا ما يريد أن يقوله، ولكن يختلف الأمر الآن بعد ظهور (أصداء السيرة الذاتية) وإثارتها هذا القدر كله من الإعجاب والأسئلة الثلاثاء الماضى، وفى المكان الذى اعتدنا اللقاء فيه، طرحت عليه مع الصديق الروائى يوسف القعيد كل ما يجول بالذهن، وكانت إجاباته صريحة تماما، ومفاجئة لنا فى كثير من جوانبها.

* * *

من الطبيعى أن نسأل فى البداية: متى بدأت فكرة كتابة أصداء السيرة الذاتية؟

لحيظات يحدق فيها إلى الأمام، إلى نقطة مجهولة من الزمان

والمكان، ثم يتطلع إلينا، ونذكره بما قاله لنا يومًا عن تلك التأملات التى يكتبها . . هل هى ما ينشر الآن؟

بسرعة يجيب :

«بالضبط . . والحقيقة أننى لم أفكر فى نشرها، لم يدر هذا بذهنى، بعد إجراء العملية الجراحية فى لندن عدت إلى القاهرة فى حالة صحية سيئة، كانت عندى الرغبة فى الكتابة ولم يكن هناك موضوع محدد، بدأت أدون بعض الخواطر، أى خواطر . . ثم فكرت فى إعادة قراءتها بغرض تجويد كتابتها لعل شيئا ما ينتج عنها، بدأت أمسك كل «تأملاية» وأعيد كتابتها بعناية، لكن من ناحية النشر كنت خائفًا جدًا أن أخرج بها إلى القراء، حتى أن الصديق زكى سالم كان يطالبنى بالاطلاع عليها لإبداء الرأى، وكذلك الأصدقاء فى الإسكندرية، لكننى كنت عظيم الخشية . . ومن شدة خوفى دفعت بها إلى النشر . . .

(وهنا نذكره بما قاله لنا أكثر من مرة، حول رغبته فى إطلاعنا على عمل كتبه ويحيره، ويعلو صوته درجة).

نعم . . نعم، أذكر ذلك جيدًا، إنه العمل الوحيد الذى كتبته وكنت أريد أن أطلعكما عليه قبل النشر، كنت أنوى عرضه على أكثر من صديق، العنوان نفسه لم يظهر إلا بعد الانتهاء منه، كنت قد وضعت عنوانًا مبدئيًا «تأملات» ولكننى وجدت أن كثيرا مما تحتويه مستوحى من حياتى، لكننى وجدت أيضا أنها ليست سيرة تماما، هنا فكرت فى كلمة «أصداء» على اعتبار أن الصدى يتيح قدرًا من

الحرية، لا يمكنى محاسبة الكاتب على التفاصيل . . هكذا جاء عنوان «أصداء السيرة الذاتية . . ».

من المرايا إلى الأصداء

(ونذكره بحالة قريبة مرت به، خلال الستينات، وأثناء لقائنا به فى مقهى عرابى بميدان الجيش (أزيل الآن) حدثنا عن عدم وجود موضوع لرواية، وأنه فكر فى استدعاء بعض الشخصيات التى عرضها فى حياته والكتابة عنها . . هكذا جاءت المرايا . . هل هناك تشابه فى الحالتين؟ ويجيب على الفور . .).

لا . . المرايا موضوع مختلف، فكرت أن أكتب تاريخا، محوره بعض الذين قابلتهم فى حياتى، سيد قطب، منصور فهمى مثلا، لكننى وجدت أن ما أعرفه عن هذه الشخصيات قليل جداً، يعنى لا أقدر أن أكتب فصلاً عن سيد قطب أو منصور فهمى أو محمد مندور، لم أقدر على التاريخ . .

(يعنى هل كنت تنوى الكتابة عن الشخصيات الحقيقية بأسمائها؟

نعم، ولكن معرفتى بهم محدودة جداً، المعلومات المتوفرة قليلة للغاية، لم أستطع أن أصبح مؤرخًا، فكتبت عنهم كأديب. كروائى، بعض سطور من الواقع تمثل النواة فقط ولكن باقى الحكى متخيل . . .

(لقد أحدث ذلك سوء تفاهم وقت نشر المرايا . .

بالضبط، بما أنى لم أكتب الاسم الأصلى، وكتبت بشكل روائى،

فلابد ينسى الأصل. أن يكون التناول للعمل باعتباره عملا إبداعيا متخيلا، ولكننى أعرف أن البعض حاول استنتاج أشياء واقعية لا أساس لها فى الواقع.

(ونعود إلى أصداء السيرة الذاتية، إذا كانت المرايا تعد ترجمة روائية لبعض شخصيات الحياة، فإن أصداء السيرة الذاتية تختلف.. لأن الكاتب والمكتوب عنه شخص واحد، إنه أنت نجيب محفوظ الذى يروى ويقص...).

نعم، الأصل فى كل مقطوعة إما حادثة جدت فى حياتى، أو لحظة، أو فكرة، «تأملاية».. كل هذا يمت إلىَّ بلا شك.

(ألم تضع أى خطة للعمل؟ ألم تهندس لأصداء السيرة بحيث تجىء مقطوعة قبل الأخرى؟).

إطلاقًا، ولذلك تجد أن بعض المقطوعات حديثة جدًا، ثم قديمة جدًا، تماما كما وردت علىَّ. لا ترتيب تاريخى على الإطلاق.. يعنى أذكر أنه المقطوعة الأولى عن الثورة وأنا فى الطريق إلى المدرسة، الثانية عن موت جدتى وأنا كبير، كنت مراهقًا وقتئذ، يعنى كنت رايح جاى فى ذاكرتى بدون تخطيط، يعنى أنا كنت مثل واحد لا يجد موضوعًا للكتابة ويحاول أن يسلى وقته، الحقيقة.. حالتى لم تكن على ما يرام أثناء كتابتها، كنت «مرضان»..

(لكن نذكر أنك كنت تقول لنا دائمًا أنه لو وجد موضوع فلن يكون رواية.. يعنى عندك ما يشبه القرار الداخلى بعدم الدخول فى رواية بالمفهوم السابق.

نعم - يعنى لو وجدت موضوعًا الآن لرواية، لن أقدر عليه، استمرارية الرواية، والربط بين أولها وآخرها، لن أستطيع، الرواية عاوزه قعدة، نعم. . عندى الرغبة فى الكتابة، لم تخفت ولم تهمد كما حدث قبل أولاد حارتنا، فى شهر يناير الماضى أنهيت كتابة اثنين وعشرين قصة قصيرة، لم أنشر إلا واحدة منها وهى «حديقة الورد». . ما تزال عندى الرغبة قوية، ولكن من ناحية أخرى لا يوجد موضوع رواية الآن. . ولا يبدو فى الأفق. . .

(لماذا؟ . . هل اختلفت علاقتك بالواقع؟).

أنا اعتدت أن أكتب عن المجتمع، لنأخذ مثلا الانتهازى، كلما فكرت فيه أرى صورة محجوب عبد الدايم، أقول لنفسى. . ما أنا كتبت عنه، المجتمع بالنسبة لى لم يقدم أشياء جديدة جوهرية، ما جد فى المجتمع نوعية الانتهازية، أصبحت الرشوة بالملايين بدلاً من علاوة.

(إننا نعتبر محجوب بريئا بالقياس إلى ما يجرى الآن، لقد كان يسعى إلى الصعود فى مجتمع شديد الطبقية. . ولكن السعى إلى الصعود الآن مختلف. .).

من وجهة نظرى الجوهر واحد، هو السعى إلى الصعود بالانحراف.

ويصمت نجيب محفوظ قليلا، ونعود إلى الحديث عن أصداء السيرة الذاتية.

(نقول لنجيب محفوظ إن العمل الجديد فيه قدر كبير من الحكمة، حكمة كونية، وخلاصة التجربة الإنسانية . . ويصغى إلينا متواضعا كعادته عندما يصغى إلى الثناء مرددًا آه . . آه، أو مومئًا برأسه . . ونسأل، هل كان ذلك مقصودًا أو هو نوع من الحديث مع الذات؟) .

طبعا أتكلم مع نفسى، واحد فى سنى عندما يكتب الآن، تكون وراءه تجربة هذا العمر الطويل، وما اكتسبه من خبرات، طبعا الأمر يختلف عما أكتبه فى العشرينات . . .

(نلاحظ أن هناك همًّا طاغيا حول الموت . .) .

آه . . هذا صحيح . . .

(والجنس أيضا . . .) .

وإيــه؟

(والجنس؟) .

(نعم . . الجنس . . .) .

(يمكن . .) .

(وتجلجل ضحكته الصافية، وهنا نذكره بما تحتويه مكتبته، رغم أن عدد الكتب التى يحتفظ بها قليل، ولكن الملاحظ أن الأدب الفارسى يحتل فيها موقعًا هامًّا، عندما دخلنا بيته يوم حصوله على جائزة نوبل كان ديوان حافظ الشيرازى مفتوحًا فوق مكتبه . هل يمكن القول إنه

تأثر بالأدب الفارسى . . خاصة أنه يمكن رصد تعبيرات رمزية، صوفية تذكرنا بالشعر الفارسى . . .) .

آه . . لاشك أن أحب شاعر إلى نفسى هو حافظ الشيرازى، وقد أوردت شعرًا له فى ملحمة الحرافيش، ومن سعدى أيضًا .

(ونقول له إن القراء يقرأون لأول مرة عملاً أدبيا له على أنه هو بطله . يوافقنا نجيب محفوظ على ذلك، ونعود لنذكره بما قاله من قبل إنه لن يكتب سيرته الذاتية . . ويقول . .) .

فيما يتعلق بالسيرة الذاتية أمليتها على جمال وصدرت فى (نجيب محفوظ يتذكر)، أما الجانب الفكرى والعقلى فأعطيته إلى رجاء النقاش، وعلى ما أعتقد سوف يصدر كتابه عن الأهرام فى ديسمبر المقبل، هناك فتافيت ومناطق لا أسئلة جمال تناولتها، ولا أسئلة رجاء حامت حولها، إذن . . قلت أكتبها أنا، إذن فأصداء السيرة الذاتية مكملة للعملين، بمعنى أن من يريد أن يعرف عنى . . عليه قراءة هذه الأعمال الثلاثة . (نجيب محفوظ يتذكر) وكتاب رجاء . . والأصداء .

(ألست معنا أن العنوان ظلم العمل . . إن كلمة أصداء لا تدل عليه تمامًا . .) .

فى الحقيقة سبب لى ذلك نوعًا من الحيرة، لقد وجدت أن كلمة (تأملات) كبيرة على العمل، هو أنا ديكارت يعنى؟ . . ثم إن هذه ليست سيرة ذاتية، صريحة، لكن أصداء . . .

(نقول للأستاذ نجيب إنها السيرة الأولى ربما من نوعها فى الأدب العالمى؟).

ويبتسم ابتسامة هادئة.

(هل كان لديك الوعى أنك تقف على ناحية الشعر والنثر وأنت تكتب أصداء السيرة؟).

ربما، لقد حيرنى هذا العمل، أنظر إليه فلا أجده قصة، ولا رواية، ولا شعر، ما هذا؟، تلك الحيرة وراء خوفى من الإقدام على النشر.

(هل ما زلت تشعر بالخوف يا أستاذ نجيب؟).

نعم.. أصعب شىء بالنسبة لى مواجهة القارئ، لقد مرت علىَّ لحظات كدت أمزق فيها أصداء السيرة.

(لا نستطيع أن نتخيل ذلك.. أى خسارة للأدب العربى كانت ستحدث؟).

يهز رأسه صامتا.

(قلت لنا إن الأدب يتجه إلى النصوص، يعنى لا يمكن تحديده قصة، شعر، رواية.. هل ينطبق ذلك على أصداء السيرة؟).

إلى حد كبير..

(هل أنت مؤمن بدور اللاشعور فى الإبداع الأدبى؟).

إنه أقوى عامل، بالطبع يلعب اللاشعور دوراً كبيراً، وهناك من

يحاولون الاستسلام الكامل له وإلغاء العقل، لكن اللاوعى لا يغيب عن المبدع.

(لدينا انطباع أن قراءاتك قلت جداً فى الفترة الأخيرة.

ولكن أصداء السيرة الذاتية تؤكد أنك مطلع تماما على آخر ما يكتب من قصيدة النثر، والشعر الحديث وتجارب الأدباء الجدد..).

يقول نجيب محفوظ إنه توقف تقريبًا عن القراءة عام ثمانية وثمانين، لقد قرأت الأجيال كلها، يوسف إدريس، وأمل دنقل، والقعيد، والبساطى، والوردانى، وأبو رية، لكننى لم أقرأ قصيدة النثر.. إذا وجد نوع من التشابه فلنقل إذن إنها حالة عامة.

(يا أستاذ نجيب.. لقد علمتنا الكثير.. الكثير جداً من أصداء السيرة الذاتية).

وتجلجل ضحكته الصافية التى تتلألأ فوق تموجات النيل، ثم يقول:

(يا جماعة.. قولوا حاجة غير كده..).

أغسطس ٢٠٠١

فرح بوت

مجلس المليون

جرى ذلك مساء الثلاثاء قبل الماضى، عدت إلى البيت فى الحادية عشرة مساء، بعد انتهاء جلستنا الأسبوعية مع أستاذنا نجيب محفوظ،

ذلك الموعد الذى لم نخلفه منذ صيف عام سبعة وستين من القرن الماضى، كنت مهمومًا بما سمعته وأفكر فى أطراف عديدة، لى بها صلة وثيقة.

من نجيب محفوظ علمنا أنه يمر بحالة من التوتر، إذ جاءه الناشر إبراهيم المعلم منذ يومين وعرض عليه شراء أعماله كلها لنشرها بالطرق الحديثة، بالأسطوانات المدغمة وعبر شبكة الاتصالات الدولية، وطرق أخرى لم أستوعبها جيدًا، قال إن إبراهيم المعلم عرض عليه مبلغًا ضخمًا يعد سابقة فى تاريخ النشر والناشرين، مليون جنيه تدفع كاملة، ودفعة واحدة.

ارتفعت أصواتنا بالاستحسان، ثم انتبهت إلى ضيق الأستاذ وهمه البادى، استفسرنا عن السبب، قال إنه بعد أن وافق تذكر أنه وقع عقدًا عن طريق ناشره التاريخى صلاح السحار الذى صحب معه صديقا له يعمل مع مؤسسة فى أبو ظبى.

ـ أبو ظبى؟ من بالضبط فى أبو ظبى يا أستاذ نجيب . . .

قال الأستاذ نجيب بعد تفكير قليل . .

ـ مشروع فى القرية الإلكترونية . .

أدركت على الفور ماذا يقصد.

ـ لا يا أستاذ نجيب، المشروع نفسه اسمه القرية الإلكترونية، ومؤسسه واحد من خيرة المثقفين العرب، الشاعر محمد السويدى . .

وافقنى جميع الحضور، فكل منهم ملم، عليم، بجهود محمد

السويدى فى خدمة الثقافة العربية . بدءا من النشاط الثقافى المتميز الذى يشهده المجمع الثقافى ، والذى وصفه بجدارة على خريطة الثقافة العربية ، إلى المشروعات الرائدة ، مثل وضع الشعر العربى على شبكة الإنترنت ، وإتاحته للقراء فى العالم كله ، وقد تجاوز عدد الأبيات المتاحة حتى الآن مليونى بيت من الشعر ، إضافة إلى مشروع إنشاء موقع لمؤلفات الأدب العربى القديم يتيح المصادر الأساسية للقراء والمتعاملين مع الشبكة ، وبين هذه المصادر مؤلفات يتجاوز عدد صفحاتها العشرين ألف مثل الأغانى للأصبهانى ، وسير أعلام النبلاء ، وكتب التراجم والقواميس الضخمة ، وكنت أعلم إقدام محمد السويدى فى صمت وبدون ضجيج إعلامى على تمويل مشاريع ثقافية هامة ، أحجمت عنها مؤسسات رسمية . منها على سبيل المثال طبع المجلدات الثلاثة الضخمة للدكتور ثروت عكاشة عن فنون عصر النهضة ، لا يمكن لمثقف مثل محمد السويدى إلا أن يسعى لما فيه خير نجيب محفوظ ، ولابد أن التعاقد تم بعيدا عنه ، كان المبلغ الذى اتفق عليه الناشر محدوداً جداً بالنسبة لعرض إبراهيم المعلم ، إذ يقضى بدفع ستة وسبعين ألف جنيه وخمسمائة جنيه عن مجمل الأعمال ، وهذا رقم متواضع بالنسبة لإنتاج أديب فى حجم نجيب محفوظ ، سواء من حيث الكيف أو من حيث الكم .

شعرت أن العقد ظلم نجيب محفوظ من ناحية ، ومن ناحية أخرى ذكر صديق لنا فى الجلسة أن البعض بدأ يحاول إثارة الموضوع إعلاميا ، وهنا نشأ عندى سبب آخر للضيق ، إذ لو أثير هذا الموضوع إعلاميا ، سيجد الصديق الشاعر محمد السويدى نفسه فى موقع لم يتخيله ، ولم يتصوره ، سيضطر هو أو مساعدوه إلى التوضيح ،

والحديث فى وطننا العربى عن أمور الحقوق المالية للأدباء أمر محفوف بحساسيات عديدة، فما البال إذا كان هذا الأديب هو نجيب محفوظ؟

فى ساعة متأخرة من الليل وبعد تردد، بدأت اتصالاتى لأحصل على رقم هاتف الشاعر محمد السويدى فى لندن حيث يقضى إجازته، أخيراً نجحت فى الاتصال بسكرتيره الخاص الأخ بدر فى أبو ظبى، إننى أكره رنين الهواتف الليلية، سواء عندى أو لدى صحبى وأصدقائى، لا ألجأ إلى ذلك إلا لضرورة قصوى، لحسن الحظ لم يكن بدر قد استغرق فى النوم بعد، طلبت منه إبلاغ الصديق محمد السويدى فى لندن ضرورة الاتصال بى لأمر هام، طلب منى بدر أن ألمح له بشىء ما على الأقل.

ـ بخصوص نجيب محفوظ . . .

لا أدرى كيف تمت الاتصالات بهذه السرعة، فى أقل من دقيقة كان جرس الهاتف يرن، وصوت الصديق محمد السويدى يأتينى عبر المسافات القصية، قصصت عليه ما جرى، وذكرت له انطباعى ورأيى، جاءنى صوته الهادئ وهو يقول على الفور، إنه أقدم على هذا المشروع من منطلق الحب فى نجيب محفوظ، وأن الموقع الذى تم إنشاؤه بالفعل منذ سبعة شهور على شبكة الاتصالات الدولية يقدم الخدمة بالمجان على جميع مستوياتها من أجل نشر أعمال محفوظ على أوسع نطاق، وأضاف محمد السويدى . . .

ـ ومن منطلق المحبة لمحفوظ، إذا توافر الآن عرض آخر يحقق فائدة مادية أفضل للكاتب الكبير، فإننى أول من يرحب به، إننى

سوف أتنازل فوراً عن العقد المبرم لحساب القرية الإلكترونية إذا توافر شرط الجدية عند أصحاب العرض الجديد.

ـ هل يمكننى أن أنشر تصريحك هذا فى جريدة «أخبار الأدب»؟

ـ طبعا.. وبكل سرور..

شكرته بحرارة، عندما ذكر اسم محمد السويدى، قال الشاعر عبد الرحمن الأبنودى، إنه يعرف الرجل مثل نفسه، وأنه أقدم على هذا المشروع من منطلق ثقافى نقى، ولن يكون عائقًا أمام وضع جديد يحقق مصلحة نجيب محفوظ. أكد على ذلك يوسف القعيد، ورحنا نتنافس فى الحديث عن محمد السويدى، كما عرفه كل منا. وها هو يؤكد بموقفه الجديد نزاهة قصده فى الماضى والمستقبل.

فى اليوم التالى، فى ساعة مبكرة، اتصلت بالمهندس ابراهيم المعلم مدير دار الشروق، قلت له إننى سأمر عليه فى الواحدة ظهراً بمكتبه، حاول أن يستفسر منى، لماذا وما سبب هذه العجلة، مع أننا نحاول أن ندبر لقاء يجمعنا منذ عدة شهور، لكن مشاغل كل منا جعلت علاقتنا عبر الهاتف، مثل علاقات أخرى حميمة، فالحركة الآن أقل، وعملى الصحفى يستغرق وقتًا ليس بالهين.

ـ هل أنت جاد فى مسألة العقد الخاص بنجيب محفوظ؟

قال لى إبراهيم المعلم وهو يتطلع إلىّ عبر مكتبه:

ـ طبعًا.. لكن..

رفعت يدى مؤكداً . .

ـ إذا كنت تقصد العقد الذى سعى فيه البعض وهى القرية الإلكترونية فلن يمثل هذا عقبة . . .

أبدى دهشة . .

ـ كيف؟

رويت له ما جرى مع الصديق محمد السويدى، وقلت له إن الجميع الآن متفقون على مصلحة نجيب محفوظ : المهم، جدية العقد الجديد.

ضغط إبراهيم المعلم مفتاح الجرس، جاءت مديرة مكتبه، قال :

ـ من فضلك المظروف الذى يحتوى على العقد الخاص بالأستاذ نجيب محفوظ . . .

ثم أخرج من جيبه دفتر الشيكات، وعلى الآلة الكاتبة، كتب سطوراً قليلة .

ادفعوا لأمر السيد نجيب محفوظ عبد العزيز

مبلغا وقدرة مليون جنيه فقط لاغير .

كان الشيك مسحوبًا على بنك الصادرات بالقاهرة، وهذا أول شيك بمليون جنيه أراه فى حياتى، صحيح أن رقم المليون الآن أصبح عاديًا، وقبل نصف قرن، قبل ثورة يوليو لم يكن هناك إلا شخص

واحد فى مصر كلها تقدر قيمة ثروته . . . . جنيه، وهو أحمد عبود باشا، الآن تقدر ثروات البعض فى مصر بالمليارات، ومن السهل أن أنطق لفظ المليار، لكن صعب جدًا أن أتخيله، وبالنسبة لى المليون أيضا، وإن كان المليون كما ذكرت أصبح مبلغًا عاديًا جدًا فى عالم الأعمال بمصر . . .

قال إبراهيم المعلم:

- إننى جاهز للذهاب فى أى وقت تحدده إلى الأستاذ نجيب بحيث يتم توقيع العقد وتسليمه الشيك بعد فسخ العقد الأول . .

- اقترح أن يكون ذلك يوم الثلاثاء القادم، فى موعدنا الأسبوعى . .

- موافق . . .

صباح الخميس، اتصلت بالشاعر الرقيق والصديق النبيل محمد السويدى فى لندن، أبلغته جدية إبراهيم المعلم واستعداده، فى نفس الصباح اتصل بالصديق محمود خضر، المستشار القانونى له، كلفه أن يسافر إلى القاهرة، وأن يتخذ من الإجراءات كل ما يراه مناسبًا لتحقيق مصلحة نجيب محفوظ وبدون الرجوع إليه فى أى تفاصيل.

الثلاثاء، موعد اللقاء الأسبوعى، أغادر مكتبى عادة فى الخامسة والنصف، وصل الصديق محمود خضر، اتجهنا إلى العوامة (فرح بوت) الراسية فى النيل عند الجيزة، كان إبراهيم المعلم قد سبقنا،

تم كل شىء فى مناخ يفيض بالمحبة لمحفوظ ، وبمثالية رائعة ، مصدرها ذلك النبل النادر لمحمد السويدى ، وجدية وطموح ناشر مخضرم ضرب مثلاً يحتذى لكيفية العلاقة بين المبدعين والناشرين ، وهكذا دخل مليون جنيه إلى حساب الأستاذ نجيب مقابل أعماله التى أنجزها فى سبعين عامًا ، وهذا أول مليون جنيه أسمع عنها وأراها ، وأثق تمامًا أنها نتيجة جهد حلال تمامًا ، إنه مليون محفوظ .



الفهرس

صدر للكاتب

١ ـ أوراق شاب عاش منذ ألف عام		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٦٩	
الطبعة الخامسة	١٩٨٧	(صدر فى بغداد ـ بيروت ـ القدس المحتلة عن دار صلاح الدين)
الطبعة السادسة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢ ـ أرض.. أرض		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٢	القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب
٣ ـ الزويل		قصة طويلة
الطبعة الأولى	١٩٧٤	بغداد ـ وزارة الإعلام
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٨٧	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
٤ ـ الزينى بركات		رواية طويلة
الطبعة الأولى	١٩٧٤	دمشق ـ وزارة الثقافة
الطبعة الثانية	١٩٧٥	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثالثة	١٩٨٥	القاهرة ـ دار المستقبل العربى
الطبعة الرابعة	١٩٨٨	القاهرة ـ كتاب اليوم ـ مؤسسة أخبار اليوم
الطبعة الخامسة	١٩٨٩	القاهرة ـ دار الشروق
الطبعة السادسة	١٩٩١	تونس ـ دار الجنوب
الطبعة السابعة	١٩٩١	بغداد ـ دار الشئون الثقافية
٥ ـ وقائع حارة الزعفرانى		رواية طويلة
الطبعة الأولى	١٩٧٦	القاهرة ـ دار الثقافية الجديدة
الطبعة الثانية	١٩٨٦	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثالثة	١٩٨٧	بغداد ـ دائرة الشئون الثقافية
الطبعة الرابعة	١٩٩١	القاهرة ـ مكتبة مدبولى

٦ ـ الحصار من ثلاث جهات	مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٥ دمشق ـ اتحاد الكتاب العرب
الطبعة الثانية	١٩٨٠ بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
٧ ـ حكايات الغريب	مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٦ القاهرة ـ كتاب مجلة الإذاعة
الطبعة الثانية	١٩٨٠ بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
٨ ـ ذكر ماجرى	مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٨ القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثانية	١٩٨٠ بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
٩ ـ الرفاعى	رواية
الطبعة الأولى	١٩٧٨ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
الطبعة الثانية	١٩٨٠ بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
١٠ ـ خطط الغيطانى	رواية
الطبعة الأولى	١٩٨٠ بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثانية	١٩٩١ القاهرة ـ مكتبة مدبولى
١١ ـ كتاب التجليات (السفر الأول)	رواية
	١٩٨٣ القاهرة ـ دار المستقبل العربى
	بيروت ـ دار الوحدة العربية
١٢ ـ كتاب التجليات (السفر الثانى)	رواية
	١٩٨٥ القاهرة ـ دار المستقبل العربى
١٣ ـ كتاب التجليات (السفر الثالث)	رواية
	١٩٨٧ القاهرة ـ دار المستقبل العربى
كتاب التجليات: الأسفار الثلاثة (مجلد)	
	١٩٩٠ القاهرة ـ دار الشروق

١٤ ـ إتحاف الزمان بحكاية جلبى السلطان		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٨٥	القاهرة ـ دار المستقبل العربى
الطبعة الثانية	١٩٩٠	القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
١٥ ـ رسالة فى الصبابة والوجد		رواية
الطبعة الأولى	١٩٨٧	القاهرة ـ روايات الهلال
الطبعة الثانية	١٩٩٠	القاهرة ـ دار الشروق
١٦ ـ رسالة البصائر فى المصائر		رواية
الطبعة الأولى	١٩٨٨	القاهرة ـ روايات الهلال
الطبعة الثانية	١٩٩٠	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
١٧ ـ شطح المدينة		رواية
الطبعة الأولى	١٩٩٠	القاهرة ـ روايات الهلال
الطبعة الثانية	١٩٩١	القاهرة ـ دار الشروق
١٨ ـ هاتف المغيب		رواية
الطبعة الأولى	١٩٩٢	القاهرة ـ روايات الهلال
١٩ ـ ثمار الوقت		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٨٩	القاهرة ـ كتاب اليوم
الطبعة الثانية	١٩٩٠	القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
٢٠ ـ أسفار المشتاق		أدب رحلات
	١٩٩٢	القاهرة ـ دار سعاد الصباح
٢١ ـ منتصف ليل الغربة		مختارات قصصية
مختارات فصول	١٩٨٤	القاهرة ـ الهيئة المصرية للكتاب
٢٢ ـ أحراش المدينة		مختارات قصصية
كتاب اليوم	١٩٨٥	القاهرة ـ مؤسسة أخبار اليوم
٢٣ ـ المصريون والحرب من صدمة يونيو إلى يقظة أكتوبر		دراسات ومشاهدات
كتاب روز اليوسف	١٩٧٤	القاهرة ـ مؤسسة روز اليوسف
٢٤ ـ حراس البوابة الشرقية (الجيش العراقى فى حرب أكتوبر)		دراسات ومشاهدات
الطبعة الأولى	١٩٧٥	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثانية	١٩٧٥	بيروت ـ دار الطليعة

٢٥ ـ نجيب محفوظ يتذكر		
الطبعة الأولى	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثانية	١٩٨٧	القاهرة ـ مؤسسة أخبار اليوم
٢٦ ـ مصطفى أمين يتذكر		
	١٩٨٠	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
٢٧ ـ ملامح القاهرة فى ألف عام		
الطبعة الأولى	١٩٨٣	القاهرة ـ كتاب الهلال
الطبعة الثانية	١٩٨٤	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
٢٨ ـ أسبلة القاهرة		
٢٩ ـ مقامات بديع الزمان الهمذانى (تحقيق الإمام الشيخ محمد عبده)		دراسة ومراجعة
	١٩٨٨	القاهرة ـ مؤسسة أخبار اليوم
٣٠ ـ شطف النار		مجموعة قصصية
	١٩٩٦	القاهرة ـ هيئة قصور الثقافة
٣١ ـ مختارات أبى حيان التوحيدى		
	١٩٩٣	القاهرة ـ المجلس الأعلى للثقافة
٣٢ ـ توفيق الحكيم يتذكر		
	١٩٩٤	القاهرة ـ المجلس الأعلى للثقافة
٣٣ ـ مطربة الغروب		مجموعة قصصية
	١٩٩٦	القاهرة ـ دار الحضارة العربية
٣٤ ـ سفر البُنيان		رواية
	١٩٩٧	القاهرة ـ روايات الهلال
٣٥ ـ حكايات المؤسسة		رواية
	١٩٩٧	القاهرة ـ دار الشروق
٣٦ ـ الخطوط الفاصلة		ترجمة ذاتية
	١٩٩٧	القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية
٣٧ ـ خلسات الكرى (دفتر التدوين الأول)		
الطبعة الأولى	١٩٩٨	القاهرة ـ دار شرقيات
الطبعة الثانية	٢٠٠٠	القاهرة ـ دار الشروق

٣٨ ـ دنا فتدلى (دفتر التدوين الثانى)

الطبعة الأولى	١٩٩٩ القاهرة ـ دار الحضارة العربية
الطبعة الثانية	٢٠٠٣ القاهرة ـ دار الشروق

٣٩ ـ رشحات الحمراء (دفتر التدوين الثالث) ٢٠٠٣ القاهرة ـ دار الشروق

٤٠ ـ نوافذ النوافذ (دفتر التدوين الرابع) ٢٠٠٤ القاهرة ـ دار الهلال

٤١ ـ نثار المحو (دفتر التدوين الخامس) ٢٠٠٥ القاهرة ـ دار الشروق

٤٢ ـ يومياتى المعلنة القاهرة ـ دار نهضة مصر

أعمال ترجمت إلى لغات أجنبية

١ ـ الزينى بركات

الطبعة الفرنسية	Edition Du Seuil
الطبعة السويدية	Norestad & Soners
الطبعة الإنجليزية	Penguin
الطبعة الهولندية	Unieboek
الطبعة النرويجية	Ascheoug
الطبعة الألمانية	Lenos
الطبعة الروسية	رادوجا
الطبعة البولندية	الدولة

كما ترجمت إلى العديد من اللغات الأخرى

٢ ـ وقائع حارة الزعفرانى

ـ صورت ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية ، فى سلسلة الأدب المعاصر عن الهيئة العامة للكتاب فى القاهرة.

ـ صدرت باللغة الألمانية عن دار فولك ـ إندلخت .

ـ قصص قصيرة ترجمت متفرقة إلى اللغات : الفرنسية ، الإنجليزية ، الإيطالية ، الإسبانية ، العبرية ، الألمانية .

ـ ترجمت الرويات التالية إلى عدد من اللغات :

١ ـ شطح المدينة ٢ ـ هاتف المغيب ٣ ـ متون الأهرام

٤ ـ رسالة البصائر فى المصائر ٥ ـ كتاب التجليات ٦ ـ مقاربة الأبد

جوائز:

ـ جائزة الدولة التشجيعية للرواية عام ١٩٨٠

ـ وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى

ـ وسام الاستحقاق الفرنسى من طبقة فارس ١٩٨٧

أعدت دراسات عن أعماله ، فى جامعات :

القاهرة ، السوربون (باريس) ـ بيركلى (أمريكا)

محمد الخامس (الرباط) ـ جامعة لندن ـ جامعة مارتن لوثر

هاله (ألمانيا الديمقراطية) ـ جامعة ليبزج ـ جامعة أرلنجن (ألمانيا الغربية) .

رقم الإيداع ١٨٨٨٩ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 1144 - 5

مطابع الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)

مقهى ريش. نوفمبر ١٩٨٠

كنت حزينا، كمدا، الجرح ما زال طريا ساخنا ينزف، بدأ بعد رحيل والدى بغتة وأنا بعيد. قلت له إننى لم أستوعب بعدُ رحيل أبى المباغت، إننى لن أراه مرة أخرى أبدا، لن ألقاه مرة أخرى.

قال: من يدرينا يا جمال؟ كما أن المادة تتحول إلى أشكال أخرى ربما يتبقى الوعى بشكل ما.. من أين لنا أن نقطع باستحالة اللقاء؟

• • •

خلال لقاءاتنا عبر السنوات الأخيرة، بدأت أنتبه إلى نفاسة ما يبديه الأستاذ من آراء. حرصت بعد عودتى إلى البيت أن أدوّن ما قيل، إما بنصه أو خلاصته فى «المجالس المحفوظية».





6 221102 015561

دار الشروق
www.shorouk.com